واسيني الأعرج

نــوار اللــوز

تغريبة صالح بن عامر الزوفري

رواية

الراحلون المقيمون...

اليوم، كل شيء تلاشى إلا أنتم .
فقد بقيتم واقفين كشجرة خروب في وجه اليأس.
شكرا على صبركم الكبير.
أملا في دنيا أكثر رحمة و عدلا.

واسيني.

فاتحة الرواية

-1-

قبل قراءة هذه الرواية التي قد تكون لغتها متعبة، تنازلوا قليلا وأقرءوا تغريبة بني هلال. ستجدون حتما تفسيرا واضحا لجوعكم وبؤسكم. ما يزال بيننا، و حتى وقتنا هذا، الأمير حسن بن سرحان، دياب الزغبي، أبو زيد الهلالي، الجازية... فمنذ أن رمينا على هذه التربة الجافة وإلى يومنا هذا، ما يزال النصل هو لغتنا الوحيدة لفك خلافاتنا المزمنة.

حتى لا أثقل عليكم و أبدو أتعس من أبي زيد الهلالي و دياب الزغبي و الأمير حسن بن سرحان، صناع التغريبة، أقول إن وقائع هذه الرواية هي من نسج الخيال بشكل ما من الأشكال، و إذا ورد أي تشابه أو تطابق بينها و بين حياة أي شخص أو أية عشيرة أو أية قبيلة أو أية دولة، على وجه هذه الكرة الأرضية، فذلك من قبيل القصد و ليس المصادفة أبدا.

-2-

من تأمل هذا الحادث من بدايته إلى نهايته، و عرفه من أوله إلى غايته، علم أن ما بالناس سوى سوء تدبير الزعماء و الحكام و غفلتهم عن النظر في مصالح العباد.

إغاثة الأمة، في كشف الغمة **للمقريزي**.

الـفـصل الأول
تـفـاصيـل صغيـرة

-1-

مسكونا بالدهشة كان، و برائحة الحناء البدوية والاحتراق.

حاول فتح عينيه المتعبتين بتكاسل. برد الشتاء ينفذ إلى العظم كالإبر و يقوي شهوة النوم. بدا له رأسه ثقيلا و أعضاؤه مرهقة. تسرب في دمه مذاق السواك الهندي و العطور الصحراوية التي تنبعث من الجازية كلما تشقق حائط بيته الهرم، قبل أن تعود على أعقابها، تجر أتعاب بلاد المغرب، و بؤس نجد، في كفها لجام عودها الذي لا يتعب.

ياه... كم تمنيتَ بيأس العشاق لو مكثت قليلا معي، لكنها هي هي، كالنور تشق الحيطان، و كالومض تروح و كأنها لم تكن. إنها لحظة التعبد للتفاصيل الجميلة التي لا تعرفها يا صالح فما زلتَ بدويا حتى العظم، لا يعرف فلسفة التفاصيل الصغيرة التي يعيشها.

« راسك خشنة يا صالح الزوفري، يا وليد البراريك، كما أحجار الوديان. صم أزرق يا لطيف.»

هه يا الجازية، يا أخت الحسن بن سرحان، ليلة البارحة انتظرتك بحب العاشق المحترق. و حين جئتني في ساعة متأخرة من الليل و كنت متعبا من السكر، حاولت لمسك، فأحترقت بين أصابعي. بكيتِ كثيرا و بعدها أغمضتِ عينيك. سحبتِ وراءك خيلك و قصدتِ بلاد الغرب التي كان الزناتي خليفة قد أغلق أبوابها الأربعة، قبل أن يموت، و تسقط عيناه في سواد الخوف، و تتهاوين أنتِ تحت قبضة دياب الزغبي.

متشابهون يا الجازية كالدم و النار.

تأتون، و كالبرق، تعودون.

حتى المسيردية التي لا تمتلك إلا طيبتها. ذبحتني من القلب. ذهبت و رغوة الأمومة تملأ ثدييها و فمها. و لونجا، رعشة الأنبياء و الصحابة، منذ حادثة التبن لم أعد أراها أبدا. اشتقت إلى وجهها النبوي الذي لا يمل.

« لكنك يا صالح، يا ربك، قلتُ لك رأسك كأحجار الوديان، أحد أتعس سلالة بني هلال التي قادها الجوع إلى التهريب وحرق مدائن المغرب. »

يا صالح، يا الصالح،

يانـا.

يا القمح البليوني.

و عيونك آ الصالح،

كحل و عجبوني.

يا صالح آ الزين و يا عينين الطير.

ماذا يا الصالح، يا آخر سلالة بني هلال؟ أيها القمح البليوني، بدأتَ تتفسخ مرغما و تسقط من عينيك كل الأشياء الجميلة التي أنبتها قي قلبك الشهداء و دهر من الحزن. ماذا بقي لك من أبي زيد الهلالي غير إرث السيف الذي لا يعرف الغمد و التهريب و الجوع، و الفنطازية الخاوية و صدقك الذي لم تعد له أية قيمة؟

« لا. الدنيا ليست هكذا. فالتربة التي أحرقت أصابعي، و ملأت أشواكها قدمي وعيني، لم تعلمني الكذب و لا حتى مجرد التفكير فيه، إلا عند الضرورة القصوى، لكنها علمتني الإحتراق يا خويا وكل ما يدفع المرء إلى تنفيذ حكم الإعدام في نفسه و بأقصى سرعة ممكنة. »

الحكاية، يا صالح يا الزين... تناقلناها بمشقة عن الذين سبقونا في الشهادة. و حق راس عودي و عيون لونجا البحرية، وشعرها الأسود الذي كتفت به فرسان العشق و خيالة الأزمنة المنقرضة، أن التربة التي نبتت فيها علمتني الرجولة وأغوتني بارتكاب المعاصي و الحماقات.

يُروى أيها السادة الطيبون، و العهدة على سيدي علي التوناني، أن قبيلة أولاد عامر كانت مركز المتاعب، و مصدر قوة الهلاليين. لكن الزمن القاسي دار عليها، فطحنها كما تطحن في هذه الأيام قلوبنا و حواسنا التي ما تزال تشتغل. وحكي الكثير عن هذا التساقط الرخيص. قيل من بين ما قيل، عندما تنحني الرؤوس للقتلة، سيقوم رجل منا و سيمشي واقفا كأحطاب الزيتون. سينكسر و لكنه لن ينحنيَ أبدا. سيعلونا الدود، و عيوننا مفتوحة. سننقرض، وسنضطر أن نجبر حكامنا على أن

يقدموا لنا شهادات إنقراض تسهل لنا عملية الخصب والزواج، علنا نتوصل إلى الحفاظ على السلالة التي ملأ ضجيجها الدنيا ذات زمن. حتى الجازية، حاربوها، فماتت كل النطف التي شقت رحمها سرا.

فالأولون، و هم صفاء السلالة، أكلتهم الزلازل و المجاعات و أمراض التيفوس التي اجتاحت بلدتنا الأولى ذات صيف، فمات الصغير و الكبير و حل القحط بالمناطق الرعوية. ركبوا البيداء و القفار. أكثرهم مات في الطريق عطشا و جوعا، هو وجماله و أغنامه. تفلحت شفاههم من كثرة الشمس المحرقة وأكل التين و شرب مياه العيون المالحة و الفلفل الأحمر المشوي على التنانير البدوية التي لا ينطفىء جمرها. و صرع الجنون البقية المتبقاة من الهبل. و يقول مؤرِخ البلدة سيدي علي التوناني و معه قدماء البلدة و أعيانها: الحمد لله الذي خلق الإنسان من سلالة من طين، ثم جعله نطفة في قرار مكين، ثم خلق النطفة علقة، فخلق العلقة مضغة، فخلق المضغة عظاما، فكسا العظام لحما، ثم أنشأه خلقا. فتبارك الله أحسن الخالقين، يهدي من يشاء بتوفيقه إلى جنات النعيم ويضل من يشاء عن الخير و يجعله في الجحيم. و كذا كان بأولاد عامر حين طمع فقيرهم في غنيهم و مهبولهم في عاقلهم. فدار عليهم الزمان، و سيدور على ما تبقى من باقي هذه السلالة. و قد ينجو وجه محروق، لم تتلفه رمال الصحراء، هكذا يقول الطالع، و سيعيد مجدا علاه التراب، و قد يبعث الذرية إلى الخلق من جديد.

و تقول أمي التي جنت بدورها بعد أن التهم ذراعها الأيمن كلب أجرب ومكلوب، إني حين وُلِدتُ و أختي خضراء التي تزوجها رجل طيب، دفعها عقمه إلى تبنى طفل ولد مهروسا بالتجارة: تلاقحت الأزمنة الجافة و تساقطت أمطار قوية على غير العادة، وأشرقت الشمس من المغرب و غربت من المشرق، لأول مرة مذ كان الكون كونا، و مذ كانت الدنيا دنيا. و لمعت الأنجم في وضح النهار مع لمعان الشمس.و يومها كان الطاعون يأتي على ما تبقى من السلالة، و ليل الرحلات و السفر في البراري و القفز، يلوي أعناق بقايا رجال القبيلة، كنت المعول عليه، لكني كبرت فقيرا، و القبيلة التي تحضنني، تفككت أواصرها وذهبت أخبارها مع الريح.

حتى رئيس البلدية بودخلة يا صالح، وجد ذات فجر يعوم منتفخا على سطح مياه الوادي، مطعونا عشر طعنات قاتلة، و أقسم برأس عودي أن الذين وضعوه، و هو من السلالة التي تلاقحت مع سلالتنا، هم أنفسهم الذين حاربوه حتى الموت، حين بدأ يفلت بلزوجة من أكفهم. حين حاصروه، هددهم بإخراج ملف سرقة إسمنت المدارس و بناء الفلاَّت على حساب مال الدولة. بينما كان السبايبي « راس الغول » يلوح بمعارفه بالعاصمة، و بسيفه الذي ورثه عن أجداده الذين باعوا البلاد و العباد.

« آه يا صالح يا ولد امَّا، السبايبي هو راس الغول. وين راك يا السيد علي الذي يرفض أن يذبح كالنعجة و يداه قادرتان على المقاومة؟ وينك يا الكتاتبي؟ في يدك مفاتيح اللعبة، فلماذا كل هذا الصمت المرهق؟ »

فتح صالح عينيه. تنهد بعمق.

« يعلن الشيطان ولد الحرامي. »

شختَ يا صالح، يا القمح البليوني. بدأت تتحول إلى السي عمر بوحلاقي تحكي عن الزلازل المخيفة، و عن يوم القيامة، وكيف أن الدم سيسيل، و يقيم السيف في الأقطار غمدا، و كيف يظهر الفارس الملثم الذي يظلم العباد، و يسقط تحت ضغط الدجال. يطوف الأرض شرقا و غربا و يفعل المعجزات، و يظهر المهدي، لكن ابن مريم بقهره و يملك في العباد. و تأتي الدابة، و ليعيذوا بالله من الدابة، حية لا رأس لها، و لا تابع. تنقلب الخلائق على رؤوسها و تظهر الشمس من المغيب. فلا نهر الفرات يجري و لا دجلة تروي اليباس. و تظهر النيران في البلاد و بعدها ينكشف من وراء الدخان الكثيف، وجه الديان العادل و يقتص لكل المظلومين.

شُخْتَ يا صالح مثلما شاخ عمر بوحلاقي العجوز. الحكاية طالت يا ابن أمي. و إذا أنتظرنا حتى يأتي الديان سننقرض كالحشرات الضارة، وينقرض أطفالنا. و حق محمد، فالمهدي بدمه و لحمه وعنفوان نوره، إذا دخل هذه البلاد، سيقف حتما في محاذاة مؤخرة حمارته (أتانه) العجوز، و يختبىء بين رجليها منتظرا حتى تُحل المصاعب، ليُظهِر وجهه الملتحي.

عمر بوحلاقي لا يعرف من الدنيا غير عذاب القبر، و القيامة وزلازل الآخرة.

« آه يا عمر خويا، صدقني أن العمر كله حلاقي. إما أن تخرج من الدائرة أو تموت داخل عفن الدائرة. أنت و قدرة عودك الذي تركبه؟ »

نهارنا يا خويا عمر مخيف. و ليلنا متعب كدمع اليتامى. تصور، حين غادرتني الجازية و عادت شقوق الحائط إلى التئامها الطبيعي، أغمضت عيني في ساعة متأخرة من الليل. رأيت السكاكين تهاجم حواسي الخمس، و النيازك تندفن في العيون و في بطون أطفال الأحياء الفقيرة و استيقظت على ريح صحراوية حامية حولت خضرة العيون إلى يباس. مع أن المسألة في هذا الفجر لم تبدأ بالشكل الدرامي المرفوض. فقد رأيت وسط هذا الخوف، و للمرة الثانية، وجه لونجا، زوجة إمام القرية المتوفي. المرأة ذات العيون المتسعة. كانت تحت رحمه جثتي. الملعونة جميلة. تخاف وتخيف. فيها شيء من سير الأنبياء الآفلين. يا لطيف؟ هذه الطفلة بركان. حتى ابن مريم، لو يراها، على عفته، سيسقط ضحية عينيها الحارقتين و لا من ينجده.

« يا بابا صالح. يا شيخ، استح. استح. أنت شخت كحطبة يابسة و البنت ما تزال تفاحة؟ أحشم على عرضك. »

لا. تفو.تفو.

من قال هذه الحماقة؟ مؤكد أنها رواسب سيدي علي التوناني التافه لدرجة القرف. اللي جاي يا بابا صالح أكثر من اللي فات. انقضى الزمن الذي كنت أحلم فيه بأن أتحول إلى أبي زيد الهلالي، حين حملت سيفا عربيا مكسورا، و ركبت دابة جائعة و بدأت أدور في مكاني حتى أغمي علي. نحن في زمن صالح ابن عمر الزوفري الذي لم يرث من قبيلته غير صياحات ودماء الفقراء، و انكسارات أشواقهم و طيبتهم الاستثنائية التي لا تفيد كثيرا و السيوف التي لا تعرف الأغماد.

« آه يا التوناني، يا يماك أنت لم تدون إلا الكذب. حروفك كانت مدفوعة سلفا من طرف الناس الذين سجلت انتصاراتهم.»

فرك عينيه في الفراش. مرة أخرى حاول أن يقاوم لذة الفجر وكسله. شعر بنشوة الدفء تصعد من كافة أعضائه. تذكر طفولته التي قضاها في العراء. كان يلبس سروالا قصيرا مقطعا عند الركبتين و عند حدود انتفاخ الأليتين و قميصا ممزقا تآكل

كماه من كثرة الاتساخ و مسح الأنف. العينان دامعتان، الأنف ملتهب و المخاط من حين لآخر يترك الأنف و الشفة العليا راسما خيطين مستقيمين ينتهيان عند الفم و اللسان الذي يمسح من حين لآخر بقايا المخاط ليعود مرة أخرى نحو الفم.

يا لطيف؟ من التوناني إلى بنسنس أحمر العينين. الملعون. طفولة مقتولة في المهد. على هذه الأرض الميتة،قبل أن تفتح عينيك الصغيرتين يخنقونك بلا رحمة. و حق محمد، بين التوناني و بنسنس، و اليرناسني، مسافة أصبع أو أقل. الأول أصبحنا نخافه، حتى تحول إلى أسطورة. كلامه فوق كل شيء. و بنسنس، عرش خوفه في قلوب الصبية كالنبتة السامة و في أحلامهم. كنا صغارا. حين نسمع باسمه ترتعد فرائصنا في الفراش. يقول حكماء البلدة الذين عرفوه عن قرب، كانت تجمعه بموح اليرناسني محبة كبيرة على القتل وهدر دماء الصغار. يسرقون الأطفال ذوي العيون و الأيدي الزوهرية_. يذبحونهم على أبواب المغارات، و يغسلون التربة بالدم و بالأمخاخ التي ينتزعونها من بقايا العظام المكسورة. ثم يقرؤون ما تيسر من القرآن و يتسرسبون بعدها في قلب المغارات المخيفة في محاولة يائسة للعثور على الكنز الذي حكى عنه الأسلاف. هذه هي معتقدات البلدة التي لم تكسرها هزائم الأعداء المتكررة و الزمن الصعب. كلما دخل البلدة الشخص القادم على جواد أسود، تجارت النسوة نحوه، وتنادبن عند أقدامه، و ذبحن الديكة و الخرفان السوداء إرضاء له حتى يتقين شره و لا يأخذ أطفالهن. أمي كانت تخاف علي حتى الموت من الجياد السوداء، لأن الشلطة و العلامة التي تشبه خريطة رسمت بيد طفل صغير، التي في عيني اليمنى، تجعل مني زوهريا قابلا للخطف في أية لحظة.

« منذ طفولتنا و هذه الأشياء السامة تقتلنا من الداخل بالتقسيط. الذعر المزمن يا بابا صالح. اصبر يا المسكين على همك و أحزانك. »

بهدوء انزلقت نظراته و أصابعه تحت الوسادة. تحسس التبغ الشعبي القديم. شنشنت تحت يديه علبة الشمَّة الورقية. لا، ليس هذا وقت الشمة. في الفجر لا يشم و لكنه يدخن. لف سجارة الشعرة_، قربها من فمه و لسانه. ثم أوقدها على نار المصباح الزبتي الذي كان عند رأسه. الفتيلة كانت ذابلة و نورها شاحب يميل نحو زرقة تحتضر وصفرة داكنة أتعبها الدخان الأسود الذي يملأ الفير_. تراءت له قناني

الروج _ التي كانت تملأ الدار مثل كائنات ميتة و مهملة و قبل زمن قليل كانت قادرة على منح الحب و الحياة بسخاء. لم يقل شيئا و لكنه تذكر من جديد وجه الجازية، ومتاعب الليلة الماضية. هذه هي عادة صالح الزوفري. عندما تقتحمه الأحزان، ينزوي في براكته، و يخرج بقايا النبيذ المعتق. ويأتي على القناني واحدة واحدة، حتى يرى الحائط ينشق، لتتسرب منه الجازية مثل الومض بلباسها الفضفاض الأبيض. كل الذين عاشوا اللحظة يروون ذلك. عينا الجازية تذبحان و لا تتركان من يلمسهما حياديا. صالح يضيع لأنه يشعر أن الجازية من دمه و هو من لحمها. يختلط وجهه بوجه المسيردية و لونجا. الجازية حينما تخرج من الحائط المنشق، يقسم الذين رأوها أنها تأتي و في يدها سيف عربي قديم و دمعتان متجمدتان في المحجرين. و عندما يحاولون تذكر خطوط وجهها الصافية، تخونهم الذاكرة فجأة.

ينام صالح كل ليلة على خزرة عينيها اللتين لا ترمشان أبدا.

لم يدر كيف رفع عينيه نحو السقف الهرم. سحب نفسا عميقا، اكتسحت معه جمرة السجارة نصف طولها. تذكر أنه من بين هذه الأخشاب المتشققة تسربت الجازية حين حاول لمسها. كانت مرهقة و حزينة و مرتبكة. تحجرت في عينيها دموع الحسين بن سرحان الذي أكلته مسافات نجد الليلية و بلاد الغرب التي كلما اقترب منها زادت بعدا. بدت له الجازية منشغلة كثيرا و هي تسحب وراءها أحصنتها منكسرة الرأس. حين ابتعدت لحظات قبل أن يصهل عودها و يغيبان نهائيا، اعترته رغبة جامحة للبكاء و لكنه كتمها. الرجال لا يبكون أمام النساء.

« شكون الحمار اللي سن هذا القانون؟ لا شيء يعوض دمعة رجل أمام امرأة. الشي اللي ما يخرجش عن القانون، لا خير فيه. »

تناهت إلى أذنيه، خشخشة الفئران و الحشرات الدقيقة التي كانت تتآكل و تفرخ بانتظام داخل أعواد القصب القديمة، وشجيرات المارمان، و الأخشاب التي سرقت من الغابة أيام الحروب الفائتة التي ما زالت إلى اليوم تتحمل بصعوبة ثقل أتربة السقف.

حين حاول رفع رأسه أكثر لذعته البرودة السامة. تكمش داخل الفراش كقطعة جلد محروقة.

« هه يا بابا صالح. الوحدة قاسية. ها قد أصبحتَ زوفريا_ كما لم تشته أبدا. حتى الجازية بدأت تنفرك هذه الأيام. تأتي،تتأمل أحزانك و عزلتك و بسرعة تعود تجر وراءها خيلها و خيبتها . كبرتَ يا صالح يا وليد سلالة المجانين، و الزمن الغدار. جسد الجازية غض و ناعم، لا يلمسه إلا القادرون على اقتحام القلوب المغلقة و الذين خاضوا الحروب الكبيرة التي صنعت منهم أبطالا، و أنت أي الحروب خضت؟ تراباندو و الميزيرية. »

تأمل صالح الأرضية المتسخة و بقايا الزجاجات الخمرية الفارغة و رائحة النبيذ الأحمر. الكلبة شطيبا تنام مغمضة العينين في طبق الخبز، ملتفة على نفسها كالثعبان. القطة لم يعد يسمع إلا ترترتها و حركتها الروتينية بين رجليه. لأول مرة، منذ وفاة المسيردية، يشعر بفراغ غيابها. المسيردية كانت طيبة، قلبها بحر و عيناها واسعتان كرحبة خيالة. مع ذلك، فقد كانت تَرْهَبُ عيون الجازية، كلما أحست بي ملتصقا بها.

حكيت لها عنها مرارا، تماما مثلما رأيتها تخرج من بين شقوق الحيطان أو كما روى لي عنها مشايخ البلدة وأصحاب الحلاقي في الأسواق الشعبية.

البرد. الوحدة القاسية. إيه يا بابا صالح بن عامر. الدنيا بنت الكلب. يبدو أن نبوءة سيدي علي التوناني السخيفة ستصدق حتما. فقد فشلتُ في الإخصاب، على الرغم من توفر هذه الإمكانية. الله يلعنك يا التوناني، لولا دعوتك المشؤومة، كان طفلي الآن، أحد أصدقائي.

عندما كانت المسيردية على قيد الحياة، كانت الدار أكثر تنظيما. كانت حبلى، و كنا نحلم كثيرا بالأشياء الجميلة التي لم نرها أبدا في حياتنا. حتى الحيوانات كانت تحترم نفسها . حين تشعر بنا قريبين من بعضنا البعض، لحظة صدق و حميمية، تتخبأ وراء الأغطية القديمة، أو داخل الأحذية و القش الموضوع في زوايا البيت. حين أفتح عيني مع نجمة الفجر أفاجأ بالقهوة جاهزة وبوجه المسيردية المبتسم دوما:

–صالح بن عامر. بركاك من الرقاد؟ لم تعد ولد البراريك الزوفري؟ عندك امرأة و بيت و إلا نسيتْ؟

آه يا بنت الناس إنتهكتك مصائب هذا العالم التعيس. الزوفرية عادت ببرودتها و قساوتها و وحشيتها. لم تنته أبدا. أنتِ التي انتهيتِ و انتهى معك الطفل الذي اشتهيته و حلمت برؤية عينيه الطيبتين و استعادة الذرية المفقودة.

« يبدو أني بالفعل سليل العائلة المخصية التي سلط عليها سيدي عبد القادر الجيلاني أبشع دعواته. سيدي عبد القادر الجيلاني و العياذ بالله. لحقتنا دعاوي الأولياء و الصالحين و الصحابة والأنبياء يا بنت الناس. »

وسط متاعب الوحدة، أتذكرك. صدقيني يا المسيردية أني حين أجوع أتذكرك بعمق و حنان، مثلها أتذكر طفولتي. في كل لحظة تفاجئني عيناك المذهلتان و قدرتك الخارقة على إشباع بداوتي النهمة. أتذكرك الآن يا ابنة سيد الرجال و لالة النساء مثلما أتذكر أمي التي ورثت أحزان أبي وقبيلتها، و كيف كانت تطبخ لنا قوائم الدجاج وعظام الأغنام التي كانت تلتقطها من أفواه الكلاب و من تحت أرجل الجزارين. تغليها في الماء، و حين يدخل الجوع و برد المساء عيوننا، تقدمها لنا و توهمنا باننا أكلنا لحما تفسخ من كثرة الحرارة مع البطاطا و الجزر و اللفت. ذات مساء، حين أخذت الملاعق في الصعود و في النزول، تحسستُ تحت الملعقة الخشبية شيئا صلبا. و الشيء نفسه حدث مع أحد إخوتي. في البداية ظنناه لحما و لكن سرعان ما أطلت من تحت البطاطا و الحساء، قوائم الدجاج. في ذلك المساء البارد كالحرقة، ضحكنا كثيرا حتى كدنا نجهش. لكن أمي في خفاء ما، كانت تذرف بقايا دموعها التي جفت. و في الليلة نفسها، رأيت في منامي أحصنة بيضاء، تسقط في الوحل وتتحلل مع ذرات الضباب وتقدم طعما للحيوانات المفترسة في صحون لا لون لها و لا شكل. رأيت عيون الادميين و الحيوانات تبكي حتى تتقيح، فالريح لم تعد ريحا و الوجوه التي ألفناها لم تعد وجوها.

لفت إنتباهه من جديد سقف البيت، الذي بدأ ينتفخ و يثقل.

« آه يا المسيردية يا بنتي، صالح الزوفري يظل زوفريا حتى يسقط كالحشرة. آخ. الله يحفظ. ذات صباح نردم أحياء تحت أنقاض هذه البراكة. أنا و لزرق و الكلية شطيبا و القطط. »

يا لطيف. هذه هي حالة المسكين: الميزانية الكحلاء والترابالندو، و الموت و أولاد لاليجو _ يتنافخون علينا. أولاد لاليجو سقطوا من تاريخ سيدي علي التوناني، حكى عن طمعنا في أموالهم، و لم يحك عن جرائمهم و الدم الذي أهدروه. هه البارحة فقط قتلوه. السي لخضر. لا أحد يدري من سيكون دوره في المرة القادمة. وجدوه عند حائط عتيق، تنام داخل رأسه ثلاث عيارات نارية إنتزعت طفولته و أحلامه. مخه ملتصق بالحجارة الصلدة. الفك الأيسر إنفصل عن الفك الأيمن. عظام الرأس تهشمت و توزعتها الأتوبة السوداء و الحجارة و الفراغات المخيفة. شاشيته التونسية الحمراء، عثر عليها في يد طفل، وقف مشدوها، يردد و يعض على إبهامه بقوة :

. أولاد الحرام؟.. عمي لخضر قتلوه. عمي لخضر قتلوه.

يا لخضر، يا ابن صخور هذه البلاد، لا أعرف دور من منا في المرة القادمة؟ أنا؟ العربي؟ أطفال حي البراريك؟ لا أحد يعرف. الموت صار مثل الكواسر ذات العيون الحادة، التي تتصيد فريستها بالنظر قبل أن تهبط عليها بقوة و لا تترك لها حتى فرصة الدفاع عن النفس. المسألة تعقدت يا وليد البلاد. كل الناس غسلوا أياديهم من دمك. عسكر البلد المجاور ينفي أنه رأى سحنتك الهزيلة. عسكرنا دفعوا ثمن كفنك ورفضوا تهمة قتلك. مع أن المسألة ربها واحد. لخضر مات. ودمه برد. و إنكوى صغاره في قلوبهم. لم يكن مهربا ماهرا قادرا على ممارسة هذه اللعبة القذرة. لو كان فقط مثل أبي زيد الهلاي، يهرب بضائع بلاد نجد إلى بوابات تونس الخشنة، كانت المسألة قد حلت. لو فقط كان مثله، وخسرناه في الرحلة، كنا بكيناه و نسيناه و قلنا الله غالب. و لكنه كان لخضر يا عباد الله، و لم يكن أبا زيد الهلال.

لخضر أغرته اللعبة، و بنادقهم كانت عمياء بالليل وبالنهار.

هم يلعبون اللعبة القذرة حتى النهاية، و نحن ندفع الثمن من لحمنا. حتى البنزين هذه المرة، أخذوه. حملوه في الشاحنات، وفي وضح النهار وتاجروا به أمام أعيننا. أنا متأكد أن وراء هذه العمليات الضخمة رجالا قادرين على كل شيء، حتى القتل. لا يؤمنون بلعبة الصدفة التي نسقط دائما ضحاياها. نحن نسقط، و هم آخر من يمكن أن تلصق به التهمة. أنا متأكد أنهم كبار. وراءهم من يحميهم. يجنون أرباحا مفزعة مثل تلك التي كان يجنيها أبو زيد الهلالي.

« لا أريد إيذاءك يا ابنتي. أنت طيبة يا الجازية، لكن أهلك الكبار، دياب الزغبي، و الأمير حسن بن سرحان، كانوا يقامرون بعيون أطفالنا و بأرزاقهم و بأعناق الفقراء.

قاوم البرودة. نهض أخيرا من فراشه بصعوبة. فتح الباب بهدوء كبير، تسربت لفحة باردة كالثلج مع انفتاحه.

. أوف. هذا برد الثلج. الله يجيبها في الصواب.

أطل على الساحة، من وراء الباب الخشنة التي شهدت كل الحروب الفائنة. لقد سرقها من ثكنة عسكرية مباشرة بعد الاستقلال. شوكت لحمه أنسام الفجر الباردة. تلمس الباب التي نفختها مياه الشتاء. تحسس شقوقها التي كانت كل سنة تزداد انفتاحا. كانت شاهدا علنيا على أيام الدمار التي سحبت في طريقها كل السعادات الصغيرة للناس الذين كانوا يظللون تحت ضخامتها.

يا الله. الأيام التي التهمت كل الأشياء الجميلة فينا، أعطتنا شيئا أجمل و أروع، لكنه بدأ يتشوه مع قساوة الأيام و كثرة أولاد لاليجو الذين بدأوا ينتشرون كالبقر المتوحش.

في هذه البلدة التي ينبت فيها الخوف مع الرغيف، وتخزن شمسها وراء الغيوم الثقيلة، يصير الموت و الحياة وجهين لنمط واحد من الخلق. إنها البلدة التي تنام على أطراف الحدود. في الحروب هي أول من يدهس و آخر من يتذكره المؤرخون. مسيردا الطيبة و النية، التي يأكل حقولها أباطرة السرقة و النهب، جمارك الحدود و الجندرمة و الشامبيطات و القوادون الصغار و القحبات المتنكرات، يخشون كل شيء، حتى الأطفال الصغار. يفتشون ألبستهم و قماطاتهم. تصوروا حتى الإمام الذي يصلي وراء آلاف الخلق، قبل أن يموت و تبقى البلدة بدون إمام، كان مهربا. وجدوا عنده بالبيت قطعا من كتان جانيتو و الرتيلاء و مسيبعة و كرافاش و زروف_. أتهمت لونجا البربرية بالعملة. قيل إن القبائلية هي السبب. فهي ما تزال شابة و قادرة على قتله للتخلص منه و الذهاب مع عشيق غيره. هكذا الدنيا في حي البراريك. طاق على من طاق. لو كانت ظروف النحس طبيعية، ما سقط لخضر و ما تحول إمام القرية إلى مهرب ماكر للكتان. لا يوجد حل آخر في هذه البلاد التي

أحرقتنا في صميم القلب، و لم تترك لنا خيارات كثيرة: أما الموت رميا بالرصاص في الخلاء كأي وحش بري، أو التحول إلى امرأة وديعة وطيبة، بيتوتية، تنتظر الأولاد و الزوج لتدفئهم بحنانها. هذه هي مهنة التهريب. الترابالدو و التفرعين. داخلها مفقود و الخارج منها مولود.

تصور يا القهوجي خويا، يا رومل، تصوري يا الجازية، يا أخت الحسن، لو وجدنا شغلا بسيطا في حي البراريك ما أكلتنا مخاوف الحدود. حين نفقد طعم الحياة، نعود إلى أكل بعضنا البعض. نتآكل فيما بيننا كالحيوانات المفترسة. لا شيء في هذا الحي غير البرد و الجوع و بيوت التنك و الوحل، وتصفية الحسابات القديمة بالمدي و السكاكين و الجنازات.

و قصة السد؟

« أحلم يا المسكين؟ أحلم حتى ينور الملح في البحر؟ »

حتى قصة السد بدأت تتحول إلى أسطورة تافهة. نسمعها و نشك في تصديقها. يبدو أنه خبر عادي، كأي خبر، لم يعد يقنع أحدا. الحكومة دائما هكذا، تثرثر أكثر مما تفعل. حكاية إنجاز سد بالمنطقة بدأت منذ أكثر من سنتين، و حتى الآن لم نر شيئا حقيقيا. في كل شهر يقولون، الشهر القادم، و هكذا... تماما مثل حكاية أراضي السبايبي التي أممت و بقيت هكذا، لا أحد يقربها. يعدون الفلاحين بتوزيعها عليهم، و تنصيب تعاونية إنتاجية بعين المكان، و في النهاية كل الحكاية و ما فيها أنها كلام جميل. السبايبي كلب كبير. ركب كل الأكتاف والأنجم لكن يبدو أن المسألة تجاوزته. لم يعد يطالب بإعادة الأرض له. اكتفى بتجميد القضية في إنتظار يوم يستطيع فيه أن يستردها. ثقته بنفسه صارمة. أنا خائف يا الجازية. خائف منهم. كلاب كالريح الساخنة، تأكل الأخضر و اليابس. الأرض التي نمشي عليها حولوها إلى ورقة توت جافة، كل يوم يقضمون منها قسما كالجرذان. أصبحتُ أخاف من الذين يتحكمون في أنفاسنا. كل شيء أصبح محتمل الوقوع. أسعار الخضر حارقة. أصابعنا فقدت حاسة اللمس من كثرة اللسع. موح لا كابس يقول إن السبب هو غياب نظام التسويق. الإذاعة تقول الغلاء سببه البلدان الغنية. و نحن ما زلنا بين حد الصقيع و النار، نذوب على أطراف الحدود. نُقتل من أجل حبة طماطم نهربها.

رفع صالح رأسه إلى السماء المثقلة بالغيوم، رأى نجمة هاربة. هي النجمة التي تصحبه كل فجر إلى الحدود. يقول القدامى والمحنكون بتجارب الغيب والأجرام، إن النجمة الصبحية حين تطل فجرا في غير أوانها، يكون الصباح رائقا و الخير مبسوطا والتجارة مربح. حتى حكيم الحكماء، أبو معشر الفلكي قال ما يشبه هذا الكلام: إذا رأى المرء النجمة الفجرية في سماء معكرة، أو في عيني عذراء، تكتب له أجمل الصدف في حياته و تتلاشى كل ذنوبه كالنار في الهشيم. الذنوب كالظلمة، تمحي مع إطلالة الفجر.

هاهي ذي النجمة، يا صالح تتوقف عن هروبها، و تغوص وسط تكدسات الغيم الباردة و لا ينتهي إشعاعها. تبدو جميلة وواسعة على غير عادتها. آه يا خويا العربي، مثل هذه الأنجم تستحق أن يعشقها المرء. نخاف فقط أن لا تعشقنا. نمد الروح يا صاحبي شريطة أن تظل هذه الأنجم مشرقة إلى أبد الآبدين، ويزداد نورها توهجا مع الأيام. آه يا يما الحنانة. و آه يا صالح الزوفري، بين هذه النجمة و لونجا بعد المسافات و رعونتي و جلافتي البدوية و هذا القدر المذهل من الجمال و الدهشة.

آه يا لونجا، يا بنتي الحنانة، تعري، تعري مثلما تتعرى هذه الأنجم الجميلة التي لم ترهقها الغيوم. أغفري لي حماقتي في التبن. رأيت في عينيك الجازية التي عمتني قبيلتها. رحلوا عن آخرهم و تركوا وباء التهريب وراءهم و مضاربهم فارغة. أبو زيد الهلالي هو أول من احترف التهريب. لو كانت أراضي نجد خصبة، و وزع خيرها بالعدل، ما ركبت الجازية سرج عودها ونقلت مضارب خيامها إلى حدود الموت. لا. الجازية فعلت ذلك من أجل الحاجة و أبو زيد، ابن الكلب، كان يحلم أن يصير طاغية صغيرا و لكنه لم يفلح أبدا.

« ياه يا لونجا؟ يكفي. فهمتُ أني أحمق و لكنكِ أنتِ كذلك كنتِ عطشى مثل هذه الأرض الجافة التي لم تنجب إلا اليباس. اغفري لي حماقتي. زوجك الإمام مات. و الأكثر من هذا، كان دمه ثقيلا كالرصاص. الوحدة قاسية يا بنت الناس. إسأليني أنا.»

إسألي الجازية. فقد قتلت الأنواء و الصحاري المقفرة زوجها الشريف بن هاشم، فعاشت شقاء الوحدة حتى العظم. لماذا كل هذا الحزن يا لونجا؟ صمتك يعذبني. عيناك القاسيتان تحرقان قلبي. الحادثة مر عليها أكثر من شهر. تعري يا لونجا. هذه المرة سأكون أول من يتعبد و يصلي لجسدك المرهف ككأس شاي منعنع. جربي و سترين، كيف يتحول هذا المخلوق البدوي، البدائي المتوحش، إلى قلب ينبض بحنان الأبوة المفقودة و الأمومة التي لم يذق طعمها إلا من خلال عمر بوحلاقي أيام الآحاد مين يبدا يحكي عن فلانة بنت فلان التي خلقت ذرية بعدد النجوم و احتضنتها بحنان القردة.

« الله غالب. التبن كان دافئا. المقاومة هربت من قساوة عينيك و كنتُ عبدا ضعيفا أمامك.»

كل شيء بدأ ببساطة. قلتِ لي مع إبتسامة عريضة ملأت خوائي المقفر و وحدتي.

ـ عمي صالح. البقرة راح تموت بالجوع. أنا تعبانة والبرد يقتل، ما عندك حتى حل؟

تغابيت كعادتي معك. كنت فقط أحاول أن أزيل كدرك و مسحة الحزن التي كانت تملأ عينيك المتعبتين.

. ما فهمتش مليح يا بنتي.

ـ حبيت شوية تبن من رحبتك للبقرة. الناس مشحاحين في هذه الأيام. كل اللي قلت لهم قالوا الله غالب و لم تبق لي أنت.

. هذا العام صعب و لكن رحمة ربي واسعة. الرحبة قدامك. خذي اللي تحبي.

كان اليوم باردا مثل هذا الفجر أو أكثر بقليل. حين تزحلقت نحو الرحبة متأخرا، أجلب التبن للزرق، كنت أظنك رجعتِ إلى بيتك بعد أن ملأت شكارة الخيش تبنا و لكن شيئا من ذلك لم يحدث. كانت نيتي طيبة و كنت أريد إسعادك قليلا خصوصا في هذا الزمن الذي صار فيه كل شيء باردا و جامدا.

آه يا ناري. يا ناري.

إذا طلبت التبن، عيني نعطيك.

و إذا طلبت فراشْ، بقلبي نغطيك.

يا ناري. يا ناري.

دندنت قليلا بالطريق كعادتي. كنت أظنني وحيدا و سيد المكان. فجأة رأيتك. كانت عيناك جميلتين بهذا الكحل السوداني، متسعتين أكثر من اللازم. سألتك:

. ياه؟ واش راك حشمانة؟

ـ و الله يا بابا صالح ما عرفت منين أبدأ؟ الناس صاروا مشحاحين أكثر من اللازم.

. و لا يهمك. ما دام بابا صالح ما يخصك حتى خير.

جلست على ركبتي و فتحت كيس الخيش عن آخره. انحنيتِ تساعديني. كدت أنهرك و لكن رائحة شعرك بكَّمتني. كنت تضحكين. و كنت أساعدك. من حين لآخر يقشعر بدني عندما تتلامس يدانا وهي تسحب التبن الدافئ. أشعر بالطيور الملونة تملأ أعماقي و اتحول لحظتها إلى طفل يرضع أصابعه. تكررت ملامسنا كثيرا، قبل أن يمتلئ كيس الخيش و أضيع ما تبقى من وعيي و تفيض الفجوات الفارغة بداخلي بالأشياء الساخنة. دارت في عيني عوالم زرقاء، وحمراء، و صفراء. حتى وجه المسيردية الذي لم يبرحني منذ وفاتها غاب فجأة. لمستك. بأن لي لحم الجازية الغض و سيف دياب الزغبي يشقه بقوة فتنفجر براكين الدم بغزارة من صدرها. زادت حرارة جسمي و انفجر البركان الذي كان في. و لم تتشوه الرغبة، بل زادت صفاء. مددت يدي. أدخلتها في عمق صدرك. شعرت بصلابة الحلمتين. لم تقولي شيئا. زاد توجهي. تحولت إلى نيزك ملتهب. عيناك المخيفتان بدأتا تذبلان، و تدخلهما ألفة مملوءة بالرغبة التي لا تقاوم. تلمست التبن، بدا دافئا أكثر من فراشي الذي أتوسده كل ليلة. نزعت برنوسي. أفرشته لك. تمددتِ عليه بهدوء و عيناك مرتشقتان فيَّ بثبات و قد زادت مساحة البياض فيهما بروزا. تحركتْ بداخلي بقايا الشبق المتكلس. فجأة وجدتك تموئين كقطة صغيرة تحت ثقلي. كانت الحشائش الشتوية العالية المحيطة بالرحبة تغطينا. إختلطتْ في رأس رائحة الأتربة و التبن الغامل و شعرك و الحناء البدوية و وجه المسيردية الذي كدت أنساه. الحاجة طيطما. إبنتاها الملعونتان و بعدها ضعت بين تفاصيل جسدك. كانت أظافرك مثل

مخالب قطة، تقطع لحم ظهري. حاولتِ أن تتزحزحي. ربما كان ذلك علامة رفض منك، لكن سرعان ما إرتخيت تحت وطأة الرغبة القاسية. عيونك يا بنت الناس كانت آسرة. و كنت حارة يا الله. لأول مرة أُجنُّ بجسد امرأة بهذا الشكل و أتمنى من كل قلبي أن لا أقوم أبدا.لم أشعر بتلك الرغبة حتى مع المسيردية. في لحظة ما، شعرت بك عنيفة، تتشبتين بظهري كغريق ملتصق بآخر قشة من سفينة غرقت. خلتك بحرا وأحسست بنفسي أغوص حتى التهلكة و بان لزرق عود بوبركات _، لا تحكمه لا الأرض و لا السماء و لا ما بينهما من فراغات و أسئلة و عوالم مجهولة.

حين قمت من على صدرك الممتلئ، بقي في فمي طعم السواك و عود النوار اللذان أحسست بهما على رأس لسانك. تأملت جسدك لحظة. كنتِ ما تزالين ممددة على التبن. عارية. عباءتك مطوية عدة طيات حتى الصدر. نهداك نافران و لم تكوني تأبهين بأي شيء. تذكرت عجز الإمام وفي أعماقي لعنته بشدة. مؤكد أنه أمام هذه الأشياء المثيرة فيك، كانت ترتخي خصيتاه المتكلستان و يفشل في إيقاظ عضوه الميت. أنت مخيفة يا بنتي و الذين عبدوا عينيك لم يكونوا مخطئين. عيناك مغمضتان، تسترجعين تفاصيل اللحظة التي مرت كالبرق. حين حركتِ رأسك، خفت أن تتذكري وجه الإمام و تلعني اللحظة. نظرتِ إلي بعينين هادئتين كمن يستيقظ مرغما من غفوة طويلة. فجأة و بدون سابق إنذار، لملمتِ أشياءك و جريتِ بذعر. لم تلتفتي وراءك.

نبهتك مع إبتسامة طفولية تدحرجت في أعماقي المرهقة.

. شكارة التبن يا طفلة. نسيتها؟

خطفتِها من قدامي بسرعة. و ضعتِها على ظهرك ثم تدحرجتِ إلى بيتك. تأملتك حتى غبتِ وراء الهضبة التي ترتفع بين القرية و الرحبة. ملأتُ الشكارة و أنا أسترجع كل تفاصيلك بتلذذ.

« آه يا لونجا يا بنتي. أطيب ريحتك و أحر لسانك. كم كنتِ حلوة كشهد العسل قبل أن تلمسه أصابع الإنسان. »

مر على الحادث أكثر من شهر. اشتقت الآن إلى مرحك يا هذه الطفلة. تعري فقط و سترين بأني قادر على حرق جسدي تعبدا لجسدك الذي يصعب علي أن

أنسى تفاصيله. أنتِ مثلي يا بنتي. مقطوعة من شجرة. و الأكثر من هذا شجرة يابسة لا تنجب إلا البؤس و حرارة الشمس التي أحرقتها.

. أوف. يا فتاح يا كريم. يعلن الشيطان ولد الحرامي.

انحنى صالح بن عامر الزوفري علىالمجمر. كب عليه الكاز ثم حاول أن يوقد الجمرات المتبقية فيه. كان هواء الفجر مساعدا على سرعة الإشتعال. وضع عليه قطعة خبز يابسة وغلاية قهوة. كانت حناجر الديكة الحادة قد بدأت تتحرك. البرد على قسوته لم يسكتها. يقول حكام البلدة و مؤرخ أولاد عامر، سيدي علي التوناني إن الديكة حين تسمع أصوات الملائكة لا يمكنها أن تصمت أبدا ولهذا تراها في أقسى الفصول و أشدها بردا، تغمض عينا و تفتح أخرى وتصيح. مع أن النوم في تلك اللحظات يساوي الدنيا و ما فيها.

النجم ما يزال في مكانه متوهجا. الغيوم التي تتحرك بتثاقل تعطي انطباعا مخيفا، بأن شيئا مرعبا سيحدث. تناهت إلى أنف صالح رائحة الخبز المحروق مصحوبة برائحة القهوة و بثغاء الخرفان. مد يده إلى المجمر. قلب قطعة الخبز اليابسة التي اسودت من الحرق و كثرة الحرارة.

كلْ الخبز المحروق يا صالح. فغدا في تلك الدار الباقية كما تقول أمي، الله يرحمها و يوسع عليها، إحدى سلالة أولاد عامر: المعدة كذابة. لا تقر إلا بالخبز المحروق. و كل يا السبايبي أرزاق الفقراء. يلعن ربها معدة لا تفضح صاحبها. آه يا ربي سيدي. نأكل نحن حرقة الجوع، و يتصالح أبو زيد الهلالي مع القتلة و ملوك نجد و بلاد الغرب. لم يعلمه فقره و سواد جلده إلا الانحناء تعبدا عند نعال الأمير حسين بن سرحان.

أصوات الأبقار، الأغنام، الكلاب، تزداد اقترابا. تملأ أذنيه مع صياحات الديكة التي تجددت.

هه. ربما كانت خرفان أو بقرة حنا عيشة التي تخاف عليها من الموت و لا تخاف على نفسها. لا تعرف لا شتاء و لا صيفا. يا الله. عجوز مصنوعة من أحجار الوديان الزرقاء. يحكى عنها في حي البراريك، أنها، أيام الحرب، كانت لا تخاف الأدغال و الحلوف الذي يملأ غابات البلدة. تتشمم رائحة الرومي_ كالنمس

من بعد لا يحد. شاخت مثل حطبة يابسة. ومع ذلك ما تزال تقاوم قسوة الأيام الباردة. مثلها مثل رومل القهواجي، لم يسلم في الدنيا حتى و هو جريح في صحراء الموت.

موه..موه..موه...

هذا صوت بقرتها الحمراء التي تخرمت مثلها حتى بانت كل عظامها. يتبعها الكلب مسعود. البقرة شاخت و ضعفت سحنتها و امتص دمها علق الوديان المتسخة التي تشرب منها جميع الدواب. شخيرها أصبح مخيفا مثل شخير حنا عيشة. أقسم بالله و بمتاعب أبي زيد الهلالي القواد، أنها الآن وراء بقرتها، ملتصقة بذيلها، في يدها اليسرى درعيتها_، تلتقط الروث بنهم، لتعود به بعد فترة وجيزة و تلصقه على الحائط الداخلي حتى ييبس لتشعل به النار أو تتدفأ به. من يدخل بيتها يخال الروث الملتصق بالحيطان، إسمنتا مسلحا يكسو الحيطان درءا للأمطار الموسمية.

تقول حنا عيشة و هي خير القائلين:

. البرد يا صالح يا وليدي ما يعرفش الرحمة.

. عندك الحق يا حنا عيشه.

. في الشتاء، الوقيد_ باطل_. و الجمر بالدراهم. يشتعل بسرعة ويسخن جيدا.

هذه السيدة مجربة. و حكماء البلدة يقولون، سل المجرب و لا تسل الطبيب. محقة. الدنيا قاسية و الجسد حين يجمده البرد لا يفرق بين نار الوقيد و نار الفحم الذي يباع غاليا.

فاض إبريق القهوة. نزعه. غسل وجهه. شعر بالبرودة تنفذ بين مسامات جلده. شرب القهوة مع الخبز المحروق. تلذذ قليلا به و هو ينكسر على ما تبقى من أسنانه. ثم تدحرج إلى الإسطبل. تفقد عوده. مسد على جبهته وظهره وأوراكه طويلا. الأحصنة مثل البشر، تحب الأيادي الناعمة.

. صباح الخير يا لزرق. صباح الخير.

تريد أن تشرب؟ أصبر، حتى نصل العين يا صديقي. فالوادي الذي يهددنا كل شتاء دافئ. أخشى أن يمحو هذه القرية ذات ليلة من الوجود. فالشتاء هذه السنة قاس و الدنيا صعبة يا لزرق. أتعبنا الليل والمسافات البعيدة التي لا ينتهي امتدادها.

أخاف يا لزرق. صدقني أني أخاف أن نقطع كل هذه المصاعب و في النهاية نسقط ضحايا لعبة تافهة ينفذها من وراء ظهورنا دياب الزغبي بدبوسه الثقيل. فرقابنا نضجت و أصبحت جاهزة للقطف. إني أشعر بمتاعبك و بوخز الإبر الصقيعية وبالبرودة التي حفرت عظامك. نجمتنا يا صديقي واحدة. ما تزال في مكانها. تارة يعميها الغيم و تارة أخرى تتلألأ بقوة كبياض عيني لونجا المتكحلتين.

« يا الله يا لزرق، اعط رجليك للريح.»

مسافتنا اليوم بين أيدينا. سنذهب إلى السوق يا صديقي. نستمع إلى حكايات عمر بوحلاقي عن أبي زيد الهلالي، و الجازية التي لم ينته جمالها حتى و التراب يأكل جسدها الغض،عن السيد علي وراس الغول و الزير سالم و أحجيات لونجا . كيلومتران فقط. نسوق بضائعنا إذا كانت ظروفنا جيدة و نعود. سأطلب من حماد الزعيمي أن يغير صفائح حدوتيك. أشعر أنهما بدأتا تتعبانك و تغوصان في حافريك يا صديقي. حضر حالك. فغدا ربما، و في الشتاء القاسي سنضطر تحت ضغط الجوع أن تقطع الثلوج و البرد و الوحل و نغمض أعيننا و نهاجر إلى الحدود البعيدة. أنت و أنا و البر بعيد يا صاحبي و مخيف كالذكريات. سنصل إلى جبال الأغوال والأهوال و نخرج لونجا من ضباب البحار و البخور المقرفة. وقد نترك وراءنا حياتنا الصغيرة تحت ضغط قسوة الجبال و الوديان التي لا ترحم.

هز العود رقبته الطويلة. نحنح بقوة. وضع صالح بن عامر الزوفري على ظهره الفراش ثم أردفه بالسرج. صهل رافعا قائميه الأولين متجاوبا مع الأصوات المتناغمة الأخرى التي ألف سماعها كل صباح.

شد صالح المشد، ثم وضع اللجام في فم لزرق.

لا أحد يعرف بقية يومه يا صديقي، و مع ذلك فنحن مضطرون لعيشه حتى العظم. أنت يا لزرق عليك الجري بدون توقف و أنا علي توجيهك حين تنغلق الآفاق في أعيننا. أنت و أنا، مثل سفينة وربان داخل لجة مخيفة كهذه الأيام التي نجبر على عيشها و عليهما الخروج سالمين.

« تتغير الأحوال و الدنيا بنت الكلب لا تتغير. »

فتح صالح الباب الخشبية الخشنة. خرج وفي يده لجام عوده. نفدت إلى أنفه لفحة برد جليدية معطرة بأنسام الصباح.

أوف. هذه الباب ثقيلة كعظام الموتى.

. يا فتاح يا رزاق.

هاذي النجمة الجميلة بدأت تطل بخجل. الأصوات غير المتناغمة تبددت. الفلاحون، الحفارون، الرعاة، كلهم خرجوا من جحورهم و ابتعدوا. أنا و أنت يا لزرق و البر بعيد. و سحر الجازية المخيف.

ركب صالح العود الذي رفع قائميه الأولين عاليا عاليا و هو ينحنح. صهل من جديد بكل قواه. وقبل أن يلكزه بالركابين الحديديين، تأمل الباب المشرعة، المثقلة بالمياه الشتوية. مر برأسه أن يغلقها و لكنه سرعان ما تراجع عن فكرته.

أوف يا لزرق. على بركة الله. لقد سرقوا كل شيء إلا قبة الولي الصالح. ماذا يسرقون. الشمع ؟ مقام الولي الذي يواجه بيتي مملوء حتى الآذان بالشمع. الأطفال يسرقون من بيتي وأنا آخذ من مقام الولي. أضيئه بكامله و أحتفظ بالبقية. يقول الأولون الذين حنكتهم التجارب، إن البلدة تُحفظ بحفظ مقامات الأولياء الصالحين مضاءة ليلا. و الله يا لزرق، ليس هناك ما يسرق. القرية متعبة. الناس متعبون. الحيوانات بدورها صارت متعبة. الجميع يفتح عينيه على البؤس و يغمضهما عليه. الذين سبقونا إلى الشهادة، قبورهم نبتت عليها الحشائش المتوحشة و تناستهم الذاكرة.

سر يا لزرق، سر.

المخلولة فيَّ تستنى و أنا لاهي بالغير.

لم نخسر شيئا غير النوم و صياحات الأغنام و الديكة التي لا تنام، و بقرة حنا عيشة التي تزعج مع الفجر.

البرد يا لطيف.

حوَّط رأسه ببقايا برنوسه الخشن. نفخ في يديه المعروقتين المتجمدتين، ثم فركهما بقوة.

لسنا مهربين يا لزرق. لستَ الشهباء و لستُ أبا زيد، قواد بني هلال. مجبرون يا صديقي بين أن نسرق أو نموت جوعا، أو نركب البحر من غير رجعة و نبصق

على مسيردا الجرباء و نرميها من قلوبنا إلى الأبد. أو نمارس التراباندوا علنا و ربي يحفظنا من موت مؤكد.

يا لزرق أنت تعرف أني لا أهرب إلا لأعيش، مع أني لا أنكر بأن رب هذا المرض بدأ ينبش أظافره في لحمي. و أن المسألة بدأت تتعقد. و عمر الهارب لا يطول. أفكر أحيانا بفتح حانوت، و تمضية بقية العمر عند بابه مثل رومل القهواجي العجوز، أو أشنق نفسي مثل الخياري. مسكين الخياري. إغتاظ حتى كاد يموت. فوجئ بقبور الشهداء تباع لغير الشهداء و الأنبياء. وجد ذات فجر بارد مشنوقا مثل بلوطة يابسة، في غاية متوحشة. متدليا كان. لسانه أبيض ككفن جديد يدفن به ميت لأول مرة. وجهه أزرق و بارد كقطعة حديد. يرحمه الله، كأنه يسخر من هذه الخلائق الحشرية التي يتوقف الزمن عن دورته و لا توقف هي. مسألة فتح دكان لم تكن مغرية. و حتى مهنة التهريب قذرة بشكل مقرف. فالدراهم التي أربحها من بيع الكتان، تأكلها في ثانية، طرقات سيدي بلعباس و فلاج اللفت و الحاجة طيطما.

« طيطما. الله يخرب بيتها. سروالها ما يلصقش في حزامها. »

سر يا لزرق. سر.

المخلولة...

سر يا ولدي، بيننا و بين الوصول إلى قلب لونجا مسافات الليل والدم و النجوم. سر. بيننا و بين السيف الذي شق وجه الجازية وانتزع ثدييها، ليل من الهم و واد من الدموع.

لكزه بالركابين مرة أخرى. تحرك لزرق.

و قبل أن ينطلق، فاجأته لونجا، فاتحة يديها كنبي مصلوب. كانت مثل مروض للأحصنة. مسدت على وجه لزرق بحنانها المعهود.

لم يصدق صالح بن عامر الزوفري عينيه.

. واو. واو. توقف يا لزرق. صباح الخير بابا صالح.

. صباح الخير يا لونجا بنتي.

. هل وصل أخو لونجا من بلاد الأغوال و الأهوال، وهل انتقم بابا صالح لأخت الحسن بن سرحان؟

. سيف دياب الزغبي مخيف. و الجازية ما تزال بعيدة.

يا الله. لونجا لم تتغير أبدا. هي هي. ما تزال طفلة تتعشق المفاجآت. الكحل والسواك الصحراوي و الحناء الورقية و اللباس القبائلي الفضفاض.

. بابا صالح. غضبان مني ؟ جئتك بإرادتي و ما حدث في الرحبة، كلانا مسؤول عنه.

ـ ما عاش اللي يغضبك. هل يا بنتي يغضب من يستعد الأبوة المفقودة؟ هل غضبت يوما من الجازية حتى أغضب من عينيك؟ لسعتني في القلب حرقتها حين اشتهت بغل الهلاليين أبا زيد الهلالي و تركتني وحيدا في حرب كنت الخاسر الأكبر فيها. كان تصرفها تافها. كرهتها في لحظة ما، لكني سرعان ما عذرتها. يا بنتي؟ الجازية تعرف كيف تجعل الغاضب منها سعيدا. عندما يمتلئ قلب الفقير حبا، لا يعرف كيف يكره.

. الله لا يحرمنا من خيرك و حنانك يا بابا صالح.

. هه. يا لونجا.

. شفتك رايح للسوق قلت تجيب لي معك شوية خضر. هاذو خمس بيضات. بعهم و أشتر لي ما تراه صالحا.

في البداية فكر في أن لا يأخذ منها البيض. عيب. لكنه سرعان ما تذكر أن الدراهم التي معه لم تكن كافية. شعرت بتردده.

. آه يا بابا صالح أنا عارفة أن اليد قصيرة.

. طلباتك في ممو العين. قدامك البراكة من الأطفال.

. في عيني يا بابا صالح.

فكر من جديد أن يعتذر منها عن حادثة رحبة التبن. لكنه في أعماقه، خاف أن يثير شيئا استقر و سكن و لم يعد يثر شيئا ثم أن لونجا لم تكن غاضبة أبدا و إلا ما جاءته في هذا البرد. عيناها كانتا صافيتين كغيمة عالية. فعدل مرة أخرى عن فكرته.

آه يا لزرق، أنا ربيتك.

بسرج الفضة وديتك،

و الورغان حرير.

ها قلبها قد بدأ يتفتح كزهرة برية جميلة. بيننا و بينه خوف و ذعر و قبائل شرسة. ارفع قوائمك يا صاحبي و إنطلق كالبراق. العود بوبركات الذي يحكى عنه أنه كان يلتهم المسافات. يوصل صاحبه في رمشة عين على حافة الجنة أو النار. لونجا امرأة نادرة يا لزرق، فتحت في قلبي أكثر من جرح مثلما فعلت بي المسيردية. الألفة صعبة يا صاحبي. لست أدري أين كانت مختبئة قبل هذا الزمن؟ ها هي ذي قد عادت إلى ركضها القديم وإلى طقوسها البربرية. الكحل و السواك و التعطر بدقيق الورد و ماء الزهر و الحناء و ألبسة جبال جرجرة الفضفاضة ذات الألوان النارية. يالزرق خويا لو تعرف كيف ينحرف الموت عن معناه أمام امرأة مثلها؟

« أنت هو أنتَ يا صالح، هي عادت إلى ركضها القديم، وأنت عدت إلى حماقاتك و بداوتك و حساباتك الصغيرة. لونجا ما تزال طفلة يا ولد البلاد، وأنت نبت الهم و الشيب على صدرك ورأسك. لا تخطئ مرة أخرى و إلا ستخسرها نهائيا. »

الله؟ القلب ما يزال حيا ينبض لكل الأشياء الجميلة التي لا تموت. فلماذا هذا البؤس الذي لا يذكر إلا ببرودة القبر؟ صالح بن عامر الزوفري ما يزال قادرا على معانقة القلوب التي تنبض بالحياة و ترتعش لنسمة الفجر.

قبل أن تترك لجام العود ينزل من يديها، مسدت على رأس العود و كأنها تمسد على جسد رجل، ثم رفعت رأسها نحو صالح و قد زاد بياض عينيها اتساعا و سواد الممو عمقا.

. بابا صالح. أنا رايحة. تهلالي في روحك.

. الله يشد لي فيك. و يحفظك من كل مكروه.

شعرت بدغدغة في قلبها و بشاعرية غير عادية في بابا صالح، هذه الجثة الضخمة الخارجة من جبل أسطوري. أحنتت رأسها قليلا. تأملت الأرض، ثم انزلقت منها ابتسامة عريضة صاحبتها نحنحة العود و انسحابها من طريقه.

نظرت مرة أخرى إلى قسمات وجهه. هو هو لم يتغير إلا قليلا. خطوطه تفيض بداوة ورجولة و شهامة. و عندما التقت نظراتها بعينيه، شعرت بالطفل الذي كان ما يزال ينام في عمقه.

تمتمتْ و هي تحاول عبثا أن تخبئ ابتسامتها:

. البرد قاسي يا بابا صالح. و البقرة جائعة. التبن؟

ثم قهقهت بكل قواها حتى إهتز صدرها الناضج. و قبل أن تسمع الإجابة، انطلقت كالسهم نحو القعدة_ حيث رحبة التبن، و لم تلتفت وراءها. كانت الريح قد بدأت تلعب شعرها بعنف.

. ياه. كم هي غريبة و حيوية هذه البت؟

تمتم. فكر قليلا. أصبعه ينام على شفته السفلى. مرت برأسه اللحظات الجميلة واحدة واحدة. تذكر ليلة أمس حين فاجأته الجازية و الوحدة و وجه المسيردية و طفولته القاسية و قوائم الدجاج و بنسنس و اليزناسني، فشرب حتى شعر بأنه يحتضر بين ذراعي الجازية.

الغيوم بدأت تتمطط عبر صفحة السماء بكاملها. شعر بالبرودة تدخل عظامه. لكز العود بقوة.

« يا الله يا لزرق يا العود بوبركات. علينا أن نكون بالسوق، قبل غيرنا حتى لا تبور بضاعتنا. »

أنا و أنت و مكتوبي، عايش جوال.

تذكر الأغنية التي ملأت طفولته و حنينه.

سر يا ودي سر و لنضرب الحديد ما دام ساخنا، قبل أن تدخل كلاب القايد_ السوق و نمنع من كل شيء. في القلب شيء آخر. ضفائر لونجا رائعة تكتف بهم الخيالة و تسجن بهم اللي يحسب روحه رجلْ. و النوم عليهم يبرد نار الخاطر. الرحيل بدون وجه لونجا إلى بلاد الكوع، قاس. و إنتزاع إبنة ماجد بن الهدهاد خطيبة البريقع من مخالب دياب الزغبي، عملية قدامها النار و الموت حرقا، ووراءها البحر المتوسط و السقوط في اللجة غرقا. لا حل سوى الغوص في المخاطر مغمض العينين.

سِرْ يا ولدي. سِرْ.

سِرْ. الدنيا ما تْخونْ.

أنا و أنتَ و البر بعِيد، بعِيدْ.

أمش و لا تلتفت وراءك يا لزرق و خلِّ اللي يصير، يصير و اللي كان يكون، اللي كان يكون، اللي كان يكون يا صاحبي.

-2-

في هذا الصباح هبت الرياح بعنف على غير عادتها.

ارتعشدت الشجيرات الصغيرة التي تحيط بساحة السوق الشعبية و تتخبأ وراء حيطان الثكنة القديمة. تناهى إلى مسمعه و هو يقطع رحبة الحمير و البغال صوت الزنك و هو يصطك على الأسطح التي ينط عليها الأطفال يوميا كالأرانب الصغيرة. تصاعدت في الفضاءات العليا أوراق الصحف القديمة و كراريس الأطفال المدرسية المهملة، و الأعشاب اليابسة، و بقايا علب السجائر العتيقة، و نفايات الأطفال التي يبست تحت ظلال البيوتات الواطئة التي تصلها الشمس متأخرة أو لا تصلها.

تذكر دفء البيت و مجمر الفخار المصنوع من تربة الأرض التي يطأها يوميا، و الببور العتيق الذي يملأ صوت ناره و هي تخرج حادة من الرأس، الحجرة الضيقة حرارة.

بدأت الأمطار تتساقط. هي بالضبط اللحظة الفاصلة بين ما يتعشقه المرء و ما يخافه في الآن نفسه. هكذا نحن دائما وسط هذا الركام من الوقائع. بين هذه اللحظة و تلك و بين هذا الموقف و ذاك.

ارتفع الدخان عاليا بشكل متعرج مصحوبا برائحة كريهة، و شخير لزق الذي يسمع من بعيد، و صراخ الباعة الثابتين والجوالين، الذي إختلط بصهيل الأحصنة التي كانت من شدة البرد تحاول أن تدخل في جلدها، تلتصق ببعضها البعض أو تحتك بكامل أجسامها المديدة، بالحائط الدافئ. من حين لآخر تنحنح و تهز رؤوسها بقوة لتنفض المياه الملتصقة بشعرها. كأنها خلائق بشرية تبحث عن لحظة حب سحقتها أيام الشقاء والبؤس.

صاح حماد الزعيمي بقوة في وجه ابنه الذي تحولت قسمات وجهه الأبيض إلى كتلة سوداء لم يظهر منها إلا بياض العينين الواسعتين. من يراه لمرة الأولى، يتصور أنه غادر للتو منجما قديما، مرهق الوجه و العينين.

ـ البكاي؟ أقبض العود مليح يا حلوف، وين راح مخك؟ هكذا. تفو جيل كيكوز_ يا خويا صالح، ما يصك ما يحك، ما يخسر ما يفوز. يقبض الوسط و خلاص.

. تحاول على الولد. شوية شوية يا خويا حماد، حتى واحد ما زاد معلم من كرش أمه.

أخذ حماد إحدى قوائم العود الأمامية بين يديه، و شرع في نزع الصفائح القديمة التي تخرمت من كثرة السير. مسح أنفه بكم معطفه الذي تهدلت خيوطه بشكل فوضوي، و تحول لونه الأبيض إلى لون فحمي غامض.

هواء الفجر بارد. صقيع الأصباح الشتوية لعنه تنضاف إلى هذا اليوم الذي بدأ مثقلا بالأمطار.

ـ هاه آ السي حماد فتح أولا بصباح الخير، دائما الصراخ والفنطازية. يا أخي ضجيجك يسمع من الربع الخالي.

سعل حماد بدون أن يرفع رأسه من حدوتي الحصان. إنه يعرف صالح بن عامر الزوفري جيدا. فقد ألفه أيام الآحاد و ألف ملاحظاته. مسح أنفه من جديد بأحد كمي قميصه المتسخ.

. صباحك خير يا صالح. و الله يا خويا أولاد اليوم خائبين.

ـ يا حماد لا تخشِّن رأسك. الطفل ما يزال صغيرا. ولد المدرسة. أمامه مستقبل آخر غير هذا الجحيم الذي أنت فيه.

ـ أنت ترى. لا أطلب منه الشيء الكثير. فأنا لا أستفيد منه إلا أيام عطله. عليه أن يتعلم كل شيء، لا أحد يضمن الأيام القادمة.

. انوِ الخير. رحمة ربي واسعة.

ـ أعرف هذا يا صالح لكن يبدو أن الله قد نسينا. أفضل أن يتعلم على الأقل صنعة والده، أحسن مما يتحول إلى مهرب ينتهي طعما لرصاصة عمياء.

دفع حماد بالدابة بعيدا و هو يحاول أن يلحظ مشيتها بعد أن صلح حدويتيها الأماميتين. اقترب من صالح بن عامر الزوفري. ضرب على ظهره بقوة بيده المتخشبة المحروقة.

. أجلس يا ولد أما أجلس، نشرب قهوة. الصباح ما يزال في أوله. الجازية لم تدخل السوق بعد. كه...كه...

. السوق بلا جازية ما تسواش. يا خويا حماد الزعيمي، أنت قاس على الطفل.

. آه يا صالح لو تعلم. هؤلاء الأطفال لا نرتاح من همهم حتى نموت. عندما أرى أقرانه، ترتعد فرائسي. السحنة ضعيفة. القلب مذعور، العيون حمراء من قلة النوم. يركبون حميرا لم تبق فيها إلا العظام. الميزيرية و التراباندو يا خويا صالح. أخاف عليه. صدقني أني في خلوتي أبكي حتى الموت. أبكي بيأس و ذعر.

نظر الطفل إلى عيني صالح الهادئتين.

. كلامك صحيح يا حماد، لكن يا صاحبي الطفل ما يزال صغرا. تحاول شوية.

. قلبك طيب يا صالح خويا. تصور...

تنهد حماد الزعيمي بعمق. لمعت النار و الجمار المتقدة منكسرة في عمق عينيه. رشف كأس القهوة.

. في المرة الماضية كدت أجن. عثرت أمه في جيبه على الدخان. قلنا الطفل كبر ما عليهش و بدأ يفهم في متاعب الحياة. وقبل أيام فوجئنا بالزعفران و سوارين مهربين، أنا نفسي لم أستطع الحصول عليهما في مهر أمه. صرختُ. قلبتُ الدنيا. انهار العالم يا خويا صالح في عيني. هؤلاء الأطفال سيتشوهون إذا لم نسارع إلى نجدتهم قبل فوات الأوان. حتما سيتشوهون يا خويا صالح.

. وسع خاطرك يا حماد.

. كه...كه... تصور؟ حين قلت له لماذا تفعل كل هذا؟ ماذا تحتاج يا سيدي؟ قل لنا و نحن رهن إشارتك. أشقى و لا تشقى. و الله شاهد. أجوع و لا يجوعون. أنا متعود على الهم. تصور ماذا قال؟ قال أنه مل من روتين حياتنا و مل هذه المهنة الرخيصة و أن ما يربحه هو في اليوم الواحد، أربحه أنا في الشهر. ها هي مهنتي يا خويا صالح، التي أنقذتني من الجوع منذ أكثر من عشرين سنة تتحول إلى مهنة رخيصة. أنا مذعور حتى الموت.

كان البكاي منكسا رأسه، يبدو منهمكا في تسخين الصفائح، مشدوها لكلام والده و لآلامه الغائرة و حتى لطريقته و انفعالاته في سرد القصة. فقد كانت عيناه ملتهبتان

بدخان الزقّ. احمرتا كالجمر، تتراقص فيهما دموع استقرت حارة على الأطراف. في لحظة ما، لم يدر من أين جاءت و أين إستقرت، غاضه وجه أبيه الذي أسود من كثرة الدخان المنبعث من بقايا الجمار المتقدة التي يسخن عليها عادة قطع الحديد، و صفائح الأحصنة.

و قبل أن ينتهي حماد الزعيمي من رشف القهوة الأخيرة، إنتبه لأبنه وهو ساه قرب الزق. يحاول أن يفتح عينيه بإجهاد.

. البكاي. أنفخ الرابوز_ مليح، مالك حال فمك؟

نفض الطفل رأسه ثم أحناه بهدوء. و عاد إلى حركة الزق الروتينية، في الصعود و النزول.

التهبت الجمار التي كادت تخبو تحت الرماد ارتفع مع لهيبها دخان أصفر وأحمر و أسود و أزرق. على الرغم من رائحته الكريهة، كان يعطي دفئا خاصا للمحل.

. واش آصالح. كانش ضربة صحيحة و إلا كالعادة؟

. و الله يا حماد خويا لا نريد شيئا آخر إلا الخبزة بنت الكلب. الخبزة فقط. حاجة خفيفة. شوية كتان و صافي.

. كه.. كه.. جوع يبيع الجوع للجوع.

. يا سيدي هاذي هي الدنيا.

. يا الله يا خويا يا صالح خلِّ لي عباية موسلين خضراء إذا كان معك. إذا عدت بدونها للبيت، سأطرد حتما.

ثم قام و هو يفرك يديه و توجه نحو السندان العتيق، وضع المطرقة في يده الخشنة:

. البكاي، اقبض الصفيحة مليح و ما ترخفش روحك.

ثم التفت نحو صالح:

. تطلب شي خويا صالح؟

. لا و الله. سلامتك. غير لي صفائح لزرق فقط. تركته مربوطا وراء الحائط.

. خلاص يا سيدي لزرق في عينيَّ.

حين أطل صالح بن عامر الزورفري برأسه من باب محل حماد، لاحظ أنه كان في الجنة التي حكى عنها حسن أخو الجازية. الجنة المليئة بالدفء.

مسكين يا صالح؟ بسرعة يأخذك الهوى. هي جنة الفقراء يا صديقي. و لحسن بن سرحان جواري نجد و بلاد الغرب و أراضي بغداد وحلب و مصر، جنته و لك الخوف و العزلة و الأشواق المنكسرة. وحق محمد، لو لم يسقط بالمجان في إحدى الخيام المهملة في بلاد الغرب، لكان اليوم قد تحول هو و أبو زيد الهلالي إلى تجار نفط و رقيق.

مر على رحبة الأغنام. كان البرد ينفذ إلى العظام كإبر يوم الحشر. رأى السبايبي يتحرك بعوده و يساوم الأغنام و يقهقه. عند رجليه ياسين، يتبعه ككلب مدجن.

إهتز على ظهر صالح كيس الخيش المملوءة بالكتان. الأمطار كانت ما تزال تتساقط بغزارة. البرد يلفح الأوجه بقوة. الجليد يغطي المناطق المحيطة بالسوق. حاول أن يجد مكانا يقف فيه و يخرج بضاعته. لكن عبثا. واصل إنحداره. كان الناس كالنمل يصيحون. يبيعون و يشترون. هكذا هم دائما. يبيعون ويشترون. الأطفال يصرخون. في أياديهم تنام الأشياء المهربة. سراويل دجين و أقمشة ونستون و سجائر أمريكية و إسبانية، وعلب الكبريت و الزعفران و كل ما تصنعه الشركات اليابانية و الأمريكية ومختلف المشروبات الأجنبية. نهيق الحمير المبحوحة يأتي من مسافات قريبة. صوت الأغنام و ثغاء الخرفان يأتي خافتا من الرحبة. غاضته هذه الوجوه الصبيانية التي كانت تغرق تحت الأمطار. يتطاير الوحل تحت أقدامهم عاليا فتتسخ ألبسة و وجوه المارة الغادين و الرائحين. العيون حمراء من قلة النوم، و الأجساد هزيلة. إبتساماتهم الصفراء يلفها الذعر من وحش مخيف، موجود و لا أحد يراه. يمكن أن ينهض من تحت أقدامهم في أية لحظة.

ـ يا الله؟ الدنيا كريهة بهذا الشكل؟ تفو. حماد لم يكن مخطئا. خوفه كان في محله. عين حماد صادقة. الدنيا علمته كيف يضع الهم تحت ذراعيه و يركض حافي القدمين لمواجهة قسوتها.

بصق على الأرض ثم ركل الوحل بقوة، برأس حذائه المطاطي الذي كان يسميه دائما البومنتل _. تدحرجت رجله اليمنى. كاد يقع على فمه. انحنى بظهره ينفض

الوحل الذي التصق ببنطاله الفضفاض. و حين رفع عينيه، وجد عند ركبتيه طفلة بحجم النملة تحاول أن تساعده على إزالة الوحل من ألبسته. تلف رأسها بخرقة حمراء، أنفها ملتهب من البرد. تلحس بلسانها كالبقرة، و بتلذذ كبير مخاطها السائل على شفتها العليا.

. عمي صالح. تحتاج الزعفران؟

نظر إليها بعينين موجوعتين:

. يا بنتي البرد عليك لماذا لا تعودين إلى بيتكم و ترتاحين؟

. يما مريضة يا عمي صالح. وحق راس عوك. ما عنديش باش نشري لها الدواء.

« وصلنا إلى الزمن الموبوء الذي حكى عنه الأولون. الزمن الملعون. الطفلة بدأت تتشوه من الداخل. أنا متأكد أنها تكذب. هكذا تعلمنا. و هكذا يتعلمون. ومع ذلك لا شيء يهم. »

وضع دينارا في كفها المرتعش من شدة البرد. أسنانها كانت تصطك. أخرجت من الكيس البلاستيكي علبة من الزعفران و وضعتها في جيبه ثم انطلقت في السوق و هي تصيح ملء حنجرتها بدون توقف:

. الزعفران. يا اللي تحب الزعفران. الزعفران...

واصل صالح تدحرجه في عمق السوق.

هذه الأمطار الملونة بألوان السوق جميلة لكنها يا حماد خويا تتعب المرء من الداخل و تحرقه. الأطفال؟ في هذا السن يمسخون إلى لا شيء؟ ما ينتظر هذه الأرض في الأفق، ربي وحده يعلم ضخامته و طاقته التدميرية. الأطفال هم بارومتر البلاد.

من الصعب أن يجد الواحد مكانا يبيع فيه هذه البضائع التعيسة. كل الأمكنة احتلها أصحاب السيارات و المنتفخون أو الذين وصلوا قبلنا.

وقف صالح عند سيارة الخالدي التجارية. حانوته بالبلدة، و مع ذلك فهو لا يضيع فرصة الأسواق الشعبية لبيع ما كسد من بضاعته مثل عمر الدانجور الذي ما يزال حتى الآن يبيع أغراضا من الحرب العالمية الثانية أو على الأقل، هكذا يَحكي عنه

الذين عرفوه عن قرب. يسمون الخالدي عندنا "الفرماسيان" _. يبيع القهوة والسكر و كأنه يبيع أدوية.

اقترب صالح منه. كانت الأمطار قد زادت حدتها.

. الخالدي،يا وليدي،سأقف هنا، قرب سيارتك لبيع هذه السلعة الفالسة التي لم تعد تغري أحدا.

لا أحد يستطيع أن يرفض طلبا لصالح بن عامر الزوفري. خيره سابق دائما. لقد قدم خدمات لكل الناس. واحد ساعده في دفع مكروه. آخر قرضه دراهم في انتظار أن يفرجها الله. البعض توسط لهم لدى الإدارة المحلية، و هكذا...

رد الخالدي و هو منهمك في ترتيب بضاعته:

. خذ راحتك عمي صالح.خيرك سابق. ولد البراريك ما يرفض لولد البراريك. اقترب من هنا عن الأمطار.

. واش النهار؟ البيعة مليحة؟

. و الله يا بابا صالح، أبيع كل شيء، و أشتري كل ما يستحق الشراء و في أسوأ الأحوال أبدل سلعة بسلعة.

. خذ هذه البيضات. و إذا عندك السميد أو السكر والقهوة أتهلا. لونجا مسكينة و بلا رجل.

. ما يكون إلا خاطرك. لونجا أختنا جميعا. الظروف قاسية، لكن طلبك عزيز يا بابا صالح.

. ربي يخلصك يا الخالدي؟

. ما عليهش. سأتدبر الأمر.

الخالدي هكذا دائما. طيب. لكن عندما يتعلق الأمر بالربح و الخسارة لا يعرف حتى أباه الذي روث عنه السيارة و الحانوت والبيت الواسع. شاحنات الغاز و السميدا و القهوة والزيت و السكر والصابون، يوميا عند حانوته واقفة، لكن حين يبحث المرء عن كيلو واحد من هذه المواد، لا يجد غير الفراغ. كل شيء يأخذه أصحاب التراباندو مع الفجر الأول نحو الحدود. يبدو أن هذه البلاد تحتاج إلى يد من حديد قادرة على الضغط و التنظيم و لا يهم بعدها إذا رحنا في الطريق ظلما.

بدون ذلك ستأكلنا الفوضى و سنصل إلى زمن سنقتل فيه في الطريق لأننا نحمل الزيت و الخبز و السكر.

بدا له السوق نشيط، بالرغم من الوحل و الأمطار. ثم بدأ يصرخ مثلما يفعل الجميع:

. الكتان. كتان أسبانيا يا المسكين. جانيتو. الرتيلاء. موسلين. المسيرة... الكتان يا المسكين. الرخاء يخلع.

فجأة وقف عند رأسه السبايبي ولد القايد البختاوي بكبرياء و هو يحاول أن يتظاهر بالقوة و الفروسية على عوده.

. صباح الخير السي صالح. السوق مليح؟

ضخم صوته حتى بدا الإفتعال واضحا:

. مالك ساكت يا السي صالح؟

. في هذه الساعة، نحمد الله. كل هذه الأغنام. خير الله؟ الله يبارك يا السبايبي.

ـ الدنيا هكذا، مع الواقف دائما. شد و مد. الحكومة من هناك و احنا من هنا، نشوف شكون تكون عنده الكلمة الأخيرة.

. سوق الأغنام غالية هذه الأيام؟

. يا بابا صالح. تذكر أن لا شيء يصعب على السبايبي.

. على بالي. أعرف ذلك جيدا.

. أنت إنسان فحل، قد احتاجك يا صالح.

. أنا موجود، في براكتي دائما.

. بغيتك تحضر عرس ولد خويا الميسوم.

. يا سيدي كل شي على المكتوب.

ـ لزرق يا صالح. لا تنسى لزرق، الفائدة فيه. على كل سأزورك في البراكة و نتكلم على راحتنا.

و غدا أو بعد غد، سيطمح في تركيع القرية بكاملها مثلما كان يفعل أبوه. يتصور العالم كله تحت خاتمه الذي يكفي أن يدوره حتى يتجارى الناس حفاة عراة يطلبون مغفرته و محبته. آه يا أبا علي؟ لستُ أبا زيد الهلالي، تحركه في أصابعك كخاتم

سليمان، تحوله إلى زبون طيب في بقالة الحسن بن سرحان. لا يا السبايبي، لستُ من بلاد أهل الغرب، حتى أقدم لك الطاعة و الخضوع. ولست من آل زغبي يا حسن حتى أضع المحارم مع أهلي على أعناقنا و ننزل لنظهر لك مبايعتنا. فبيننا دم الفقراء و الجازية التي قتلت غدرا.

حول بيته إلى سوق حرة. كل شيء فيه قابل للبيع والشراء. يداه طويلتان. امتدتا إلى البلدية، ثم الدائرة، فالولاية. لم يعد إرجاع أرضه يهمه كثيرا لأنه يعرف مسبقا أن المسألة أعقد مما يتصور. يكفيه أن تؤمم و تظل معلقة. يقولون إن معارفه في العاصمة بعدد النجوم. كان من اللذين ساهموا في الحملة الانتخابية للرجل الذي وجد ذات صباح منتفخا على سطح الوادي، مطعونا عشر طعنات قاتلة. قد يكون هو من سخر أياد مجهولة لطعن بودلخة. موح الكتاتبي يعرف كل هذه الأمور و ينام عليها كالصخرة. صم بكم لا يفقهون. لو فقط ينطق. لو يفعلها؟ سيقلبها على رؤوسهم. يقول الكتاتبي، إن السبايبي في ذلك اليوم تناوش كثيرا مع رئيس البلدية بودلخة في محاولة لدفعه إلى التراجع عن تأميم الأراضي و إلى إغماض عينيه عن تقييده ضمن قائمة الذين تمسهم المرحلة الثالثة من الثورة الزراعية.

« حين يركب جواده، يخال العالم بأسره تحت أقدامه. وتظهر له الخلائق التي تبحث عن قوتها اليومي، تتجارى نحوه من أجل تقبيل حدوتي حصانه الأشخم الثقيل. »

و قبل أن يلكز السبايبي ولد القايد البختاوي عوده ويمشي، سمع صالح صراخا غير عادي في قلب السوق، و حركة متسارعة. ظن في البداية أنها جزء من الحروب المألوفة التي تدور عادة بين أهل البلدة بالعصى حول المسائل اليومية التافهة كمكان عرض البضاعة أو البيع بشكل رخيص جدا يبور سلعة الجار أو فضح الأسرار التي تهرب الزبائن... مثل تلك الحروب التي كان يفتعلها الهلاليون حين يتربعون للانتجاع في أراض غريبة عنهم.

أطل صالح برأسه من وراء سيارة الخالدي. واجهته الطفلة المتسخة التي باعته الزعفران. أنفها محمر كحبة طماطم.

. عمي صالح. عمي صالح. الديوانه_، خبي سلعتك.

ثم انطلقت تركض في الوحل و هي تصيح بأعلى صوتها:

. الديوانه. الديوانه. النمس جاي. النمس جاي.

التفت صالح إلى وجه الخالدي. ثم دفن الشكارة تحت أكياس السكر و السميد و القهوة.

. قدامك يا الخالدي. النمس لا يرحم. شاريها لي.

. في قلبي يا عمي صالح.

ثم تحرك بشكل عادي، محاولا أن يسير متكوما تحت برنوسه الترابي، مفتعلا هدوءا حذرا.

أولاد الكلب. يبيعون و يشترون في تعبنا. يعرفونني جيدا. في قلوبهم قيح. لو رأوني، لأحتجزوا كل متاعبي. لكن هيهات، اللي قاريه الذيب حفظه السلوقي.

انتبه إليهم و هم يجوبون السوق. تذكر أنهم في المرة الماضية أخذوا منه كل شيء. فاجأوه و هو يصيح:

« الكتان. بأرخص الأثمان. أجر يا المسكين. »

. الذيب تفوت عليه مرة واحدة و إلا فهو بكل بساطة، حمار.

رآه الديواني، يسميه أهل البلدة و المهربون المتعبون، النمس. يتشمم طريدته بطريقة خاصة حتى صار يجد لذة كبيرة في إيذاء الناس بأخذهم على حين غرة.

« آخ. يا لطيف. بدأ ينظر إلي بعينيه المخيفتين. »

اقترب النمس منه. كانت عيناه نصف مغمضتين.

تحسس صالح بن عامر الزوفري دبوسه الذي ينام على جانبه الأيمن. نحنح قليلا ليسرح قليلا حلقه الذي علته فجأة غصة.

تحسس الزرواطة. فيهم و لا في. تبكي أمه و لا تبكي أمي. الظلم يعمي. أرفض القتل، لكني إذا اضطررت لفعل ذلك، لن أتردد لحظة واحدة عن الدفاع عن نفسي. ستأكلك هذه الزرواطة. رأس أبو زيد الهلالي قبل رأسي. ألف مسمار ستغوص في هذا الدماغ الذي لا يعرف النوم. حين يتعلق الأمر بالرجولة، سأقابلك وجها لوجه، و لن آتيك من الظهر مثل ذياب الزغبي.

. هه. صالح الزوفري. الفنطازية و التربالدو. أنت هنا.

. جئت للسوق مثل جميع الخلائق.

. تبدو سمينا على غير عادتك.

ـ هذه المرة أخطأت يا النمس. من أين لي بالكتان في هذا البرد. نيتي كبيرة للتوقف عن ممارسة هذه المهنة القذرة. حرفة الكلاب.

. كلامك زين كالعادة. دعنا نلمسك. هكذا.

و أخذ يفتشه. انزلقت يدا النمس بين فخذي صالح بن عامر الزوفري. امتعض النمس و اصفر وجهه البارد و برقت عيناه بنوع من الخبث والحقد، بينما كان صالح يحاول أن يقاوم الدغدغة التي أحدثتها يدا النمس.

ـ ماذا تنتظر أن تجد بين فخذي رجل؟ واش من مهبول يخبئ سلعته هناك؟ هذا ملك المسيردية و لالة الجازية ربي يرحمهما.

. لا. أنت غالط. تلعب معي كاش كاش. و هذه العلبة ؟

و انتزع علبة الزعفران التي وضعتها البنت الصغيرة في جيب صالح. كانت المياه قد أفسدتها و لم تعد صالحة. و في محاولة لإنقاد الموقف، صاح النمس:

. هذه العلبة ليست من صنعنا. مستوردة بشكل غير شرعي.

. اشتريتها من السوق.

. من عند من ؟

. هذا مش شغلي يا صاحبي. على كل حال تستطيع أن تحجزها إذا أردتَ.

كان الأطفال يتأملون المشهد بغرابة. عيونهم الحمراء مفتوحة عن آخرها. أنوفهم ملتهبة. ألبستهم متسخة و مطوية عدة طيات عند الصدور و الأكمام. يبدو أنها أخرجت للتو من الوسائد. خفت حركتهم داخل السوق. انتبه صالح إليهم. يا لطيف. تذكر ذرية بني هلال الذين حولتهم الظروف القاسية إلى ذرية ضائعة، هائمة على وجهها أو فاسدة تحت رحمة الأمراء الذين غزوا بلاد الغرب. قاتلوا الدجالين بشراسة وحاربوا كل من أراد أن يتشبه بشيبان أو البرقيع أو نصر الدين أخا الأمير دياب بالرضاعة. أدركوا وسط المدن الشرسة التي أغلقت أبوابها في وجوههم أنهم كانواضحايا نطف الأمراء الطائشة.

« حذر يا البكاي، يا ولد حماد الزعيمي. فهذه الصنعة فاسدة، لم تعلمنا إلا الذل و طحن كبريائنا أمام كلاب أولاد لا ليجو.احذر يا وليدي و لا تركب رأسك من أجل باكيت مارلبورو و إلا علبة زعفران. المخاطر تبدأ دائما بمزحة. »

زاغت عينا النمس بحقد كبير.

. أنا لا آخذ الزعفران. سنلتقي. خذ زبلك.

. حاشاك.

تمتم صالح و هو يتأمل العلبة التي كانت تقطر ماء.

. الله يلعنها صنعة.

وضعها تحت رجله ثم ضغط عليها بكل قوة مفرغا فيها كل رد فعله حتى يتفادى حماقة لن يغفرها لنفسه. رأى لونا أصفر يتسرب كالقيح من تحت رجله مختلطا بمياه الأمطار. عرف أن قلبه كان مليئا. رأى الموت يرتسم في عيني النمس. تذكر تلك الليلة التي كلما استعادها أرهقته.

« الكلب ابن الكلب؟ لولاه، لكان ابني الآن معي، يملأ معي أرجاء هذا السوق. لا يدرون درجة الآلام و الأذى التي يتسببون فيها بسبب عماهم المزمن. كان الليل و كنت مع العربي حين قادنا النمس إلى مقر الشرطة و هددني بإخراج كل الأرشيفات القديمة. حين فتحت عيني المغمضتين المحروقتين، كانت بقايا عظام ابني في أفواه القطط. أستغفر الله.»

نظر إلى العلبة التي كان قيحها ما يزال يتسرب من تحت قدميه. ثم طوح بها برأس حذائه عاليا لتلتصق بالشجرة الوحيدة الضائعة في عمق السوق. بينما كان النمس ما يزال متسمرا يتأمل المشهد. لم يقل صالح شيئا و لكنه شعر بانكسار عميق فيه.

. يلعن دينها دنيا. الذل و الفنطازية.

كانت يداه قد بدأتا ترتعدان، و تبحثان عن الدبوس الذي لا يغادر جانبه الأيمن أبدا.

حاول أن يختصر الحديث، لكن النمس سبقه إلى ذلك.

. الأيام بيننا يا صالح التراباندو.

. أتمنى أن يكون ذلك في أقرب وقت.

وضع النمس أوراقه في محفظته بعد أن سجل ملاحظاته الخاصة ثم واصل مشيته المتثاقلة في السوق.

« تفو؟ »

قالها صالح بمحقد ضامر ثم هز رأسه بمحزن شديد.

. آه يا ليام؟ يا بنتي مالك عوجاء؟

تدحرج نحو القوال_ الذي كان صوته يرتفع عاليا، عاليا في محاولة يائسة للالتحام مع أمطار السماء. كان الناس يحيطون به كالنمل و هو يقص أخبار العرب القديمة. و صاحبه ينقر على القلوز أو البندير، و صوت القصاب ينطلق حزينا من الأعماق.

. هذا القوال المهبول أرحم من كلب القياد.

لم يكن صالح يحب هذا القوال تحديدا. سيره القديمة صارت مكرورة و مملة و لا يوجد بها أي غنى. حتى قصة الجازية يحفظها بشكل مشوه و مقلوب و يخلط بينها و بين حكايات أخرى. ثم أن فمه المتسع الذي يفيض لعابا و لا ينغلق أبدا، لا يورث أي حب له و لما يرويه.

يتوقف الدق على القلوز. يصيح القوال:

ـ قبل البداية. عشرة دورو للوالدين، يا المسكين. وينك يا اللي تحب الوالدين و الشهداء و الأنبياء و الصالحين؟ وينك؟

في صمت و ذهول غريبين تمتد الأيادي إلى فراغات الجيوب. بعضها يمتد بثقة إلى يد القوال الطويلة. و بعضها يعود ليلتوي بانتظام عند الصدر منتظرا بداية الحكاية. همس أحد الحاضرين في أذن صاحبه الذي لم يكن سمعه جيدا. كان منهمكا في تنقية أظافره من الأوساخ العالقة.

. شكون تقول يغلب؟ السيد علي و إلا راس الغول؟

. لا ذا و لا ذلك . احنا الخاسرين مع هذا الكذاب.

. أنت راسك غليظة. حتى شي ما يعجبك.

ارتفع صوت القلوز و القصبة من جديد، مصحوبين بصوت القوال و بأنين يأكل من الداخل، كان يأتي من بعيد، في محاولة يائسة للالتحام بالأنجم المتوهجة دوما.

شوفو شله من العداء، واقفه في البيبان.

و القلوب القاسحة، ما خلات حد يبان.

. يا السامعين. يا الحاضرين و الغائبين. إنس وجان و كل المؤمنين... كان. يا ما كان... راس الغول... السيد علي دارت في ربهم حالة. ردهم كالزبيب...

. السيد علي و راس الغول. عرفناها... شوف حاجة أخرى.

. هذا واش كاين، نروح نخلقهم لك؟

و قبل أن يجبر الرجل نفسه على سماع حكاية السيد علي و راس الغول على مضض، على كل أفضل من الذهاب إلى القهوة التي صار صاحبها هو كذلك يجبر زبائنه الجالسين بضرورة الشرب و الاستهلاك، امتلأ السوق فجأة بالصيحات و الصرخات من كل الجوانب. دوشة غير عادية وركض في كل الاتجاهات و فرح ممزق وبرد قاس.

. الديوانه مشاوا. النمس راح. أخرجي يا الفيران مالغيران. أخرجي. الديوانة راحوا.

بدأ الناس يتفرقون. لم تبق إلا القلة القليلة محيطة بالقوال الذي كان يحكي و يفتح عينيه على جيوب الناس و هو يرسم الأهوال التي قاساها السيد علي، بحركاته التمثيلية القديمة، و الزبد يتطاير من فمه. حتى الجمرات التي كان صاحبه يسخن عليها القلوز وجسد القصبة المسبوك، خفتت تحت أكوام الرماد.

. الديوانه مشاوا. أخرجي يا الفيران مالغيران.

اختلط صوت الأطفال و هم يجرون بأكياس النايلون، بصوت براح البلدة و كافة الأسواق الشعبية بمسيردا الذي كان يقف على سطح سيارة قديمة مهملة قرب رحبة الأغنام.

. يا السامعين. ما تسمعوا إلا سمع الخير. ردوا لي بالكم. الله يهديكم و يهدينا.

توقف القوال عن سرد حكاياته. جمع أغراضه و جرى بدوره إلى عين المكان بعدما أفرغ مجمره من الرماد الذي سرعان ما اختلط بالوحل تحت أرجل المارة.

ـ يا السامعين. و قلوبكم كبيرة. عبد الله ولد يامنة الهجالة بنت السي محند، راه مات اليوم، قتلته الديوانه و حرس الحدود...

ثم نزل البراح من على سطح السيارة و اختلط مع العابرين بحثا عن مكان آخر. كانت عيون الناس موجوعة و تمتماتهم كثيرة. من حين لآخر يسمع صوت البراح منكسرا، مبحبحا و هو يأتي من بعيد و كأنه يخرج من بئر.

. يا السامعين. ما تسمعوا إلا سمع الخير. ردوا لي بالكم. الله يهديكم و يهدينا.

تنهد صالح و هو يحاول عبثا أن يكتم غيضه.

ـ فجأة يتحول الإنسان إلى لاشيء. مجرد كلمة في فم براح الأسواق الذي يهمه أجر يومه أكثر مما تهمه روح المقتول.

. يا السامعين...

كان صوت البراح قد بدأ يغيب وسط ضجيج الباعة الجوالين. ظل صالح واقفا مشدوها. يده على قلبه، يتبع بقايا صوت البراح حتى تلاشى نهائيا، ليعود السوق إلى حركته المعتادة و كأن شيئا لم يقع.

« عبد الله ولد يامنة الهجالة بنت السي محند؟ هذا الطفل أسمع بشطارته لكني لا أعرفه، لعله كان أحد الذين عجنتهم تربة مسيردا المحروقة و نستهم. قد يكون ابن شهيد أو مسكينا مثلنا، يأكله الجوع و البرد و الحاجة. من يخرج في هذا اليوم القاتل إذا لم يكن أحد الذين يقضون ظلامهم في الصقيع والعراء؟ كم هي رخيصة حياة النبي آدم في هذه البلدة؟ هنا، كلش غالي إلا الروح، ما تسواش حتى بصلة خامجة. »

تدحرج صالح بن عامر الزوفري منكسرا نحو سيارة الخالدي، يقضم بقايا يومه. غصة ما كانت تقف على رأس قلبه كالشوكة. حاول أن ينسى الهم بالصراخ، لكن الهم لم ينسه.

. كتان جانيتو. موسلين. أجر يا المسكين...

بدا له صوته كريها مثل النهيق. كح قليلا، لكن المسألة لم تستقم معه فقد ظلت الحجرجة العميقة تمنعه من الوصول إلى كل زوايا السوق.

نزع قلمونه البرنوس من على رأسه. شعر بالبرودة تنفذ إلى شعره. حمل الكيس على ظهره و بدل زاويته التي كان يبيع فيها بضاعته. كانت الأمطار قد توقفت عن السقوط. طافت في عينيه وجوه كثيرة لم تبق منها إلا قسمات السبايبي الحديدية وعيون ياسين المخيفة المستسلمة عند حوافر عود السبايبي. عبثا، حاول أن يتسلى بحركة السوق النشيطة و الوجوه الجميلة المتداخلة و الأشياء الغامضة التي تمرق بدون أن نستطيع القبض عليها.

لا يعلم كم مر من الوقت على وقفته في هذه الزاوية و لكنه عندما استيقظ من غفوته أدرك أنه عليه المزيد من الصراخ ليبيع هذه البضائع و إلا اضطر إلى أخذها إلى سيدي بلعباس. الرحلة المتعبة التي عليه أن يقطعها برفقة أبي زيد الهلالي، والحسن بن سرحان، و الجازية، من أراضي الموت والجفاف و القحط إلى مدن وودیان بلاد الغرب.

. طريق بلعباس يا يما و شحال فيها ترنات_.

. إجر يا المسكين. الرخا يخلع. إكس لمرا و البنت و العروسة و العشيقة. إجر يا المسكين.

إيه يا صالح يا خويا. إرفع صوتك عاليا. أكثر. أكثر حتى تهتز لك قبور الهلاليين. حتى تمتلئ عظام الجازية باللحم الغض وتأتيك من أعماق الأرض، على جسدها رائحة عرق السفر، والحناء و التربة المحروقة. إرفع صوتك، فالسوق ما تزال عامرة، وطريق سيدي بلعباس متعبة و بعيدة.

ـ جانيتو. موسلين. الرتيلاء. القطيفة. المسيرة... الكتان الرخيص. إجر يا المسكين... إجر... إجر...

-3-

كان عبد الكريم صاحب التاكسي 504 بوجو- فمليال_، يشق كالسهم، الحقول و الهضاب العليا و معابر سيدي بلعباس الضيقة و الممتدة كالثعابين الصحراوية.

في طريقه إلى سيدي بلعباس داهمته مرغما، أشياء عدة. وهو منهمك في إستنطاق صمت السهول و السهوب التي كانت تنفلت بسرعة عن نظره. لم يكن يعلم أن المتاعب مرهقة إلى هذه الدرجة. أرخى رأسه قليلا على متكأ كرسي السيارة. تذكر الأزرق بالصفائح الجديدة. يصغي إلى أصداء رنينها على الطرقات المزفتة و على الصخور الزرقاء، تماما كطفل يمشي مزهوا بحذاء العيد. شاهد في كل مكان بقايا مضارب بني هلال. رأى خيولهم و أغنامهم و إبلهم و سمع صرخاتهم و أنينهم و تمزقاتهم و سيوف حروبهم المتعاقبة. من هنا... لا من هنا مروا حين فاجأهم مرض السل والتيفوس و الطاعون و الإسهال و الجوع والجنون. هذه بقايا مواطئ خيولهم. التهموا كل الممالك بالحرب وحزوا رقبة الزناتي خليفة و رأس التيمورلنك. وعيون الماريــة المخيفــة، التهمــت ملــوك الأعــاجم. أحرقــت قلــب الخرمنــد، علــي شــاه، الصنصيل، المغل، بندر و النعمان. هذا هو الطريق الذي سلكه مجنون الدم، دياب حين سافر، برأس القمقام بأوردة المقطوعة إلى الأمير حسن بن سرحان ليثبت له أن غريمه قد قتل. و كانت سفرة الموت التي أحرقت بلاد الأعاجم و أبادت خلقا كثيرين. في هذه الأحراش اليابسة، ليس بعيدا عن حجرة القط، تنام بقايا الحرب الضروس، حرب الكلاب. حرب الذين تقاتلوا من أجل الملك و كذبوا على الفقراء أنهم تقاتلوا من أجلهم. الفقراء، الذين لا شغل لهم إلا تهريب رقابهم يوميا من سيوف القتلة التي تتربص بهم في كل الزوايا.

« لو فقط كنتَ هنا؟ »

لو كنتَ هنا يا لزرق و لكنك بعيد؟ سترى بعينيك لون هذه الأمطار التي تثير الدهشة في هذا الفراغ المليء بأصداء الذين مضوا. لكن الأمطار يا صديقي و المسافات التي لا ترحم. أمطار الشتاء غدارة، والمسافات التي تسلخ الأرجل و الأظافر متعبة. سيدي بلعباس يا خويا مرهقة. و طرقها و عرة و غير سالكة صيفا

فما بالك شتاء. الأمطار، و الثلوج، و قطاع الطرق. وينْ تهرب يا ولد أما وين؟ مات ذلك الزمن الذي صار اليوم بعيدا. أجدادنا القدامى كما يصفهم سيدي علي التوناني، كانوا يقطعون القفار و المفاوز على ظهور الجياد المتوحشة، و البغال والحمير و الجمال. لا شيء يستطيع الوقوف في وجه رحيلهم غير تعب المسافات الليلية و الحروب التي كانوا يفرضونها على غيرهم. أو تفرض عليهم. الهلاليون الذين حفظنا حكاياتهم عن ظهر قلب من الناس الذين سبقونا في الشهادة، و من أفواه القوالين. لم تكن المسافات المتعبة الفاصلة بينهم و بين بلاد الغرب عائقا. لكن يا ربه، أبو زيد الهلالي؟ كان نذلا. وحق محمد كان نذلا على الرغم من شجاعته. بربري و همجي يحلم بتدمير العالم. بينه و بين هتلر شبه الدم والنجوم. ما الفرق بينه و بين الحاج_ الذي ابتلعت دباباته العالم و خرمت صحة القهواجي. رومل مسكين. يا لطيف. كل منهما عمل على تركيع المناطق التي دخلها بالنار وبالدم. الحق، الحق، أبو زيد الهلالي كان شجاعا لكنه لم يكن شهما. و حين تخلو البطولة من الشهامة يتحول المعني إلى قزم أو قواد في سوق النخاسين. لا شيء به إلا العنف و الجريمة.

آه يا لزرق خويا. أنت و المكحلة _ . عشرة العمر. الملح الذي بيننا يجعلنا لا نفكر في خيانة ما يجمعنا.

يا لزرق. يا لزرق. ما نبيعك، ما نشريك.

نخليك لممو اليعن. تزها بك. و تركب عليك.

يا ناري. يا ناري.

و علاش حرقتني يا ناري.

ـ حنِّن يا عمي صالح، حنِّن. زد. زد. طريق سيدي بلعباس لا يختصرها إلا صوتك.

ـ إيه يا عبد الكريم يا خويا يا، هذا كانت أيام زمان. اليوم شخنا و شاخت أصواتنا.

.كل ما سمعتك تذكرت الشاعر الشعبي الكبير المصطفى بن ابراهيم، الله يرحمه. رجل فحل و صحيح.

. سي المصطفى العامري. الله يخرب بيته و يسخطه. شاعر كبير و ضيع روحه و ضيع معه حرفة الكبار.

تدخل عبد الكريم الذي كان بصره مشدودا للطريق و أذناه لصالح بن عامر الزوفري.

ـ سبحان الله؟ أنتم أولاد عامر، سلالة بني هلال، هكذا دائما. إذا لم تتقاتلوا علانية، كرهتم بعضكم بعضا.

. أنت مخطئ يا عبد الكريم يا خويا. الأمراء هم الذين تقاتلوا من أجل الملك. أما الأيتام و الجازية، بقوا فقراء، و بسطاء يفكرون في جوعهم وفي غسل الدم العالق بأثوابهم. ليس ذنبهم يا أخي. فالقبيلة قاسية، و وضعية المرأة حرجة.

. يا خوياصالح ما زال ما شفت لليوم عامري يحب عامري من نفس جلدته.

ـ هذه حالة الهلاليين الذين باعوا البلاد و جمعتهم المصلحة الضيقة قبل أن تجمعهم المحبة المتبادلة و المصلحة الكبرى.

« سر. سر يا وليدي سر... »

لو كان لزرق هنا، تعرف ما معنى طريق سيدي بلعباس، و ما معنى مصطفى بن ابراهيم الذي كان سليل القياد و القوادين. من دم واحد هو و أبو زيد الهلالي. الفرق الوحيد هو أنه كان قوادا موهوبا. حارب الناس الذين رفعوه إلى أعلى و وطئهم بحافر عوده الذي ورثه من قوم كبار كان القتل مهنتهم. يقال إنه عامري. فهو جزء من هذه السلالة الخائبة. تملك كل شيء وتقتلها المجاعات. حين هاجر إلى بلاد المغرب، كانت القيادة قد طارت من يده. وحين رجع تمناها من جديد، لكن الزمن الذي رفعه و علاه، كان قد ولى. وضع رأسه بين يديه ثم بكى دمعتين على أطلال لم تعد صالحة. و حق راس عودي، السي محمد بلخير كان رجلا حقيقيا. لم يخن الحليب الذي شربه من ثديي أمه الفقيرة، العمياء. المكحلة يا بابا، و جري الخيل، و المهماز، والنيف _ العالي الذي لا توقفه عوارض الأيام، و كلام الحرب و غبينة المنفى الذي يأكل ركائز ابن آدم كالسوسة. تستحق العبادة يا السي محمد بلخير يا وليد البيَّض. تستحق الرحمة. بينك و بين السي مصطفى إختلاف الليل و النهار.

تكوم من جديد داخل برنسه. البرد و الروائح الكريهة. حاول فتح زجاج السيارة، لكن التيار الذي تسرب، أرغمه على إعادة إغلاقه من جديد. تحسس قطع الكتان الملفوف حول جسمه. ضحك من كل أعماقه. بدا لنفسه منتفخا على غير العادة. يا الله يا سيدي. إنها الطريقة الوحيدة لتهريب الكتان. لا خيار ثالث في هذه البلدة. تمنيت لو سوقتها بسوق البلدة لكنها بضاعة كاسدة. الله غالب يا الطالب. الأمطار كانت باردة، والوحل يصل إلى الركب، و عيون النمس التي لا تنام أبدا. بعت بعضها، و قلت إن بلعباس تستقبل ما تبقى معك من كتان. ثم أختم زيارتي بالمرور على فلاح اللفت_ آخذ دراهمي من طيطما و أغسل عيوني المتعبة في ماخورها أو الديوان كما كانت تسميه. هذه هي الدنيا. و إذا اضطررت إلى أخذ سلعتي من طيطما، سآخذها إذا لم تكن قد باعتها.هذه السيدة أصبحت صعبة و لا تطاق. تلعب على ستين ألف حبل. المسيردية، بدون أن تراها، كرهتها كدم الأضراس الفاسدة. قالت لي ذات مرة و أنا أهم بالسفر إلى سيدي بلعباس، و كانت في شهرها الرابع. النطفة كانت قد استقامت في رحمها.

. احذر منها. هاذيك غولة. قادرة على أكل فلاح اللفت بكامله.

. يا بنت الناس أنا لم أقطعه من عود صفصاف. أبيعها البضاعة وبدورها تبيعها. تأخذ أتعابها و تدفع لي حقي.

أني كنت أكذب عليها. فقد كانت عيون هذه المخلوقة على كبرها، تأسرني. و أضطر في النهاية إلى قضاء الليل معها على الرغم من وجود ابنتيها الهجالتين المزعجتين. وحين أستيقظ صباحا أشعر بالتعب و وجع الرأس، من رائحة الدار المقرفة، وكثرة البني آدميين الغامضين الذين يدخلون و يخرجون.

« آه يا صالح. الدنيا وشحال قاسية يا وليد البلدة المقفرة. تتمنى كثيرا، لكنك حين تقف وجها لوجه في مواجهة الواقع الشرس، يتعقد كل شيء في رأسك، و تتغير نظرتك و يختلط الحابل بالنابل. »

لا يهم. سأبيع ما تبقى عندها إذا بقي شيء يستحق البيع. وأعود إلى البلدة، هذا اليوم. و إذا استطعت بعدها أن أترك هذه المهنة القذرة، سأتركها بلا ندم. لذعتنا في القلب و في أعز الأعزاء. سأتزوج لونجا إذا وجدتُ عملا مناسبا و إذا قبلتْ. و

أنجب منها طفلة بعينيها و نسميها الجازية، ستكون سيدة الأمجاد القادمة. و إذا أنجبنا أطفالا كثيرين، سأحكي لهم حتما عن الجازية و عن أهلها الذين حاولوا مسخها. و إذا نشفت أرضنا، سأحاول مضطرا البحث عن أرض أخرى. بلدتي لم يعد لي فيها مكان. أنا يا الجازية لست قوادا ولا نذلا مثل أبي زيد. يستحيل أن أخون جمالك وملحك و دمك. و هذا سر الخلاف بيني و بين وغذ بني هلال. فمصلحته كانت مع الملوك و الأمراء الذين سبوا أمه و وضعوا قيود العبودية في يديه. ومصلحتي، في جوادي، و المكحلة، و في رومل، و حنا عيشة ولونجا، و في عينيك يا أخت الحسن. سيأتي وقت و أطالب فيه زوجك المقرف بتطليقك. فأنتِ مثل لونجا، خلقتِ للفقراء و محرمة على الأئمة و الأولياء الملتحين. و سنكذِّب حتما نبوءة سيدي علي التوناني الذي صرح منذ سالف الأوان وأغلب الأزمان بانقراض هذه السلالة. كان وغدا. يتعاطف مع من كان السيف لغتهم الوحيدة في الكلام، لكنه أمام أعين الجازية يتحول إلى حيوان شرس و يحاول تركيعها تحت حدوتي حصان دياب الزغبي أو أبي زيد الهلالي. يخرب بيته. سحبها من قرى مكة البعيدة ثم رماها في وادي الرشاش مع قومها. وادي الموت، و تركها تئن من غربتها. و الله تستأهل الشنق يا التوناني، يا حثالة المؤرخين.

« أوف. و شحال تخرف يا بابا صالح. تنسى نفسك بسرعة. لونجا فين، و أنت فين؟ عليك أن تتحول إلى ابن العشرين و تركب العود بو بركات و تشق القفار و الفيافي بحثا عن الوجه النبوي الذي يتحرق شوقا إليك.»

لونجا صارت بعيدة مثل الحكاية التي نسجت حولها. تحاصر جمالها الغيلان و تنافسك فيها بلاد المصائب و الأهوال و القيل و القال. عليك أن تكون قادرا على الصياح عليها من تحت قمة جبل النار بصوت نقي و عال:

لونجا. يا لونجا

شعرتك خبالة.

دلي لي سالفك نطلع.

و عليك يا صويلح، يا ابن بلدة الفقر و القحط، أن تكون قادرا على مقارعة الغيلان الآدمية، التي حين تعود من صيدها تتأكد، تحسب شعرات لونجا الواحدة تلو

الأخرى و تتشمم جسدها خوفا من أن تكون يد أخرى قد لامستها. أنت الوحيد من يستطيع أن يستميل صدرها. ستعلق شعرة بيديك يا صويلح الزوفري، و إذا كنت فاشلا في الدفاع عن حبك لها، ستلتهمك الغيلان لتذهب أخبارك مع الريح.

« لا يكفي يا حبيبي أن نحب. علينا أن نتعلم أولا كيف ندافع عن هذا الحب و نستميت من أجله. »

و أنت يا صالح. يا ابن المجانين و الفرسان. أصبحت شيخا هرما. صحيح أن عودك ما يزال صلبا. لكن هذا غير كاف لمقاومة عدوانية هذه الأحراش الجافة، و شراسة أغوال لا عمل لها سوى شحذ أنيابها يوميا و انتظار فريستها. لكني متأكد أن سكورتي_ لا ترفض لي طابا. حين عدت لها من السوق يومها، و سلمت لها الخضر، كانت عيونها صافية مثل سماء زرقاء.و كانت هي ناضجة كالتفاحة. استفزتني جمالها و حنانها. لو لم أكن مضطر للسفر إلى سيدي بلعباس كنت طلبت منها أن تعانقني حتى تتلون هذه الأمطار، و حتى تجف دموع الأيتام، و تقتل معي هذه الوحدة التي ترهقني. لا طيطما و لا بناتها قادرات على ملء هذا الخواء الذي خلفته في المسيردية في سبيطار الغزوات .

. الله يجازي اللي كان السبب.

شعر عبد الكريم، سائق التاكسي، بتمتمة صالح بن عامر الزوفري وبمسحة الحزن التي ملأت عينيه كمدينة سرقت منها الحياة، و عماها الضباب فجأة. انتبه إلى الطريق الذي كان يمتد على مرمى العين كأفعى صحراوية.شيء في صالح كان يموت بسرعة. انتبه إلى الركاب الآخرين. كان الكل نياما من كثرة المتاعب اليومية أو على الأقل يتظاهرون بذلك. نفذت إلى أنفه رائحة أحذيتهم المطاطية. ألبستهم متسخة.

بدون أن يلتفت نحوه، ذكره عبد الكريم:

. عمي صالح. واش درتْ في قضية المسيردية الله يرحمها؟

. واش يدير الميت بين يدينْ غساله؟

. يدافع على الأقل على حقه في الحياة.

. القضية في الشرع. و الدولة ثقيلة. لو فقط بردت جنوني يا عبد الكريم خويا في أبناء الكلب، ما يبقاش الخاطر.

. لكن يا عمي القانون موجود على كل حال.

. واش من قانون يا رجل؟ لو كنا نخضع له جميعا ما حدث بهذه البلاد ما يحدث لها اليوم من كوارث.

. صل على النبي يا عمي صالح. ربنا كبير.

. الله يرحم الشهداء. ربي؟ لقد نسينا وسط هذا القفر.

تنهد صالح بعمق. شعر بحرارة تصعد إلى رأسه. فتح زجاج السيارة غير آبه بالركاب الآخرين. نفذ إلى أنفه تيار بارد كالصقيع، عبر كل خلايا جسده.

ـ لقد سرقوا مني ابني يا عبد الكريم خويا. إلى اليوم لا أستطيع أن أصدق ما حصل. هل نحن في وطن له دولة أم في فوضى يسيرها الكذب الذي يتخذ أحيانا صفة الثورة و أخرى الشهداء و في أحيان كثيرة صورة التضحية.

. خلِّ البئر بغطاه يا عمي صالح.

إيه يا صالح بن عامر الزوفري. يا آخر سلالة بني هلال. ابنك. كان يمكن أن يكبر و يتحول إلى رجل جميل يعشق أبويه وهذه الأراضي الرائعة التي أكلت أحلامنا، و اضطهدت عيوننا. بكل تأكيد لن يجبر على أكل رؤوس الكلاب أيام العياد مثلما فعل العربي ولد رومل. و لا قوائم الدجاج التي كنا نتقاتل عليها في الشتاءات الباردة.

سبيطار الغزوات كان المجزرة و كنت الضحية. لم أكن أكثر من رقم من بين آلاف الأرقام. كان ذلك الصباح باردا على غير عادته حين إنتابت المسيردية آلام حادة في بطنها. سألتها عن السبب. اعتبرتِ المسألة جد عادية، و نفت أن تكون آلام الولادة و الطلق. صدقتها لأنها لم تكن جديدة على التجربة. مع أني كررت على مسمعها:

. إذا كنت ستلدين قولي. سألغي رحلة الحدود. و قد أتغيب يومين. فالشتاء دخل يا بنت الناس.

كانت إبتسامتها مشرقة رغم وخزة الألم التي كانت تنتابها من حين لآخر و تجعلها تهتز في مكانها بقوة.

ـ لا يا صويلح. رافقتك السلامة. ربي يرعاك. أحرز نفسك من كلاب القايد و حرس الحدود.

و خرجت. كانت أشياء غامضة تتقاتل في رأسي. لكن حين التقيت بالعربي وليد رومل القهواجي، نسيت كل شيء وإستبعدت أن تكون آلامها، هي آلام الولادة. و حين عدت في ساعة متاخرة من الليل، بعد المخفر، وملفات الأرشيف التي أخرجوها لي. لم نستطع الإفلات من قبضة النمس. كان كل شيء قد انتهى. الدار فارغة، إلا من الرياح القاسية التي تهز الأبواب الثقيلة بعنف، والنوافذ الخشبية القديمة. شعرت بشيء ما غير عادي يحترق في دماغي. لم أحس بالإرهاق. جريت عند حنا عيشة القابلة العجوز. لم أجدها. الله؟ هل خلت القرية من أهلها ؟ لم تواجهني أية صعوبة في فتح باب مسكنها. فقد كان هرما مثل أسنانها المخرمة. حوشها كانت تملأه روائح الجرذان الكريهة، و الغاز، والمازوت، والخمائر المعتقة، بدون فائدة. كان البيت خاليا. على حافة الطريق، واجهني الشيخ البختاوي. لحيته بيضاء مهدلة على صدره. يقطن قمم الجبال و لا ينزل إلى القرية إلا لزيارة المقبرة التي يسميها المدينة و الترحم على الشهداء و غلق فجوات قبورهم.

. شيخنا البختاوي؟

قاطعني. عرف البقية من حيرتي.

ـ نزلوا لسبيطار الغزوات منذ الصباح و لم يعودوا. زوجتك ستلد. الله يجيبها في الخير. نزل معها القهواجي و حنا عيشة. الرجاء في الله يا صالح يا ولدي. لا تقنط من رحمة ربك.

. يكثر خيرك يا شيخنا، لازم نلحقهم. منذ الصباح و لم يعد أحد منهم، الأمر غير عادي؟

السيارات بالليل منقطعة. ذهبت إلى عبد الكريم فهو مآلي الأول والخير. رجل المهام الصعبة و 504 مثل لزرق، لا تتعب أبدا. بيننا خبز و ملح و شقاء القرية و متاعبها، و لا يرفض لي طلبا. استحلفه بثديي أمه، و بحليبها، أن ينزلني إلى

سبيطار الغزوات. كان طيب القلب مثل معظم أهل البراريك. بقدر ما هم قساة على بعضهم البعض، فهم جياد أصيلة لا تتعبها شقاوة الأيام.

كانوا في الباحة. ينتظرونني و ينتظرون السيارة للعودة إلى القرية و لا حظ لهم في ذلك إلا مع تباشير الصباح.

سألت القهواجي. كنت مضطربا بشكل لا يتصور.

. كيف حال المسيردية؟

لم يتكلم. كان واجما كصخرة بركانية عتيقة. سألني عن ابنه العربي. لم أجبه. هو يعرف جيدا أن العربي مثل ابني.

. العربي، واش حاله؟

مرت كلماته متعبة على هامش حيرتي و قلقي.

. حنا عيشة؟

هيأتي يرثي لها. ثيابي ممزقة و مثقلة بالأتربة و الوحل و خوف الحدود.

كانت عيناها مثقلتين بهم الشيخوخة، حمراء و محروقة. تحاول جاهدة أن تمسح دمعها بفوطتها المتسخة التي كانت تضع طرفها العلوي على رأسها.

لم يجبني أحد. زادت حيرتي أكثر. سألت الممرضة المداومة بالليل، إذ لم تبق لي إلاَّ هي.

. أختي، يرحم والديك، حبيت نعرف واش وقع لمراتي؟

. أنت جيت معهم؟

. أنا زوج المسيردية.

كانت عيناهاصغيرتين و شرستين و مدورتين كعيني بومة، اشتعلتا تحت الأنوار ببريق فوسفوري ككلب يتربص بطريدة ليلية. كانتا باردتين كهذا اليوم. يداها تنامان بهدوء في جيبي لباسها الأبيض. نفذت إلى أنفي رائحة الأدوية التي كانت تنبعث من كل زاوية من زوايا جسدها. زاد خوفي. لست أدري لماذا كلما شممت هذه الرائحة تنتابني لحظة خوف عميقة، تسري في كامل دمي كالسم أو كالرعشة.

واصلت سيرها. تبعتها.

. يا أختي. أتكلم معك. زوجتي، يرحم والديك.

التفتت نحوي. بكل برود قالت:

ـ أنتم الفلاحين قاع ما تتعلموش. تباتوا تخدموا في الأولاد و من تجيوْا تتباكون؟ زوجتك يا سيدي ماتت.

. كيفاش ماتت؟

. كما يموت كل خلق الله. غدا تأتي الشرطة للتحقيق في الحادث. خلاص شبعت؟

تعجنت الدنيا و صارت مثل كرة النار و اختلطت الأشياء المخيفة في رأسي. تعفنت كل العوالم التي كانت تحيط بي، لتتحول في النهاية إلى كتل سوداء من الإسفلت والنفايات. فاض كل الدود و القيح الذي برأسي. انهارت الجبال السوداء وسقط شيء بارد كالصقيع على نبض قلبي، فانفتحت الجروح القديمة التي تحتل جسدي منذ صغري، و ذابت البلدة الفقيرة، داخل حفرة سوداء عميقة الهوة. و بدأ الضباب المتسخ ينبعث من كل مكان داخل هذا السبيطار المخيف.

لم أعد قادرا على التحكم في نفسي، بدأت أتلوى كحية ضربت للرأس. شعرت بقوائمي تنفصل عن جسدي بكاملها و بعيني تتحولان إلى صخور بركانية ملتهبة. قبضت على رومل من صدره بعنف حتى شعرت أن عظامه بدأت تتكسر تحت قبضة يدي.

. تكلم يا رومل؟ أين هي؟ صمتك يقتلني.

أشار بعينيه إلى القاعة التي كانت بالزاوية. كان يعرف جيدا، أني وصلت مرحلة التوحش، و قد أقدم على إرتكاب حماقة لا أغفرها لنفسي.

تمتم. تلك كانت الكلمات الأخيرة التي سمعتها لحظتها منه، بعدها لم أعد أرى شيئا غير القاعة التي بالزاوية و التي أشر رومل نحوها بعينيه.

. الله يجيبها في الصواب.

لم أجد صعوبة كبيرة في فتح القاعة المغلقة. عادت بداوتي و رعونتي التي خبأتها الحياة، إلى رأسي. استيقظت في كل النوازع البدائية. ضربت على القفل بالزرواطة _، فتصدع. انفتح الباب عن آخره لتتسرب منه روائح الأدوية و أشياء أخرى.

فجأة وضعت يدي على قلبي. حاولت أن أصرخ، لكن الصراخ تجمد في الحلق كالصخرة. يا الله. لست أدري كيف بقيت واقفا و حافظت على توازني.

إنزلقت يدي اليمنى إلى فمي. حاولت أن أصيح بأعلى صوتي. كل هذه المجزرة؟ كانت رجلا المسيردية ما تزالان مفتوحتين عن آخرهما. عيناها مفتوحتان، يغزوهما البياض الكلي. دماء على الأرض. بقايا أصابع دقيقة لطفل سقط اللحظة من رحم موجوع. رأس الصغير مفصول عن جسده. بطنه مفتوحة. أمعاء تمتد من تحت السرير حتى فتحة الباب. رجلان صغيرتان ما تزال فيهما الحياة، الدم يجري فيهما أو على الأقل هكذا بدا لي. تناسيت كل شيء. هززت المسيردية التي ازرورقت شفتاها. على فتحتي أنفها تجمد دم أسود كالقطران. كانت باردة كقطعة خشب.

بكيت بصوت عال. ما أصعب أن يبكي من بدأت تقهره قسوة السنين. في الليل بت أصرخ و أصرخ و اندب حظي التعيس. كان الزغب الذي تسلق وجهي يؤلمني مع ملوحة الدمع التي نفذت إلى فمي وجروحي. أطل المرضى برؤوسهم من النوافذ. في البداية ظنوني مجنونا من لباسي و صراخي لكنهم سرعان ما تفهموا الموقف فعادوا إلى أسرتهم. جرني رومل من المكان. ضمني إلى صدره و ربت على كتفي. تمتم:

. هذا قدر الله.

صرخت مثل المجنون:

ـ هذا قدر القتلة و لا علاقة لله بذلك و إلا فهو يشبههم و لا علاقة لي به. وين كانوا عينيهم؟

و بعد أيام من ألم المرض، قيل لي بأن الممرضة المتسببة في الإهمال قد سجنت. و حكي لي الكثير عن ولادة المسيردية الله يرحمها. قيل إنه لحظة الولادة، تلمستها الممرضة، و طمأنتها بأن المخاض ما يزال في بدايته. رجتها المسيردية بحليب أمها الذي رضعته و هي ملائكة، أن تحاول معها. فهي تعرف جيدا لحظة ولادتها. لكن الممرضة كانت قد إنزلقت إلى الخارج، و سدت الباب وراءها بإحكام شديد. النوافذ كانت مشرعة. أخرجت المسيردية رأس الطفل بيديها حتى أغمي عليها. و حين فتحت عينيها، لحظة قبل أن تسبل جفنيها إلى الأبد. هكذا يقولون. وجدت دماء وأصابيع تردح تحت السرير و عظاما صغيرة و محاجر العيون فارغة. الرأس مثقوبة. الأمعاء الدقيقة تمتد من سريرها حتى مدخل الباب. ثم فوجئتْ بقطط هرمة

تتآكل عند قدميها و بصرخاتها الليلية المقرفة. حاولت عبثا أن تضربها و أن تقوم من مكانها لتجمع شتات صغيرها.

حين أدركوها، كانت قد نزفت حتى الموت.

تفو. تفو.

سيدي علي التوناني لم يكن مخطئا على ما يبدو، و روحه التعيسة، وراء إفناء مخلوقات بني هلال. كلامه مخيف يا لطيف. « الهلاليون؟ السلالة التي كتب عليها الفناء. سيتقاتلون حتى يفنى بعضهم البعض، و لن تبقى إلا القلة القليلة، سيأتي عليها دهر تجف فيه الضروع و يموت الزرع و تسقط كالنمل أو تصاب بالجدب والعقم.سيطمع فقيرهم في غنيهم، و غنيهم في آخر فلس لفقيرهم. ستنقلب الدنيا على ظهورهم و يتحول مجدهم إلى غبار ترفعه رياح الخريف عاليا، كالقش الميت و الورق الأصفر. و تقيم في صدورهم الأوبئة دهرا من الزمن. و بعدها يأتي ذلك الشيء الحار الذي لا يعلم شره إلا الله و الراسخون في العلم. »

كان عبد الكريم متأثرا. لم يقل و لا كلمة. تبكَّش. توقف صالح بن عامر الزوفري قليلا عن الكلام ليترك بصره يحرث الأراضي التي كانت 504 تشقها في الوسط. لم ير شيئا مهما سوى تربة بدأت تجف و لم تعد تنجب إلا اليباس.

« إيه يا بابا صالح بن عامر الزوفري. هذه المرة لم تفقد طفلك الرابع فقط و لكن المسردية كذلك. »

حاول صالح أن يغطي على الصور القديمة بالكلام. كانت تترنح في عينيه دموع ملتهبة:

. شفت يا خويا عبد الكريم بعينيك لوين وصلنا؟ القطط تأكل لحمنا و ذريتنا؟ هذا هو الزمن المتأخر الذي حكى عنه الأولون.

ـ رحمة ربي واسعة يا بابا صالح. ما تقنطش. الله و القانون يجازي اللي كان السبب.

ـ واش من قانون يا خويا يا عبد الكريم؟ حتى الشهداء داروهم حميرْ و ركبوا عليهم. الله يرحم الشهدا، مليح راحوا قبل ما يشوفوا هؤلاء القتلة اللي جاوْا باسمهم. آه

يا عبد الكريم خويا لو كان الزمن يدور بدورته، نقطعهم. و حق ربي نقطعهم. على كل حال إنهم يصنعون موتهم و موتنا و موت هذا الوطن بأيديهم.

خفف عبد الكريم قليلا من سرعة سيارته و أشر بأصبعه إلى منحدر كبير:

ـ هنا مات عبد الله ولد يا منه، الله يرحمه. تبعوه من سيدي بلعباس و قتلوه في هذه الشعبة.

لم يقل صالح بن عامر شيئا و لكنه شعر بالأصوات التي بداخله تهتز بعنف، و برأسه تؤلمه بشكل فظيع.

حاول عبد الكريم أن يغير الحديث.

ـ شوف يا خوياصالح المنكر، عيني عينك. الخيوط جاهزة. الكهرباء موجودة. والقرية تعوم في الظلام؟

ـ يستنو رئيس الدائرة حتى يرضى و يدشن كهرباء القرية و هو لاهي بتهريب الأغنام و الأبقار.

. شي نهار من النهارات، سيأتي مجنون و يشعل هذا المحول و يخليها تتفرقع.

. لازم يكون مجنون يفهم مليح في الكهرباء.

. يا بابا صالح المسألة لا تحتاج أكثر من تحريك الذراع الأعلى من المحول.

كانت السيارة تهتز بعنف في المنحدرات.

« طريق بلعباس شحال فيها تزنات. »

ساد بعدها صمت مطبق. حاول صالح أن يغمض عينيه، في محاولة يائسة للنوم. بدأ يتسلى بنقرات المطار التي كانت تتكسر على زجاج السيارة الواحدة تلو الأخرى و بشخير الركاب حتى غفا من شدة الإرهاق على وجه ابنه و على المسيردية و هي تضحك و تقهقه من نكتة صالح بن عامر الزوفري الأخيرة.

-4-

ها هي ذي سيدي بلعباس بأحيائها الواسعة و شوارعها التي لا تحد و لا تنام. مدينة رحبة الصدر. قاومت في زمن ما، جيوش الاحتلال و استماتت حتى أشيع فيما بعد عنها، بأنها تحولت إلى رماد عبثت به رياح الشتاء الباردة. في هذه الجهة، أشياء كثيرة تبدلت. أحياؤها الشعبية ما تزال بسيطة كما كانت منذ زمن بعيد و لكن الروائح صارت فيها حادة و كثيرة. حيطانها مخرمة، تتسلقها بعض الكتابات المعوجة التي تقول كل شيء و لا شيء. أسودت ألوانها مع مرور السنوات. الشيء المدهش هو أن عدد الأطفال زاد بشكل يثير انتباه الزائر العادي. الأطفال. يا لطيف؟ كالجراد تنشه من هنا يجيئك من هناك، كما كانت أمي تقول. تراهم في كل الأوقات منتشرين عند أبواب دورهم، إما يشربون حليبهم واقفين أو يتبرزون، ثم يقومون إلى اللعب بأوساخهم، و كأن شيئا لم يكن. الصراخ والأوساخ، تملأ جوف هذه الأزقة المظلمة.

كان صالح يشعر بالتبدلات الكثيرة التي كانت تعصف بالمدينة. انتهى به الحي الشعبي، إلى رحبة السوق الواسعة. نفذت إلى أنفه روائح المأكولات الجاهزة، و الشواء، و رائحة الأدخنة التي كانت تحجب سماء سيدي بلعباس الكئيبة، بخجل من وراء الغيوم المثقلة بالهم. يضاف إلى كل هذا رائحة الأوساخ و الجرذان التي تعشش في مثل هذه الأماكن.

« هه يا سيدي واش راح يصير؟ أبيع هذه الأقمشة المتبقية من سوق مسيردا، و بعدها أمر على طيطما الهجالة التي تركت حماية لألَّه ستي لتجد راحتها في هذا المكان. أو كما تقول هي دائما :

. باب الله في كل مكان. و لألَّه ستي في القلب يا صويلح. »

دخل إلى أحد الدكاكين و طلب علبة كارتون فارغة. أخذها ثم خرج بسرعة نحو الرحبة من جديد . انزرى في مكان ما داخل السوق، بعيدا عن حركة الجمارك و الجندرمة. ثم أخرج الأقمشة التي كان يحطم بها جسمه وخصره. فرك يديه بحرارة.

. يا باسم الله. مليح أن الأمطار متوقفة، و إلا كنا وقعنا في أزمة أخرى.

نحنح قليلا ليعود حنجرته جيدا على أصداء السوق، ثم بدأ يصيح بأعلى صوته:

.كتان موسلين. المسيرة. الرتبلاء. إجر يا المسكين.

هه. جيوب سيدي بلعباس سخية. و أسواقها عامرة بالخلق الطيبين والمحتاجين. وطبعا، حيثما يكون الطيبون، يحضر السراق والحرامية و القتلون الذين لا يدخل المطوى جيوبهم. وجوههم مشوهة بتشوهات أبدية. عيونهم غائرة كعيون القطط، تدعو إلى نوع من الذعر والخوف. الفراغ يا بابا. يبحثون عن أي شيء لملء فراغهم حتى و لو كان نزع الأرواح.

هدوء هذه الرحبة مريب يذكر بهدوء البراريك.

لم يطل الأمر بصالح. بسرعة باع كل البضاعة التي كانت تحيط بخصره قبل أن يخرجها من تحت ألبسته و يضعها على الكرتون حتى يراها المارة.

مر على أحد المقاهي الشعبية في درب الحمام الذي تملكه طيطما الهجالة. ورثته عن رجل غني، كان مالكا لعقارات و لأراضي كثيرة، التهمته ماكنة حصاد يوم كان الاستعمار يقلم أظافر الفقراء و يجوعهم.

شعر صالح بثقل القهوة المرة. صحت عيناه من كل الغيوم التي صاحبته من مسيردا حتى سيدي بلعباس. بدت له المدينة، على الرغم من اتساخها، تخبئ أشواقا استثنائية و أفراحا صغيرة.

مر في الدرب الضيق المؤدي إلى فلاج اللفت الصدئ. نفذت إلى أنفه روائح الماخور الملتبسة بالحب و الكراهية. مرت برأسه أفكار عدة. تذكر الجزء القديم من البراريك. العهر و القتل و المطاوي التي لا تعرف الأغماد. في منعطف الدرب، في الزاوية المظللة، بان له باب بورديل_ الحاجة طيطما كبيرا على غير العادة و صلبا كقطعة حديد باردة.

مد يده. دق بقوة. سمع أصداء الخشب الجافة. شعر بالتعب يثقل جثته في هذا اليوم الممطر البارد. قدماه لم تعودا قادرتين على حمله. انتابه الملل وهو ينتظر فتح الباب. تسربت إلى أنفه رائحة خاصة بهذه الزاوية. عطور ممزوج بدم الحيض و الآباط والصابون و الحمامات التركية و أصوات الشيخات اللواتي تأكلهن فراغات المواخير الشرهة. في البداية تقزز، لكنه سرعان ما أنسجم مع هذه الروائح بالتدريج.

أعاد الدق من جديد، و بعنف أكثر.

أطلت امرأة من الأدوار العليا. عرفها من شعرها المصبوغ بالأحمر.

« يا لطيف. الجلالية.. الجنرال. الحنش بومريات. جميلة لكنها شرسة كنمرة. »

صاح بأعلى صوته :

. أمك موجودة يا الجيلالية؟

. شكون؟ عمي صالح الزوفري؟ استنَّ نفتح لك الباب.

انزعج من وقع خطاها المنبعثة من الدرج الداخلي القديم، حتى قبل أن يلمح قسمات وجهها العريض، و قامتها الخشنة و المستقيمة. يسميها الجنرال تارة، و تارة أخرى الحنش بومريات لنظارتيها الطبيتين.

إنفتح الباب الخشن على مصراعيه.

. مرحبا بك عمي صالح في بورديل الحاجة طيطما.

. أمك موجودة.

. نعم. أدخل. أدخل.

سبقته برشاقتها المفتعلة. صعدت الدرج بسرعة. كان تحتها، يمشي بتثاقل، متعبا من شدة شقاوة اليوم.

. امش عمي صالح. إطلع.

رفع برأسه تجاهها. لباسها القصير. حاول أن ينسى وجهها. بانت له أفخاذها مكتنزة، مدورة كتفاح النصارى. شعر بامتعاض. حاول أن يتفاداها و لكنه لم يستطع. ظهر تبانها الأحمر المثقب، مضغوطا على لحمها بشكل يدعو إلى الوقوف لحظة و الغوص في جسدها عميقا.

هذه البنت مخيفة، كما يقول عنها صالح. عيونها بندقية صيد. زبونها لا يفلت منها، تصطاده من أعلى البناية بخزرتها. عينين الطير.حتى أمها التي ربتها على يديها، تقول ذلك. الجلالية، كانت متزوجة من سيد مشبوه، عذبها كثيرا حتى كرهها في كل الرجال و لا تحلم إلا بشيء واحد: الانتقام منهم. كان عندما يسكر و لا يجد ما يفعله، يضع رأسها بين ركبتيه و يهددها بالذبح. خافت أن يقتلها ذات ليلة، فهربت و لم تعد على الرغم من إلحاحاته المتكررة. اليوم كلما اشتاق إليها، يمر على الكونتوار، يدفع الثمن و يأخذ القرص ثم يصعد نحوها. تقوق أمها إنها تتلذذ بتعذيبه.

تمتم صالح و هو غارق في جسدها، لحمها بين يديه الخشنتين.

« يلعن الشيطان. الوسواس. الخناس؟ »

ـ مالك حال فمك ؟ إطلع، عمي صالح. أنت لآن لست في امسيردا و لكن في بورديل الحاجة طيطما. فهمت؟

. فهمت مليح.

كانت تعرف من عينيه أنه كان يفلي جسدها، زاوية زاوية.

رفع رأسه نحوها من جديد. كانت رجلاها منفرجتين في هيئة مومس تريد اقتناص طريدتها. النصف الأسفل من جسدها، حتى السرة، كانت تلفحه أنسام الظهيرة الباردة. تعمق اللون الأحمر و ثقوب التبان في عيني صالح بن عامر الزوفري. لم يقل شيئا و لكنه زفر زفرة شعر بها تمزق داخله المحترق.

« جنرال و نصف. صانعة في إستقزاز الخلق التعساء. »

حاول كبت رغبته التي التهبت فجأة في دماغه. تحسس ما بين رجليه. ضبط هندامه بشكل جيد، و عدل سرواله الذي إنعطف عند حزامه فجأة. ثم صعد بسرعة. سمع داخل البيت، صوتا آمرا عرف أنه صوت الحاجة طيطما.

ـ اسمعي يا بنت؟ أقلي الكبدة مع الفلفل. فهو يحب الكبدة مقلية و الحرور المشوي.

. حاضرة يا يما طيطما.

كان واقفا وسط الساحة كجندي مهزوم. بدت له الحركة غير عادية مما أثار انتباهه. هذه المرة ليست كالمرات السابقة. لاحظ وجوها نسائية شابة جديدة، تتحرك في أبهية الدار. بورديل الحاجة طيطما يبدو اليوم في أسعد أيامه لابد أن يكون سعيد الحظ منتفخا. الحاجة لا تتحرك بهذه القوة هكذا؟

« ماذا حدث؟ كل حريم بني هلال اجتمع هنا؟ لكن لأي سبب يا ترى؟ المسألة مثيرة جدا بقدر ما هي مغرية و غريبة. الحاجة طيطما اليوم ما عجبتنيش. »

لم تعطه الإهتمام الذي يستحقه. عادة هي التي تستقبله عند الباب أو في باحة البيت و ترافقه حتى حجرتها الخاصة التي لا يدخلها إلا أصدقاءها المقربين. ما كان يحدث أمامه لم يدخل مخه بسهولة.

تاه وسط حركة النساء اللواتي يعرفهن و اللواتي يراهن للمرة الأولى و يتغامزن عليه كلما مررنا بالقرب منه بعطورهن المسكرة. ظل متسمرا في مكانه كالتمثال. طن في أذنيه من جديد صوت طيطما الآمر من الصالون القديم. حتى الروائح التي يكرهها أصبحت أليفة.

حاول صالح أن يقوِّم ظنونه و يصححها. طيطما امرأة أصيلة و صريحة لدرجة أن تجرح ضيفها بلسانها. لا بد أنها تعد له فراش القعدة الطيبة في الصالون و أنها منهمكة في الوقت نفسه في شأنها اليومي الذي يحتم عليها أن تتجدد و أن تكون متيقظة. عالمها صعب و يأكل الضعفاء. اعتقد جازما أن كل هذه التحضيرات تتم من أجله لكنه في الوقت نفسه يعرف جيدا أن هذا التعب الذي تبديه طيطما الهجالة ليس مجانيا. و المؤكد أن وراء هذه العملة ضربة معلم معقدة تحتاج إلى فك.

« و الله ما يبقى فيها إلا الصحيح و الواقف و طويل العمر. »

في لحظة من اللحظات فكر في الرجوع إلى رحبة الكار_ و نسيان ماخور الحاجة طيطما نهائيا، حتى تأتي هي بنفسها، كعادتها إلى امسيردا، لتأخذ منه الكتان والأقمشة و تعود إلى سيدي بلعباس، و لكنه خاف أن يخسرها نهائيا خصوصا و أنه يعرف أنها حقودة و لا تتسامح مع من يلعب بها.

و هو واقف في الباحة يقلب خيالاته بأشكال مختلفة، دهمته شابة، عندما التفت نحوها شعر بقوة النور تعمي بصره. في عينيها كانت تتراقص جنة مقهورة وعلامات مبهمة. يكاد جسدها يتعرى عن آخره على الرغم من البرد السامّ.

. عفوا، عمي صالح.

. هه. أنت كذلك تعرفينني؟ الدنيا مازالت بخير.

ـ شكون ما يعرفش عمي صالح؟ أنا ياقوته. أسكن هناك، في الطابق العلوي. أعمل في حوش الحاجة رقية و هي اللي سلفتني بالمناسبة للحاجة طيطما. مؤكد أنك تعرفها.

. الحاجة رقية؟ هاه؟ امرأة طيبة.

قالها صالح مسايرة مع أنه لم ير هذه الحاجة رقية في حياته أبدا. لا أصلها ولا فصلها. الطفلة بانت له جميلة فوق العادة و ظريقة. استخسر فيها المواخير.

غمزته ثم سارت، في يديها طبق الكاطو.

. عمي صالح. نشوفك. كي تحتاجني اسأل عني الحاجة رقية و إلا حتى الحاجة طيطما، هي تعرف مليح وين نكون.

مرة أخرى تأكد من أن وراء كل هذا الإهتمام أو هذا الإهمال من طرف طيطما، مسألة في غاية التعقيد. الكبدة. المشوي. الكاطو. الروج. و ملائكة الرحمن الضائعة وسط هذا القفر المقرف. لا لا. لا. هذه ضربة كبيرة تحضرها الحاجة مع أحد زبائنها الذي ليس حتما أنا.

« طيطما نعرفها مليح. فقد فتشتها ذرة ذرة. مكانش لله في سبيل الله. والو. امرأة تلعب في الصحيح. »

فجأة تذكر أنه رأى ورودا عند مدخل الدار، تتسلق الدرج بكامله حتى الطابق الأعلى. الحاجة طيطما، بقدر ما هي طيبة و قلبها واسع سعة هذه الهموم التي تأكلها، لا تقدم على عمل إلا إذا دققت في تفاصيله و اقتنعت بنجاحه. و حين تريد الوصول إلى شيء ما، لا تهمها الوسيلة، كانت أخلاقية أم غير أخلاقية. فهي تقول دائما بمرارة تظهر في عينيها الجميلتين:

« . خسرت كل شيء. و علاش الخوف يا خويا صويلح؟»

. عمي صالح. تعال. إرتح قليل عندي.

قالتها الجلالية و هي تمسح نظارتيها من ذرات البخار والضباب التي علقت بها. تقدم قليلا، ثم وقف.

. أدخل مالك خايف عمي صالح؟ لن أغتصبك، و لا يوجد عندي عرسان.

« . أوف. مثل أمها لسانها طويل. »

دخل حتى الركن. جلس على سداري كبير. التصقت عيناه بالحيطان و بالملصقات و الألوان. ياه؟ ذوقها يختلف عن ذوق أمها. الحاجة طيطما الهجالة، مرأة تقليدية على الرغم من إدارتها لأكبر بورديل في منطقة المغرب العربي. تزوق حجرتها بالزرابي التي تأتيها من سبدو ومن تلمسان، و بالأواني البيدرية التي تأتي بها من بلدة مسيردا. الجيلالية، شيء أخر تماما. الحائط مغطى بصور الممثلات و النساء العاريات، والرجال، و الأزواج الذين يمارسون الجنس في أشكال مختلفة. في

البداية اعتراه نوع من الحياء قبل أن يتآلف مع المكان. أحنى رأسه، لكن عينه اليمنى ظلت كعين ديك، عالقة بالصورة و بالأجساد النسوية المغرية.

. كيف أحوال ناس البلاد عمي صالح.

. بخير. حرس الحدود يقتل وهم يتوالدون كالنمل.

. إيه ذكرتني. البقية في حياتك عمي صالح.

. إيه يا بنتي... المسيردية كانت إمرأة و نصف.. أمك هنا؟

كان يريد إختصار الحديث، و الرجوع فورا إلى البلدة. فمسيردا جميلة و هي الوحيدة القادرة على إحتضان أحلام سكانها الضائعين و حماقاتهم..

. أخبرتها و ستأتي بعد قليل.

كانت الجيلالية منهمكة في نزع النظارتين. و في حل شعرها الكثيف، وفتح أزرار فستانها، و الصدارتين. فاض نهداها أمامها بقوة. بانت له الحلمتان الموردتان. شلحت كل ثيابها قبل أن تنزع التبان الأحمر الذي تعمقدت ثقوبه، حتى أصبحت كرة ملتهبة من الرغبة. لاحظ أن زغب عانتها قد نزع و كل جسدها يبدو ناعما و مهيئا للحماقات الضامرة.

ظل صالح يحاول جاهدا أن يكم رغبته و أشواقه. امتعض لحالة ضعفه التي بدأت تكبر فيه. حاول أن يضغط على أعصابه. تساءل؟ يا لطيف؟ هل هي تستفزه أم هي حركة عادية جدا من هذه المخلوقة العجيبة؟ استقر على الرأي الثاني. استمر في شد أعصابه. فهي قادرة على تفجير الرأس بالرغبة المحروقة. حاول أن يشيح بوجهه عن جسدها و ثدييها النافرين، و لكنه لم يستطع.صدرها العريض، رحبة خيالة. شعرها يكاد يغطي مؤخرتها.

« . أوف. هذه المرأة لبوءة، يحتاج الواحد معها إلى أعصاب من حديد. »

فتحت الخزانة. شرعت بابيها جيدا. أخرجت فستانا برتقالي اللون. أحنت ظهرها لألتقاط الفولار الذي سقط منها. كل حركاتها كانت مدروسة. كانت تستفزه؟ ربما؟ أو ربما كانت بكل بساطة تغير ثيابها و تناست وجوده نهائيا؟ شعر صالح بنفسه داخل أجواء لم تكن له. و هذه الجنية الساحرة المسحورة لا تهتم أبدا بشعوره.

« آه يا مرعي يا يماك لو كان تعرف و لكنك لا تعرف الشيء الكثير عن النساء. أيها الطفل الهلالي الولهان العاشق. الدنيا صعبة يا صاحبي. هز روحك و بركاك من الرقاد. »

عينا الجيلالية بندقية لا ترحمان. فسعدى التي فتح دياب ثدييها بسيفه لم تكن غبية. أحبتك أنتض و لم تحب غيرك. تعرت بكامل طولها و عرضها على شرف وجهك الطفولي. لم تقل شيئا، و لكنك كنت كل ليلة تحترق كالقشة على صدرها. آه يا مرعي يا طفل الهلاليين. لماذا لا تكسر قيود الزناتي خليفة و تعوم بحرية في قلب سعدى النابض بدفء مياه الوديان، التي منحتك الروح و الجسد. لمسة من أصابعك يا وليد البوادي الجائعة و تنتهي سعدى بين ذراعيك كالفراشة. لكن يا ربي سيدي صعبة. وحق محمد صعبة. الأم؟ ثم البنت؟ هناك حد أدنى من القيم؟ لا يا مرعي، أنت فوق الرغبة المشوهة. لست سورا هشا، محشوا بالروث و التبن. فكبرياؤك فوق الأشياء التي تخثر الدم، و تثير لزوجة الأعصاب.

وضع صالح رأسه بين يديه ثم تململ في مكانه، و عيناه تلحسان جسدها من أقصى الرقبة حتى أخمص القدمين. مر بدماغه المنهك أن يقبلها على ظهرها ويضعها تحت رحمته و يتدفأ بجسدها حتى ينتفي الروماتيزم الذي سكن عظامه. أن يصفعها حتى تتردد الصفعة بين هذه الحيطان المخرمة؟ أن يرغمها على الأقل على احترامه و أن لا تتعرى بهذه الطريقة الاستفزازية؟

أوف يا صالح بن عامر الزوفري، هل احترمت نفسك حتى يحترمك الآخرون؟ أنت نفسك لم ترحم شيخوختك. ما الذي جاء بك إلى هذه المخلوقة المحروقة؟ إلى هذا البورديل الذي صار فيه كل القحاب حجاجا؟ ألم تكن علاقتك بطيطما وثيقة، للحد الذي دفع بك إلى نسيان رائحة الحناء و تربة البلدة في شعر مسيردية؟ ما الذي جد في هذه العلاقة لتتركك معلقا هكذا، تحت رحمة الجيلالية؟ شيء ما يسير عكس العادة. أو... ربما صرتَ مريضا بهذه الأمكنة؟

« . أنا لست مريضا. الجوع أوسخ من أن يرحم شيخوختي؟ »

نفذت إلى أنفه لفحة باردة تسربت من جسد الجيلالية. في اللحظة ذاتها، دخلت طيطما تجر وراءها ثيابا بيضاء ثقيلة، تتصنع طفولة غابت بين تجاعيد وجهها.

كانت تحاول جاهدة أن تختصر سنواتها العجاف: أحمر الشفاه. الشعر المسدل على صدرها في شكل ضفيرتين صغيرتين و الوجه الذي غطاه الماكياج فغابت كل تفاصيله المرهقة و حلت محلها نسمات وهمية من الشباب. تذكر صالح أن المسيردية كانت تفعل ذلك. كلما اشتهته، ضفرت شعرها و تعطرت بقشور الرمان و ماء الزهر و ملأت فمها بعود النوار و شهد العسل.

الحاجة طيطما عندما ضحكت و تلألأ طاقم أسنانها الجديد، شعر صالح بأن زمن هذه المرأة بالفعل كان بصدد الموت و النهاية.

. مبروك عليك هذا الطاقم. زاد فيك النص.

كان يكذب و كان يدرك ذلك.

. يكثر خيرك. أهلا بصويلح. عاش اللي شافك.

لاحظ أنها في هذه المرة لم تعطه خذيها و جبهتها و لكنها على غير العادة، مدت له يدها من بعيدا. حيته ثم جلست.

. غيبة يا صويلح، خير إن شاء الله؟

. خير. يا أختي هم الدنيا بنت الكلب.

. حزنت كثيرا يوم سمعت بوفاة...

لم يتركها تتم. هز رأسه مشعرا إياها بأنه فهم البقية.

. الله يعطيك الصبر و القوة على مواجهة قسوة الدنيا.

مدت أصبعها الأصغر إلى فمها، تؤنب نفسها بحرج مفتعل.

. تعرف يا صالح الخدمة كثرت هذه الأيام. منذ أن بدأ مصنع السونليك _يشتغل، تكاثر الزبائن، و غادرت بنات كثيرات كنت أشغلهن في حوشي و اخترن العمل الشاق في المصنع. ربما كن على حق. حياة البوردل ليست حياة أبدا. و الكثيرات منهن يردن حياة عائلية أكثر دفءا و أطفالا.

. يا لالة طيطما؟ هذه الصنعة صعبة و قل من يصبر لتعبها.

. قل لي، كيف أحوال حكاية السد؟

. ما يزال كلاما في كلام.

. و الكهرباء؟ دخلت القرية أم ما زلتم في الظلمة؟

. كلش جاهز. و باش يطلقوا موتور الضوء ما طلقوش. اللي منورة الدنيا عليه ما يفكر في اللي عايش في الظلام.

. عندك حق.

أراد أن يسألها عن سر هذه التحركات غير العادية التي لم يألفها من قبل ولكن طيطما كانت قد خرجت لتنهمك مع هرج و مرج الخادمات و تعطي الأوامر الصارمة.

ـ سيأتي بعد ربع ساعة و مازالت الفوضى؟ بسرعة شوية. الكومندار يا يما مش من والى.

هذه المرة تأكد أنه ليس هو المقصود بهذه الضجة التي تحدث في حوش الحاجة طيطما، على غير العادة. عرف بحاسته الفلاحية أن عليه أن يسرع في الخروج و إخلاء المكان حتى لا يحرج طيطما أمام الكومندار الذي يمكن أن يطب عليها في أية لحظة. نظر إليها. كان ظلها مرتسما عند الباب، ليس بعيدا عن ابنتها التي كانت تختار أشد الفساتين جاذبية وأكثر التبابين إغراء. في لحظة ما استطاع أن يرى تفاصيل الجسد بكاملها، شعر بالاحتراق يجتاحه كالنار الحارقة. نهض من مكانه و توجه نحو الباب حيث طيطما لم تتوقف عن إصدار الأوامر كحاكم عسكري.

. العسكر دخلوا البلاد با الحاجة؟ كه... كه...

ـ واش ربحنا مع السفيل_؟ يا صويلح، إذا لم أفعل هكذا، لن أنتهي من توضيب المائدة. البنات ثقيلات.

. و الكومندار؟

ـ مثل هذه الأشياء لا تخيأ. سأتزوجه. أنا من جهة و هو من جهة نتغلب على قسوة الحياة. تعبت. البورديل أكل حياتي و صحتي. الكومندار عسكري متقاعد. طيب القلب. وعدني بالقدوم اليوم و لا أريد أن أخسر هذا الموعد. مع الرجال اللحظة الأولى دائما حاسمة.

. متى يأتي؟

بعد قليل. الساعة تقترب. نتغذى و ننام قليلا. عندما يرتاح جيدا نرحل إلى العاصمة و إذا كان رجلا سأخدمه بقية عمري. أتمنى قبل أن أغمض عيني أن

أشعر بالأمومة، و لو لمرة واحدة في حياتي. تعبت يا صويلح. كرهت. زوجي تركني مبكرا. كان من الجيل الأول الذي أكلته الغربة. ذهب إلى فرنسا و لم يعد. هاه. نسيت أقول لك بأن الكومندار عنده سيارة مرسيديس جميلة، استلمها من الحزب كهدية على تفانيه من أجل الوطن و الصالح العام. سنخرج كل سنة إلى الخارج. هكذا وعدني.عنده أموال كثيرة سنستثمرها في بناء مركب سياحي في العاصمة، إذا وفت الحكومة بوعدها وساعدته.

. اطمئني. ستفي الحكومة بوعدها. يقولون أنهم بدأوا يعيدون الاعتبار للمجاهدين القدماء.

ـ فمك لربي يا صويلح. الكومندار صفحته بيضاء في الثورة. يعرفه الصغير و الكبير.

« . إيه؟ لوكان رقبوا، لو كان ندبوا. حتى اللي كان يصلح شوهوه. »

تنهد صالح بعمق.

التفتت الحاجة طيطما نحو البنات الواقفات في الباحة.

ـ هل انتهى كل شيء؟ لم تبق إلا عشر دقائق. مواعيده مضبوطة، تعلمها وقت الحرب.

. خلاص يا يما طيطما. المائدة جاهزة و الفراش كذلك.

. باستطاعتك الصعود إلى غرفتك يا ياقوته، إن شاء الله نردها لك و للحاجة رقية في الخير. روحي. اليوم الأحد و الزبائن كثر. وحدة مثلك لن ترتاح.

. ربي يخليك يا يما طيطما.

و قبل أن تصعد ياقوته اقتربت من صالح و همست في أدنه بشهوة وإغراء:

. أنا أسكن اليوم هنا، في الطابق العلوي. هناك، يا بابا صالح. و غدا سأعود إلى حوش الحاجة رقية.

انتبهت لها طيطما. غمزتها بسخرية و استفزاز:

. روحي. روحي لشغلك، عمك صالح شاخ... عينه اليوم على الجيلالية، فيها بنة أمها.

و قبل أن تنهي كلامها، كانت ياقوته قد قطعت سلم الدرج و لم يعد صالح يسمع إلا وقع قبقابها الخشبي الذي ترددت أصداؤه في باحة الدار. نظرت طيطما صوب ابنتها التي كانت ما تزال منهمكة في تسريح شعرها.

. هزي روحك يا بنت. الوقت لا يرحم.

لاحظ أنها تغيرت كثيرا. لم تدعه إلى حجرتها كالعادة. لم تقل له، يا صويلح يا وجه الهم أرتح قليلا. أنت تعبان. إقلع حذاءك. أنت جاي من بعيد يا صويلح. تمدد قليلا. البرد في الخارج قاتل. و تقول لابنتها: يا بنت! اشعلي الموقد. سخني رجلين عمك صالح. انزع ثيابك فهي مبللة ثم تنزلق معه في الفراش و هي تهمس في إذنه: دعني أفعل. اللحم مع اللحم يسخن بسرعة. كيف أنت؟ كيف أهل البلاد؟ تعال... مد يديك... أنا وحيدة و أنت بعيد، واش يصبرني عليك يا صولح؟

هذه المرة ظلت منشغلة بشيء آخر، أكثر أهمية و ربما لم يعد له مكان في هذا الحوش الذي تعود ارتياده كلما زار سيدي بلعباس.

سمع صوتها من جديد الذي ظل يردد نفس الجملة التي حفظها عن ظهر قلب:

ـ يا بنت لم تبق إلا عشر دقائق على وصول الكومندار. بالأكثر، ربع ساعة. إسرعي اشعلي المدفأة. مواعيده مضبوطة.

لاحظ أنها لم تسأله عن البضاعة التي يحملها معه. لم تجر إلى السلعة كعادتها، و تفرفطها على الأرض و تختار ما تحتفظ به لنفسها و ما يجب بيعه وتتقاسم معه الغلة في الأسابيع التي تلي حين يعود لها و يقضي معها الليل بكامله. يتحاسبان. يتقلبان. يلوكان السواك و عود النوار. يستمعان إلى الشيخة الرميتي:

أنا و حبيبي

صدره على قلبي

بايتين قلبه بقلبه.

و تتحول الحاجة طيطما إلى طفلة في العشرين من عمرها، حارة و ملتهبة كالنار الفارسية. صالح يتعب و تظل هي مشتعلة.

انتبه مرة أخرى إلى أن وجوده مع طيطما تحديدا،لم يعد مرغوبا فيه و هي تفضل أن لا يعرفه الكومندار. حاول أن يجد لها كل المبررات التي تجعله يغفر لها تصرفها معه.

« . المرأة مصممة على الخروج من هذا العفن و هذا حقها الطبيعي. عمرها كلها أكلته البرودة و الروائح الكريهة، ورطوبة هذه الديار. تخاف كجميع خلق الله، أن تختنق داخل هذه البالوعة. هي تعرف جيدا ماذا يعني تسيير مؤسسة كبورديل سيدي بلعباس الذي تقول عنه بعض الألسنة إنه الأكبر في المغرب العربي. »

. يا الحاجه أنا...

فطنتها مدهشة و حاستها العميقة تشبه حاسة حيوان خلوي.

. أعرف يا صويلح. كل شيء يقرأ في عينيك المتعبتين. ما نسيتكش لأني ما شفت منك سوى الخير.

فتحت كفها و أصابعها المنكمشة.

. هاذو دراهمك. أريد أن أصفي ذمتي قبل أن أذهب إلى العاصمة. يكثر خيرك يا صالح خويا. الليلة أنت ضيف عندي بصح بلا ما يعرف الكومندار عن علاقتنا. غيور. شوف المرأة اللي تحب و بات عندها. أنا تعبت من هذا البورديل ومهنة التهريب. شوف مع الجيلالية إذا حبيت، هي تموت عليك. طيبة وشاطرة. تفرحك في الفراش خير مني. حكيت لها عنك كثرا. أنا خلاص يا خويا، تبت. و إلا شوف...

لم تتم كلامها. ثم رفعت رأسها نحو الطابق الأعلى حيث كانت ياقوتة تطل من فوق بعد أن ودعت الزبون الثاني.

ثم صفقت بكلتا يديها.

. أنت كبير يا صالح و رزين و قادر تفهمني.

الآن بدأ يدرك لماذا أدخلته الجيلالية إلى حجرتها و لماذا استقبلته بحرارة زائدة و استفزته بعينيها و بجمال جسدها الغض الذي ما يزال بكرا كالخلجان. الجيلالية لم تكن مجنونة و لكنها كانت تتدرب لأخذ مكان أمها و هو الذي كان يظنها مجرد بلهاء.

. سأقيم في العاصمة مع القاقم_. مللت مذلة فلاج اللفت. مع احترامي لأولياء الله الصالحين.

. و بناتك يا الحاجة؟ كلهم يحبوك؟

ـ سأترك لهن الحوش بكامله. سيسيره الكومندار سرية بمساعدة الحاجة رقية. يقيلوني في رأسي وخلاص. يخلوني نعيش حياتي. عييت.

ثم نظرت إلى الساعة.

. الجيلالية. بسرعة. راكي تولدي البيض؟

في اللحظة نفسها، تحرك صالح بدوره.

. الحاجة. ابقي على خير. الله يكمل. حتى أنا كرهت من رب هذه المهنة القذرة.

. يرحم والديك يا صويلح. و فمك لربي يا خويا.

. سفرة سعيدة للعاصمة.

. لكل المؤمنين إن شاء الله.

و قبل أن يسمع كلمة شكرها الأخيرة، انزلق بسرعة نحو الدرج. نادته الجيلالية من فوق.

. عمي صالح. عمي صالح. وين رايح بهذه السرعة.

لم يلتفت. بدت له مسيردا جميلة على غير عادتها. رن في أذنيه كلام طيطما و هو عند الباب:

. اتركيه يا الجيلالية. اتركيه يا بنتي. قلبه كبير. سيعود لك حتما ذات يوم. صالح ما يصبرش على الصدر الحنين.

عندما التفت للمرة الأخيرة، لم يلمح الجيلالية و لكنه رأى ياقوتة و هي تبتسم و تخبئ قليلا خيبتها هذه المرة. سمع صوتها يأتيه من بعد سحيق:

« . عمي صالح ربي معك. كي تجي لسيدي بلعباس اضرب دورة من جهتي في حوش الحاجة رقية.

. معوضة إن شاء الله. »

إنطلق مباشرة إلى رحبة الكار. كانت الأمطار قد عادت إلى التساقط من جديد. بصعوبة كبيرة، استطاع أن يحصل على مكان للعودة وسط الأمواج البشرية. مسافرون. تجار. بسطاء من البلدة. سيدي بلعباس يقصدها القاضي والداني.

و هو بداخل الحافلة مرت برأسه كل الوجوه التي رآها. وجه طيطما الذي بدا طفوليا، بالرغم من التجاعيد و النتوءات التي فشلت المساحيق في تغطيتها. جسم ابنتها الغض الناعم الذي نُزع كل شعره و زغبه. وجه ياقوته الصبياني الذي كان يشتعل رغبة. و بورديل الحاجة طيطما، هذه المؤسسة الضخمة التي تغطي النقص الكبير في العواطف، المصابة به البلاد. يستقبل أيام الآحاد حشود عمال السونليك و عمال مصنع السفيزف للسكر الذين توافدوا على هذا المكان من مختلف مناطق البلاد بحثا عن عمل. تخيل الحركة التي تملأ الحوش في مثل هذا الوقت. الحركة المثيرة للانتباه. الكومندار المتقاعد الذي تخيله بشاربين طويلين و رأس مدور أصلع كالبطيخة، و نياشين كثيرة تنام على صدره بدا له و هو في الحافلة، فأرا أجرب و صغيرا. العاصمة تبهدل خلق الله، هكذا يقول الذين تابوا عن تلك المدينة. الأمطار الثقيلة التي كانت خيطا من السماء. لا شيء يضاهي مسيردا الجميلة.

« . هذه هي الحياة، شي طالع... شي نازل و شي الفوق.. شي تحت. الله يلعنها صنعة تذل صاحبها. »

غفا قليلا كالقط الذي أستشعر الدفء فجأة. أنفاس الركاب المكتظين فوق بعضهم بعضا كانت كافية لتسخين الجو الصقيعي، والبرودة المنبعثة من الكراسي الجلدية. كان صالح تعبا و مرهقا حتى العظم. لم يفتح عينيه إلا عندما صاح السائق:

. مغنية. وصلنا إلى مغنية يا اللي يحب ينزل.

وفطنه أكثر حديث شخصين بدا له صوتهما مألوفا جدا. التفت، بعد أن ربت أحدهما على كتفيه. مسح عينيه.

. قم يا الراقد أنت في الحاجة مغنية.

. لا يمكن أن يكون هذا الصوت إلا لك يا موح. خمنت أنكما أنتما. موح الكتاتبي والطويل. كيف الأحوال؟

. نحمده. كيف جاتك سيدي بلعباس؟

. باهية و لازم لها المال.

. هل سمعت بأخبار هذا الصباح عمي الصالح؟

. يامنة. لا حول و لا قوة إلا بالله، كل شيء يتخبى،سوى الموت اللي ما يتخباش.

. أكثر من هذا. يقولون حتى العربي انضرب على الحدود.

. يا وخضي؟ يمكن راكم غالطين. البراح ذكر عبد الله ولد يامنه؟

. يقولون و الله أعلم، حتى العربي أصيب في ظهره.

. يا ربي تحفظ؟

قالها صالح بألم و هو لا يصدق ما سمعه. ثم التفت و عاد إلى وضعه الأول. أحنى رأسه و غرق في لجة الحيرة.

. على ربي يكون الجرح بسيطا.

. على الله.

« و إذا كان الجرح... لا. لا. مش هكذا يا العربي، يا وليد الأحزان ومسيردا الجائعة. العربي يا وليد رومل و الأعياد ورؤوس الكلاب. »

حك جبهته العريضة. أغمض عينيه. عض على شفته السفلى. حاول أن ينسى كل الأشياء و الروائح و الكائنات التي تحيط به. حتى نفسه و لكنه لم يستطع. كان قلبه مهزوما، طائرا كسرت الريح أجنحته الملونة. لم يكن يسمع دقا و لكنه كان يسمع آلاما و أشواقا و حنينا داميا و مبتورا.

آه يا العربي... و شحال من عربي

خذاته الحمله ...

غن يا صالح. في هذه الدنيا الموحشة لم يبق أمام الممحون و المنسي إلا الغناء و إلا مات مختنقا بروائح الجثث المتفسخة التي تحيط به من كل الجهات. غن يا صويلح. غن يا وليد مسيردا الطيب. غن و غدوا يفرج ربي.

-5-

أوف. المـوت و الغبينــة و الأيــام السـوداء. الحيــاة. المواليـد الـذين لا يولـدون، يتفسخون داخل الأرحام و لا ينزلون.

تفو. تفو.

إلعن الشيطان يا صالح. إلعنه و أنظر إلى البعيد يا وليدي. الطيبة لا تكفي في عالم كله شراسة و قسوة. الدنيا صعبة. قالها رجال البلاد الأوائل قبل أن تأكلهم الحروب والمصاعب اليومية. صعبة كهذه الكلاب التي تنبح صبحا و مساء. أن تكون يا صويلح يا النملة أو لا تكون؟ إنها قاسية و يجب أن تعاش حتى العظم. و إذا حاولت أن تنطح الحياة بغباء، تكسر رأسك وإنفلقت عظامك قبل أن يخربها دبوس دياب الزغبي الذي لم تعد ترى عيناه إلا كرسي السلطان و نساء بني هلال الجميلات. لذة السلطان صعبة و قاسية.

. العربي كان قويا. لكن الموت كان أشطر منه.

شعر بالبرد ينفذ إلى جسمه كالإبر الحادة.عدل من برنوسه بهدوء. وضع القلمونة على رأسه ثم راح يتأمل سقف الكار الذي بدأ يتخرم. عمر الحافلة نصف قرن على الأقل. حتى أبوابها أصبحت تجد صعوبة في الإنسداد التام و في صد صقيع الشتاء القاسي الذي يتسرب عبر الفجوات الذي أحدثها تآكل الجلد. الصوت الذي المنبعث كأنه صرخات آلام حادة تنتاب الأبواب الأمامية كلما انغلقت أو انفتحت.

متعبة أيام الشتاءات القاسية التي لا ترحم أبدا. منذ أن ظهرت الحافلة في امسيردا و الناس يركبونها أولا لرخصها ثم أنها أفضل من زنة أصحاب التاكسيات و تكبرهم. أحيانا تتأخر، مصف ساعة، ساعة أو ساعتين، لا يهم. البرد لا يرحم و لكن الناس يقومون باكرا و ينتظرونها حتى تأتي و لا يهم وقت وصولها المهم أن يجدوا مكانا و يركبون. بين السكان و كار امسيردا ألفة كبيرة و محبة غير عادية.

« هذا كاري و كارك يا العربي خويا، عندما نعول على غزو حجور سيدي بلعباس ووهران. هذه المرة فضلتَ الذهاب إلى وهران لوحدك ربما لأنك كبرت و لم تعد قادرا على غوايات سيدي بلعباس. تعرف جيدا عاداتي، عندما ندخل المدينة تذهب أنت عند أصدقاء والدك و لا ترافقني إلى حوش المرأة التي باعتني بسبب قزم اسمه الكومندار. »

هكذا نأتي، صغارا... حفاة... عراة... جياعا... و بعدها نضطر إلى العودة القصوى التي لا نتخيلها حتى و نحن نقدم على إرتكاب المعاصي جريا وراء قطعة خبز معلقة على رأس رصاصة لا تخطئ هدفها. لا تتاح لنا يا العربي وليدي، حتى فرصة توديع أطفالنا. من السماء للسماء، فجأة؟ كنا و لم نكن.

« كح. كح. كح. »

إنتابته نوبة سعال حادة.

من ورائه، كان يصله شخير الطويل و موح الكتاتبي متقطعا مصحوبا بأنات متتالية و عميقة. بان له وجه العربي صافيا كالنور أو كقطعة بللور مثل التي رآها تتدلى في البهو الرئيسي لحوش الحاجة طيطما، ثم أزرق و باردا مثل وجه ميت تألم كثيرا قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. هي نفس الزرقة، زرقة اليأس التي اعلته يوم اعترض طريقهما النمس و حرمه من حنان الأبوة و من فرصة إنقاذ المسيردية. لو كان معها لما حدث الذي حدث؟

لم يكن الليل مريحا يومها. كانت الغيوم تراود عيون القمر الذي يطل من حين لآخر بخجل من وراء الستارة الثقيلة و كنت معتليا الأزرق.كان العربي بجانبي يركب بغلتهم الثقيلة، تشبه في خشونتها حمارا ضخما. فاجأني بسؤال غريب، خارج سياق الحديث الذي كان بيننا:

. عمي صالح، ألا تخشى الموت؟

ـ شكون ما يخافش من الموت يا العربي وليدي؟ صحيح أني أحب الحياة، لكن الموت واجب. لا نفكر فيه و النهار اللي يجي خلّه يجي.

كان يعرف جيدا أني فهمت التفاصيل التي يريد أن يعنيها. بان لي يومها في كلامه شيء من الفضول، و الصدق الطفولي. الطفولة؟ هذا اللي بقي في فراغ أنفسنا

بعدما خسرنا كل شيء. و حين نخسر هذه الطفولة النقية سنتحول حتما إلى كائنات جافة و ربما إلى دواب، تأكل و تشرب و تتأفف و تحترم أوقات التغوط التبول و المرض و الموت و هي حاسبة روحها رافدة السماء على رأسها. تكذب و تتحدث عن القيم و تربط شجرتها بالعائلات العربية الكريمة و هي مثل الذئاب تقتنص اللذة و تتعاطى الجنس خارج النظم و في كل الأوقات. النفاق صار احترافا في هذه البلاد التي تأمر بالشيء و تأتي بعكسه.

. قصدي، ما رأيك لو يفاجئنا كلب من كلاب الحرس الليلي؟

ـ أنا أعرف نهايتي جيدا. إذا لم تثقب دماغي رصاصة طائشة، مت في براكتي كخروبة يابسة.

. البركة في أيامك الباقية عمي صالح.

ـ الدنيا مقلوبة يا العربي يا وليدي. الطفولة أكلها الفقر، الشباب سحقته الحروب الفائتة، و هاهي ذي الشيخوخة تهزم تحت ضغط الأمراض المعدية و أصوات الرصاص الليلية و الحاجة. الحاجة الضاغطة التي تبهدلنا يوميا.

. أنا جبان يا عمي صالح. أشعر أحيانا بالخوف من الموت. أقول لنفسي دائما، الحياة شيء آخر و ليست تلك التي نعيشها و لا أريد أن أموت بدون رؤية ذلك الشيء الآخر.

ـ طبيعي يا العربي. حورية بنت بوعلام الزكري؟ جنة. عمك صالح يعرف كل شيء و يضرب النح. صغيرة لكنها ممو العين. عندك حق، امرأة مثل حورية تدفعنا إلى حب الحياة و التشبث بها.

ـ الفقر قتلنا يا عمي صالح. خمس سنوات و أنا أهرب علني أدخر قرشين و أتزوج لكن؟ كما ترى. لا شيء تغير.

. هذه المهنة لا تربح منها شيئا إلا إذا تحولت إلى سبابيبي آخر. الكيف. الشراب. النذالة. و ربط الخيوط مع ناس وهران و العاصمة و التشدق بالقيم و الأخلاق.

ـ أفكر بالفعل بالتوقف نهائيا و عمل شيء آخر. أي شيء ما عدا هذا الموت الأعمى.

. صعوبة هذا العمل أن الربح الوهمي فيه مغر.

. ماذا تربح يا عمي صالح من بيع الكتان و الزعفران والمحيرقات_ و زد و زد. و مع ذلك، أنت في عين القانون الأعمى لا تختلف أبدا عن السبايبي. ربما كان أكثر حظا منك لأن له من يسنده. القانون مع الواقف يا عمي صالح.

. هنا ضربت الحديد في الصحّ. أعرف أننا نخسر أكثر مما نربح. لكن الأهم من هذا كله، هو أننا لم نتشوه بعد. ما يزال فينا ذلك المعدن الصافي الذي ورثناه من نقاوة هذه الوديان و هذه الجبال التي لم تحن رأسها لأحد. حتى يفرج ربي و يتوفر العمل في هذه البلدة. و سيتوفر حتما.

يذكرني العربي بطفولتي الجائعة التي احترقت في الأحياء الشعبية، و وراء البقرات، و على قمم جبال عين البقرة، و القرارة وزندل و الكوانين بمسيردا. الجوع و الحاجة التي لا ترحم و الأرض التي ماتت على البذرة و خنقتها في أحشائها. أجد في العربي نفس الحماس و نفس الإصرار على الحياة. بل و نفس الخوف من قادم لم نعد نعرف تفاصيله و ملامحه و نفس الحلم المقتول و الرغبات الملتهبة التي كثيرا ما تكون الحمارة أو البقرة أو النعجة أو الكلبة العجوز أو البغلة أول من يستقبلها. الجنس مع الدواب الهرمة التي لا تردس و لا تعض، لا يكلف أية تبعة. آه يا العربي يا وليدي، لو تكلمت الحيوانات ماذا فعلنا فيها، لفضحتنا و لمشينا جميعا مطأطئي الرؤوس. يا لطيف؟ كل شيء نلمسه في هذه البلاد يدفع بنا نحو التهلكة.

. آه. يا عمي صالح لو تدري؟

ضحك العربي بحرقة.

كانت الكلفة المفتعلة قد زالت بيننا. داخل هذه البلدة لا توجد كلفة بين رجلين. فالحياة الشاقة التي يعيشها هؤلاء الخلق متعبة و قادرة على حرق كل حواجز الأخلاق الموروثة.

. لو تدري يا بابا صالح؟.

. افصح يا أخي. أنا متأكد من أنك مثلي، لا تخبئ سرك.

ـ أبي. رومل. فاجأني ذات ليلة بعدما عدت من الحرث ملتصقا وراء البغلة. تصور ماذا قال؟

. بأنه كان يمارس نفس الشيء عندما كان في سنك. رومل. يعملها و يعمل أكثر منها.

ـ نظر إلي بعينين قاطعتين حتى تجمدت في مكاني ثم ذهب و لم يقل شيئا و لكني عرفت من عينيه أنه فهم الشيء الكثير.

. و أنهيت فعلتك النكراء يا حلوف؟

. عدت إلى البيت وضعني بين خيارين، أختار أنا البنت التي أريد أو يزوجني هو على مزاجه؟

. قلت بدون تردد: حورية بنت عمي بوعلام الزكري.

. كل هذه الشجاعة أمام رومل؟

. قلتها يا عمي صالح. وراس عودك قلتها بدون تردد.

ـ فحل مثل أبيك. عفريت. كان جميلا و مشتهى. نام مع نساء كثيرات : الإفريقيات. الألمانيات. الفرنسيات. و للصراحة كان يعشق الفرنسيات أكثر لغرض في نفسه، وحده كان يعرفه.

. هذه الدنيا يا عمي صالح، القلب مليان و عيان. الله غالب.

ثم نظر إليَّ بعينين طفوليتين، هادئتين. شعرت به يحترق من الداخل كقشة يابسة. ثم غير الحديث باتجاهي. كان يريد أن يدخل التفاصيل التي كانت تتآكل في أعماقي.

. آه يا بابا صالح. عينك على لونجا. الذين يريدونها كثر. شابة و حلوة و ألف من يتمناها. الكثيرون يقولون عنها أنها ما تزال بكرا لأن الإمام كان حاويا و ما يقدرلهاش.

. خلِّنا من لونجا، مش هذا وقتها.

. يا بابا صالح رانا نقصر و نمضي الوقت. إسمع هذه. أعطيني وذنك.

آ نارك. آبو نارين،

آي نارك ما تطفاش.

آ لسمر كحل العين،

آي قطع خبرك ما جاش...

رفع العربي عقيرته عاليا. في صوته بحة و حنان كبيرين. لم تعد، في تلك اللحظة بالذات، تهمنا أصوات الجمارك وهي تصيح. كانت الفضاءات رحبة و توهمنا أننا يمكن أن نزوغ لهم كما تعودنا أن نفعل.

« ـ قف... أوقف يا دين يماك و إلا نطلق النار؟ عندك. أوقف. خطوة وحدة و نرحيك. يلعن طيز أمك يا ولد القحبة... أوقف يا قزاد... مل تسمعش؟ »

قف؟ لا تقف. إجر يا العربي قل ما جريت، فقد تحول الليل المخيف إلى لحظة مجنونة لا تقهرها هذه الأصوات المخيفة. لحظة كأننا كنا نعبث مع الأقدار. تحولت الأتربة التي نمشي عليها إلى ذرات دقيقة، معلقة في الفضاءات الواسعة. و تحولت الأحصنة، و الذئاب، و الخلاء، و الديكة التي لوى أعناقها برد الشتاء، إلى مخلوقات مساندة لنا. فقد صمتت فجأة و استكانت نهائيا. نطأ عليها و لا تصرخ. و لم نتوقف أبدا. لم نشعر بآلام الأرجل التي كانت تتمزق بعنف. و كنت صغيرا يا العربي على هذا الهم. في قلبك حورية بنت السي أحمد الزكري و أغانيك التي تملأك دفءا و و حنانا و نشوى. جمال صوتك لا يقاوم. يعطي لهذه المخلوقات التي جمدها برد الشتاء غبطة و حياة و مبرر السمو فوق تفاهاتنا اليومية التي يقتلها التكرار. غن يا العربي يا وليدي، لم يبق لنا إلا الغناء قبل أن ترانا فتحة بندقية و تتوجه إلينا بحممها القاتلة و ننتهي تحت حوافر أبناء الكلب.غن. فغدا ربما سقطنا في خلاء مقفر كحيوانات برية ضائعة و لن تجد جثثنا حتى من يدفنها، إلا بعد أن تتفسخ و تحتل بؤرها الديدان البيضاء، والصفراء، و الخضراء. غن يا حبيبي، عن حورية التي حرقت قلبك و احتلت ذاكرتك، غن عن الدنيا التي ليست إلا للقوي في هذه البلاد، عن امسيردا الجميلة، عن رؤوس الكلاب التي أتاكم بها رومل صباح أحد الأعياد و أوهمكم أنها لأكباش حولية، غن عن جوعك يا العربي، فشبابك ما يزال عوده أخضر. عندما كنتُ في سنك يا وليدي كان الغناء لا يبرح فمي، حتى أسماني ناس الحي: الشيخ صالح بن عامر الزوفري. حفظت أغاني الرميتي الغليزانية. كانت هذه المرأة الغريبة تذيب كل الأشياء المتكلسة في أعماقي. لم يضع مني عرس أحيتْه في المنطقة. و الشيخة العمياء. والشيخة حبيبة العباسية. و الشيخ بن عبد الله المروكي. و حمادة. حمادة الله يرحمه و يوسع عليه عرفته عن قرب. كان سيد القبلي.

إرتفع صوته أكثر مع إبتسامة جميلة أطلت بخجل. لمعت إحدى أسنانه المذهبة تحت ضوء القمر الذي خرج بصعوبة من تحت الغيوم المثقلة بالسواد:

آقولوا لخليلي، إذا مشيت بالليل،

ما بقي لي ليل، نشوف فيه لخليل...

سلكنا من صرخات حرس الحدود أو كدنا. مر الليل باردا و لكنه كان جميلا. كانت الطرق السرية والوديان التي قطعناها كلها سالكة ما عدا المنعطف الخفي الذي كدنا أن نقع في الكمين الذي نصبوه لنا فيه. مع من طاحوا؟ اللي قراه الذيب، حفظه السلوقي. و مع الفجر الأول طلت قرية بني دار بتربتها الحمراء وبناياتها الواطئة الفقيرة. قضينا اليوم بكامله هناك، وراء الحدود. اشترينا الأقمشة والزعفران، و المحيرقا للأعراس. تغذينا في أحد الأسواق الشعبية بالكباب والبصل المشوي على الجمر و الحريرة. و في الليل عدنا محملين بغنائم بني هلال. لكن لعبة التهريب كانت أكبر منا و من طاقتنا. الكلاب طمعوهم و علموا الحرس الحدودي كل الممارسات السخيفة. حتى أصحاب الحوانيت لم يعودوا يقبلون منا العملة الوطنية بعدما صارت لا تساوي أذن كلب. اللهطة_ دخلت أمعاء الحوانتية. أصبحوا يطلبون القهوة، والزيت، و السميدا، و دخان الشَّعْرة و الأغنام مقابل السلعة. تصور يا العربي، أصبحنا الممول الطبيعي لهذه الجبهة من الحدود. بعض االتجار من سلالة الكلاب. كل من شموا فيه رائحة الخير، سلخوه.

لم تدم مسيرتنا بهذا الليل الجميل طويلا. كنا نظن أن المسلك صعب و لا يمكن لحراس الحدود أن يتفطنوا له. وجدنا صعوبة كبيرة في قطع الوادي الكبير. لقد بدا لنا متسعا على غير عادته و عميقا. نزلنا من على ظهور الدواب المرهقة. أرجلنا أتعبها الطمي، و الطوب و الوحل. الظلام غطى المسافة التي تفصل الوادي عن اليابسة. و بدأنا نمشي بتثاقل. صمت العربي و لم يعد يغني. مثل الحيوان، حاسته كانت مرهفة. عندما يصمت، هذا يعني أنه لم يعد مرتاحا و أنه يتوقع شيئا ما.

. بغلتك ثقيلة يا العربي. ساعدها قليلا. ادفع ادفعها قليلا و إلا سنقضي الليل كله هنا.

بمجهود خاص استطاع لزرق أن يمس اليابسة و يقطع الوادي بسلام، و وقف ينتظرنا على الحافة الأخرى، بينما كنت مع العربي، أدفع بكل قواي بغلته الثقيلة. كان منسوب المياه عاليا على غير ما توقعنا. استطعنا أن نخرج بصعوبة، و لكن ما كدنا نتنفس الصعداء، على الضفة الأخرى حتى سمعنا خرخشة صوت بندقية مصحوبة بنباح الكلاب و أمر صارم بعدم الحركة و تسليط الأضواء الكاشفة:

ـ ها. ها. بدون أية حركة يا السي الصالح. أمش قدامي و بكل هدوء ورزانة إذا أردت أن تحافظ على حياتك.

النمس يا لطيف؟ وحش الخلاء. لا يتوانى لحظة واحدة عن إطلاق النار. و قد فعلها كذا مرة. هو الوحيد الذي يتوقف لصياحه المهربون لأنهم يعرفون قبحه و حقده جيدا.

. أمامي كما انتم، إلى المخفر.

كنا نمشي صوب سيارة لاندروفر مطأطئي الرؤوس. في أيدينا لجام العود و مشد البغلة المحملين بالسلع المهربة. كان حراس الحدود و الجمارك يقهقهون من حالتنا و هندامنا المتسخ. ركبنا. أتعبنا شخير السيارة قبل أن تقلع. حين تلتصق عجلات لاندروفير بالتربة الطينية المبللة، يناديا السائق بأعلى صوته للنزول و تخليصها من الأوحال. وحين تخرج العجلات من دورات الوحل الفارغة، نطأطئ رؤوسنا و نركب من جديد.

بتنا في المخفر نرتعد من شدة البرد حتى ساعة متأخرة من الليل. نظر إلينا النمس بعيون شرسة و دموية كعيني غراب.

. الليلة ليلتكم يا أولاد الحرام؟

ـ حتى المحكوم عليه بالإعدام يعطى حق الأمنية الأخيرة في حياته. أعطونا بطانية للنوم. البرد قاتل.

ـ و هل تظنني خادمك يا السي صالح حتى تأمرني؟ ثمة يموت قاسي. أنتم اخترتم هذا الطريق، ستدفعون إذن ثمن اختياركم.

. لم نختر أي شيء يا النمس، هم اختاروا لنا.

. هذا الكلام خلِّه في دارك.

كان الجوع قد بدأ يخرم أمعاءنا.

. الصبر يا عمي صالح، مفتاح كل الرزايا.

. اللي يحيرني يا العربي يا وليدي أكثر هو أني تركت المسيردية لوحدها. تركتها مريضة ورائي و أخشى أن...

. لا أعتقد أنك أكثر خبرة في الوضع من المسيردية؟ لو أحست بشيء خاص لما تركتك تخرج من البيت.

. وجهها الأصفر ما عجبنيش.

كانت المسيردية وقتها تموت في سبيطار الغزوات. وأصابع أبني المقطعة تتلاعب بها قطط الحارات الشعبية الجائعة التي انتفخت من بقاياه، و من نفايات الأسواق المحيطة بالمستشفى. يا النمس؟ يا الفرخ_؟ إني أحملك وفاة ابني الوحيد يا كلب الخلاء.

البرد و الجوع و وجه النحس الذي لا يرحم.

تمتم النمس و هو يفرك يديه:

. اليوم نوري لك خبثك يا وجه النحس.

لم أتكلم. نادى احميدا. شخص شاب بنظارتين تبدوان صغيرتين على وجهه العريض.

ـ احميدا احضر لي ملف هذا الكلب. اليوم نكمل معه، ليعرف بأن الناس ليسوا نياما.

الكلب؟ غاضتني الإهانة. كنت أغلي. لو لم أكن مقيدا كنت مزقت وجهه. لم يكن أكثر من دياب الزغبي الذي لا يجد شجاعته إلا أمام اليتامى الذين اختارتهم الجازية و الذين لا حول لهم.

ثم انزلقنا جميعا نحو مكتب الوثائق السرية. التراب ملأ رفوفه المختلفة. ملفات قديمة. عددها مدهش حد الخوف. ذابت دهشتي، حينما أدركت بأني في مركز قديم للشرطة. أنزل احميدا أحد الملفات. قرأ غلافه مرة أخرى، نفضه بقوة من الغبار و الأتربة العالقة به ثم وضعه بين يدي النمس الذي أخذ يتفحصه بدقة تحت ضوء

باهت. لم أفهم جيدا ماذا كان يفعل و لكني كنت متأكدا بأنه كان يخبئ لي مفاجأة غير سارة.

. لا يا أحميدا ليس هذا. هذا ملف حلوف آخر سيأتي يومه.

أرجعه احميدا إلى مكانه. فقد كان مصرا على المضي قدما وراء الموضوع حتى النهاية. لم أجد مبررا كبيرا لكل هذه المبالغات. ما بيننا و بين النمس لم يكن أكثر من روتين ألفه و ألفناه: من أين أتيت بهذه السلعة؟ تعرف أنها ممنوعة؟ اسمك. اسم زوجتك. أبوك. أولادك. العدد. العنوان. حجز الأغراض. و في النهاية لا تخرج إلا إذا دفعتَ المخالفة. و ينتهي كل شيء و نعود إلى عاداتنا القديمة و هم إلى عملهم و مطارداتهم. حركات النمس هذه المرة بدت لي مشبوهة. كان دماغه منغلقا علينا في الوقت الذي يترك فيه أصحاب التهريب الكبير، المخدرات و الخمور بعيدين عن كل شبهة بل يعمل جاهدا على تغطيتهم.

و هو يتأمل الملف الثاني، فجأة، خرجت من فمه الملوث بتربة الملفات و أغبرتها، ابتسامة صفراء.

نظر إلي بعين ماكرة.

. عليك اللعنة يا ملف النحس. أنت هنا و أنا أبحث عنك؟

نفضه من الأتربة التي كانت عالقة به مرة أخرى لأن عينيه بدأتا تحرقانه. يبدو أن هذه المكتبة لا تمس إلا مرة واحدة كل عشرين سنة. كنت أنا و العربي في حالة يرثى لها. البرد. الجوع. اللباس الممزق عند الركبتين. اليدان مكبلتان. الجسد عائم في الوحل، و لعنة هذا الوجه الذي لا يرحم.

ـ شوف يا الخروبة اليابسة. هذا ملفك الكامل يا بطل أولاد بن عامر الهمام. النفاخة و الكذب و الرخص.

. ماني فاهم حتى شيء. اللي عندك قله.

. هذا ملفك من وقت فرنسا. تعرف ماذا كتبوا عليه.

. ما يرضي فضولهم و ما أرادوه هم.

. هذه صورتك على ما أعتقد.

. إيه.

تذكرت الزمن الفائت الذي ما يزال يعذبنا. خرجت من فمي جملة لم أقصد قولها.

. الله يرحم الشهداء. أنتم السابقون و نحن اللاحقون.

إبتسمت، لست أدري لماذا. خف غضبي الذي كان قد تحول إلى جمرة متقدة في داخلي. انتابني في أعماقي حزن شقاء اللحظة التي لم أملك لها أي حل. الله يرحمهم واحدا واحدا. كانوا رجالا بالفعل. إنها نفس اللحظة التي كنا نقف فيها للاستجواب وراء مكتب المستعمر. نفس اللحظة، مع اختلاف الزمن فقط. إننا نعيش على ذكرى الشهداء و الأنبياء. أنا متأكد بأننا حين ننساهم و ننسى دمهم سنتحول حتما إلى تافهين. نفس اللحظة. هكذا جرحوني من قمم الجبال. كانت رجلي اليمنى مكسورة من جراء رصاصة وأجبروني عبثا على تقيوء الأخبار. و هربت. منذ ذلك الزمن و هم يبحثون عني و يبدو أنهم اليوم وجدوني.

كان فمي يابسا، حين هزني النمس من كتفي.

. إقرأ. إقرأ جيدا ماذا كتب هنا. تعرف شويه الفرنساوية؟

أغمضت عيني. تراءى لي الشهداء سربا من الحمام، ينزف دما وقيحا. يصيحون بأعلى أصواتهم في وجه إبتذالي وتساقطي. أقسم بأني رأيتهم ينتحبون. يحملون الصخور العملاقة على ظهورهم و يئنون و يتحملون. ثم في النهاية يشتعلون كالحطب اليابس.

ـ إقرأ يا صالح، يا زعيم أولاد بن عامر؟ لا تريد؟ إذن سأتولى أنا القراءة:

Elément très dangereux

... ...

. ما رأي بطلنا الكبير؟

. كتبوه لأني كنت فعلا عنصرا خطيرا على وجودهم.

كان منهمكا في قراءة الملف. من حين لآخر تشرد منه نصف ابتسامة سخرية صفراء.

. سُجنت يا صالح. قَتلت. فأنت بكل بساطة مجرم خطير.

ـ خلط يا النمس. هذه أيام لخلاط. خلط. كانت الحرب و كنت أدافع عن هذه التربة. الصدفة هي التي شاءت أن أبقى حيا.

تشابكت تفاصيل الأيام الماضية في عيني. كدت أجهش. انتابتني رغبة التمرغ على الأرض و البكاء بكل قواي و التلوي بكل ألم حتى يسمعني حمار الوحش في أعماق البحر السابع. نظرت إلى وجه العربي المتعب. كان قد في إحدى زوايا القاعة المقابلة لمكتب النمس. في لحظة ما، كدت أفقد صوابي وأهوي على هذا الدماغ، لكني خفت من التبعات القانونية و من الناس الذين يراقبون كل حركاتنا و لا تغفو أعينهم دقيقة واحد. خفت يا العربي يا وليدي من خزرة الشهداء. ثم إن السيد يلبس حكوميا. اللباس ليس له و لكن للذين كان يخونهم يوميا

ـ على الدولة أن تتنبه لخطورتك يا صالح و أن تضع حدا لتدميرك الاقتصاد الوطني. أنت عنصر خطير جدا.

. عليك و على اللي حطوك في هذا المكان.

. لسانك طويل.

. أنت تهيننني و تهين ماضي الشهداء.

نهض العربي لصياحي الذي بدأ يقوى. فتح عينيه. كان يظن بأني تشابكت مع النمس. زحف نحوي. ربت على كتفي. كانت بعض الدموع تحرق عيني و تكابر عن التساقط. طوى النمس الملف بعدما سجل بعض الملاحظات، ثم أرجعه إلى مكانه. و حين بدأ النوم يغالبه، والتعب يرهق مفاصله، حجز البضاعة، وقعنا على التقرير و خرجنا.

عند الباب سمعت صوته:

. ما زال ليام بيننا. المرة القادمة نشويك.

لم أرد عليه. كنت متعبا و خائفا من أن أرتكب حماقة أخرى ينتظرها هو بفارغ الصبر لتدوينها عني.

خرجنا كسكيرين حزينين. في خفاء ما، عدت لأتذكر الشهداء ووجوه الأنبياء و الصالحين و المسيردية. بكيت براحة و حرية هذه المرة إذ لم أعد قادرا على تكميم قلبي و عيني. كان الألم قد وصل إلى القاع و مس أدق شيء في. كل واحد فينا يملك هذه الحاسة، عندما تصل إلى نقطة اللارجوع، لا يستطيع أن يقاوم تدفقها.

كانت غيوم الليل قد إنتشرت، و الأنجم تحترق بالتتابع، الواحدة تلوى الأخرى. حين وصلنا إلى القرية كان الهدوء مخيفا. الصمت بدا لي مريبا. قلبي كان يحدثني بحدث ما؟ و على الرغم من أني حاولت جاهدا أن أرفضه، إلا أنه ظل عالقا بي.

دفعت باب البراكة بهدوء حتى لا أوقظ المسيردية. غزغز بقوة. دخلت. الفراغ و الظلمة. لم أجد أحدا. ذهبت مباشرة عند العجوز القابلة، حنا عيشة المنورة. كانت القطط في سبيطار الغزوات تتقاتل من أجل تمزيق طفلي الذي تمنيت فقط لو قبلت عينيه الجميلتين قبل أن يموت تلك الميتة البشعة.

* * *

تململ صالح في مكانه من جديد. استشعر الدفء أكثر. لم يستيقظ من غفوته إلا عندما أيقظه مرة أخرى موح الكتاتبي و الطويل، و هما يهمسان في أذنه مع توقف محرك الحافلة.

. عمي صالح، وصلنا امسيردا... عمي صالح، وصلنا. قم.

. بهذه السرعة؟

. واش من سرعة؟ هذا الكار ولى أكثر من حمار حنا عيشة.

« حنا عيشة... عيشة المنورة؟ »

تمتم ثم سلك البهو المؤدي إلى الخروج. لم يكن الناس كثرا و مع ذلك شعر بالضيق يملأ صدره و كل جسمه.

حين لفحه هواء امسيردا البارد، القادم من جبال زندل المطلة على البحر، تمنى لو امتدت المسافة أكثر فأكثر... حتى تمس الزمن الأول و يرى كل الذين كان يحبهم واحدا واحدا، يبكي في حجرهم و يقول لهم كل ما كان في قلبه... حتى تمس حمم جهنم و ينفجر بعدها هو كقنبلة موقوتة، و تتطاير في الفضاءات الواسعة الأشواق الكاذبة التي حولت عظام الشهداء و الأنبياء إلى بنايات شاهقة، و بارات و حمامات و عساكر وشرطة و كلاب.

الفصل الثاني
ناس البراريك

-1-

النجوم في هذا الصباح، انطفأت بسرعة.

خرج صالح بن عامر الزوفري على غير عادته، مبكرا على ظهره فأس و رفش. التوناني يقول في تاريخه الكبير: بكروا ترزقوا.

ارتفع آذان الفجر عاليا قبل الوقت المعتاد بقليل. قفز الأطفال من فراشهم البارد و عيونهم تدور في محاجرها بسرعة مثل اللعب. و علا صياح الديكة. انكشح الضباب الذي كان يحتضن القرية شيئا فشيئا و بدأت الأشياء الغامضة تتضح و تكتمل أشكالها المبهمة.

كانت بعض الوجوه قد بدأت تدب في القرية بخجل. ولم يخرج كل الرعاة كما هي العادة إلى مراعيهم بالرغم من الأمطار التي بدأت تعطي شهية خاصة للرعي.

هز الإمام الجديد رأسه متململا في مكانه. بدأ يتمتم. بعدها ارتفعت عقيرته عاليا، يتلوا آيات قرآنية عن الآخرة و يوم الحشر. و العياذ بالله من يوم الحشر. دمعت عيناه المرهقتين، دمعات جافة كوجهه الذي تحول إلى قطعة خشبية أكلتها سوسة الألواح. أذن مرة أخرى ثم أقام الصلاة بصوت عال. صلى و سلم بصمت و خشوع.

من إحدى زوايا المسجد. نهض رومل القهواجي من جانب بوجمعة، تخطى الصفوف ثم جلس بالقرب من الإمام. كانت عيناه حمراوان، مورمة. وجهه يابس و أزرق كأنه قطعة حديد مر عليها قرن من الدهر. جسمه هزيل. على ظهره ينام قميص أزرق ألتصق بلحمه. و جوارب قديمة، تتضوع منها روائح كريهة. على وجهه المعروق، نبت زغب أسود محروق.

اجتاح عينيه غشاء مخاطي أصفر.

تمتم الإمام بعد طول صمت رافعا يديه نحو سقف المسجد:

. ترحموا يا مؤمنين الله يرحمكم.

تألم الجميع، و أنوا، بصوت خشوع:

. الله يرحم الشهداء. الله يرحم الشهداء.

بكى الشيخ رومل القهواجي، بكاءا قاسيا و مرا. كان شيء ما، قاسيا، كالزيت المحروق يتحرك في صدره، و في كامل عظامه. و هو الذي ركَّع رومل في صحراء العلمين. لم يرتكب جرما في حياته. كان كآلاف خلق البراريك، يحمل قلبا طيبا و عطوفا. فتح مقهى الدرب من عرقه و عرق طفله الوحيد المتبقي من حرب الدمار، العربي. حين عاد من الحرب، كان يحمل في جيبه عشرة فرانكات، كانت رصيده التاريخي كله. اشتغل برادعيا، ثم مزارعا خماسا، ثم مهنا متتالية، غير أنه في تلك الفترة بالذات اشتغل في أحد المقاهي الشعبية. و فجأة قفز إلى تلحيم الأواني الحديدية المكسورة. قدم من ضواحي سطيف. عرف كيف يتأقلم مع سكان أمسيردا و ليست له عداوة مع أي شخص، و مع ذلك، فقد يكون أول من توجه له طعنة غدر في حي البراريك.

« . يا لطيف؟ حياة الهم و الغم. »

تمتم صالح الزوفري الذي دخل متأخرا عن موعد الصلاة. يداه مملوءتان بالتراب و الطمي. أثار الصوت الذي أحدثه و هو يضع الرفش و الفأس عند الباب، انتباه الحاضرين من فقهاء البلدة و كبار الجماعة و الأعيان.

صمت الجميع لحظة من الزمن استرجعوا فيها الموت الذي يعيد الناس فجأة إلى حتمية التراب و الفراغ، لكن سرعان ما بدأت الوشوشات بين الحاضرين تتحول إلى همسات، فأصوات خشنة ثم إلى شيء يشبه الحشرجة.

قال شيخ طاعن في السن ينام جسده النحيف و المنكسر عند الظهر، داخل جلابة ممزقة:

. يقولون إن الرصاص ثقبت ظهره. ما خلاَّ فيه والو.

. ربي هو اللي يعرف. هواللي جابوا و هو اللي رجعه.

. شكون كان يقول العربي يمشي شمته هكذا؟

. ولينا كالنمل يا صاحبي، إذا ما قتلوناش رحنا في الحافر.

وراء حجاب الجامع حي تقيم النساء الصلاة، تمتمت امرأة ملثمة، كانت أكثر النساء شعورا بالوحدة، أعطى الكحل لعينيها أتساعا كبيرا:

ـ الله يجازي اللي كان السبب. يا ربي ما تغفرش للي قتل العربي و حرمه من شبابه.

ردت عليها امرأة كانت بجانبها:

. أحمدي ربي يا ابنتي و استغفريه.

. أستغفر الله.

إنزلقت دموع مدرارة من عينيها، حارة كالشقاء و كلعنة اليتم.

. الموت حار يا يما و قلَّ من يتحمله.

رفعت إحدى العجائز في الناحية الخلفية من المسجد، ليس بعيدا عن ساقية الوضوء، رأسها إلى السماء وحاولت أن تبكي لكن الدمع تصلب و تحول إلى قطع من الصخور البركانية في أطراف عينيها. كانت شيخة مقعدة.

. خسارة أمينته. الله يرحمه. اللي تيتم يتيتم من أمه.

ـ يا لاله، يقولون إنه حاول قطع الوادي المسكون بالليل، فسقط في مائه. وطئ على ابن الجن الأزرق، فأقسم أن يفنيه مثلما أفن العربي ابنه.

. يا أختي؟ لا جن أحمر و أصفر. النمس و جماعته ربي يجيب له لقَّاية تاخذه.

في الخارج صهل الجواد الأشخم و دق على الأرض بحوافره الثقيلة معلنا عن وصوله.

سكن الجميع. بعضهم ارتعدت في أعماقه الأشياء التي تدعوا إلى الخوف. كلهم يعرفونه. وقاحة السبايبي لا تخفى على أحد. عينه مسكونة ومخيفة. يا لطف. رجل الشر في الدين و الدنيا ويوم الحشر، و لا يتوانى عن الذهاب لزيارة الحاجة طيطما لتغيير جو القرية. و عندما يغادر حوشها الذي يقسم ناس القرية أنهم رأوه فيه، يلعن الشيطان الوسواس الخناس، الذي يلهي الناس عن الحساب و عن اليوم الفصل حيث ينسحب الخيط الأبيض من عمق الخيط الأسود.

الناس لا يخشونه و لكنهم يخافون سطوته. يقول بعضهم إن يديه طويلتان و تتمددان حتى العاصمة حيث معارفه الأقوياء. و كلما حاولوا مقاومته اشترى ذمم الناس و حولهم عن أفكارهم و سخرهم لخدمته حتى صار مع الزمن Un Intouchable.

« ـ ? Intouchable. قلة القانون. لو وجد الرجال أمامه لركعوه و لكنه وجد حريما يخاف من ظله. »

تمتم صالح و هو يسمع حركة الحصان الأشخم و يرى تردد الناس و استعدادهم النفاقي لاستقباله. كل يوم يشعر صالح بعمق المسافة الفاصلة بينه و بين السبايبي.

بيننا دم الجازية يا صاحبي، و غربة لونجا و مضارب فقراء بني هلال التي أقدمتَ على حرقها بشعلة نار حملتها من مكة فوضعتها في أفقر خيمة، و وقفتَ على مرتفعات البلدة تتأمل ألسنة النار بجنون. لا أحد من هؤلاء الناس على استعداد لأن يتحول إلى أبي زيد قواد الكبار. لا أحد. مازال دم الشهداء يجري في عروقنا. قد تكون أنت الحسن بن سرحان في هذه الحرب الكبرى، لكن بكل تأكيد لستُ أنا أبا زيد الهلالي الذي تبحث عنه. لقد أخطأت طريقك يا السبايبي. لن يسمعك أحد من بني هلال أو ما تبقى منهم و أنت تعطي أوامرك لاختبار تبعيتهم المطلقة لك:

. يا أبا زيد؟ فإن كنتَ طامعا برضى الله و الأمير، فضع في رجليك هذا القيد.

و لن أقول ما قاله أبو زيد الهلالي للحسن بن سرحان:

. سمعا و طاعة يا مولاي الكبير.

و لن أضع القيد في رجلي. فالسيوف اليمنية التي تملكها بتارة و حارقة، لكنها عاجزة أمام فيضانات أحزاننا.

الظروف حولت السبايبي إلى أخطبوط مخيف. أياديه ممتدة حتى وهران والعاصمة و البلدان البعيدة و الغريبة. لم يعد إلى الجهة الغربية من حي البراريك منذ مدة. منذ حاصره شباب الحي و ضربوه حتى تقيأ الدم وأُخذ منه كل ما مان يملك. كان يظن أنه بإمكانه أن يفعل ما يشاء في الناس بنقوده و أمواله. كانت عيناه المريضتان مثبتتين على إحدى بنات الحي الغربي. راودها فلم تستسلم. حاول أن يشتريها من أهلها فرفضوا. ثم نوى على اغتصابها فضُرِب حتى كاد أن يُقتل. بعدها استقر نهائيا في الجهة الشرقية من الحي حيث رئيس البلدية و بعض أعيان القرية. الجهة الشرقية استفادت بكل المشاريع التي غيرت مع الزمن الحي و بدأ تبييض الأموال يظهر بشكل واضح. بنايات عالية ظهرت إلى الوجود بسرعة وراءها المهربون الكبار و تجار العملة الذين كانوا يصرفون الفرنك الفرسي بثلاثة أضعاف

الدينار الجزائري. مما سمح للكثير من الفلل أن تملأ أرض امسيردا و أجواءها و تأكل شيئا فشيئا أراضي البراريك الغربية التي كانت تباع بشكل رخيص جدا. السبايبي الذي كان يعرف جيدا قيمة المكان الاستراتيجية للتهريب لم يكن يتوانى عن اقتناء الأراضي و بناء المحلات.

سعل السبيابي بقوة حتى يثير انتباه المصلين.

« ما الذي جاء به إلى هذا الجوع كما يسميه هو بنفسه؟ »

صبا ح الخير على جماعة الخير. الله يعظم الأجر يا خويا القهواجي. رحمة ربي واسعة. إذا احتجت لأي شيء أشر لي ستجدني إن شاء الله تحت تصرفك.

. الحمد لله... يرحم والديك يا السبايبي... يكثر خيرك...

رد القهواجي من تحت أنفه بكلام شبه مقطع. كانت عيناه حمراوين، متعبة و قلقة. فقد قضى الليلة بكاملها بجانب العربي ينتظر موته بين الفينة و الفنة في سجنه. السيلون_ كان ضيقا و صخوره باردة. صرخ العربي كثيرا ثم صمت حين لم يعد للصراخ معنى. كانت تنام في عظام ظهره ثلاث رصاصات قاتلة. حين طلب القهواجي أن ينقل ابنه إلى المستشفى قالوا له إن هذه قضية خارجة عن إدارة السجن و أن عليه أن يذهب إلى العاصمة يطلب إذنا. ظل يدور و يدور، وفي النهاية جلس بالقرب من ابنه الذي كان يحتضر، ينتظر لحظة موته.

كان السبايبي يعرف جيدا الأوقات التي عليه أن يظهر فيها. لم تعد له أية مكانة و وسيلته الوحيدة هي الآتم. فرك يديه، و حاول أن يصطنع موقفا من الألفة:

. يا جماعة الخير. لن آخذ من وقتكم كثيرا. هذه مئة ألف صدقة على روح الميت لدفنه. السي إبراهيم. صالح. بوجمعة. قويدر، تعالوا عندي في العشوة بأعوادكم. أستناكم أنتم وناس وجدة ومغاغا. خليتكم بخير.

ثم لوى برنوسه حول عنقه و خرج بدون أن يؤدي و لا ركعة ترحما على الميت. لم تكن جثة العربي بالنسبة له أكثر من دودة. مجرد دودة قادها حظها التعيس تحت حوافر الخيل الهاربة. أو ربما... دمية أحرقها طفل صغير عن طريق الخطأ.

« تفو؟ غاسلين وجوههم بالبول. لا حياء و لا حشمة. »

قالها صالح بصوت مرتفع، ثم صمت مكدود الوجه. أصفر كان كقشرة ليمون.

بعد صلاة الترحم، علت همهمة قطعها الإمام.

. إلى المقبرة يا جماعة الخير لصلاة الجنازة و دفن المرحوم. توكلوا على الله.

كان صالح أول من إنزلق إلى صدر مقام الولي الذي بني فيه مسجد القرية. وضع بين يديه الذراع الأول للمحمل القديم، وترك الأذرع الثلاث الباقية للناس الآخرين. المحمل، عبارة عن قطعة من الأخشاب العتيقة التي أكلتها سوسة الألواح. في جنازة الإمام الأول، انكسرت من الوسط فسقط الميت على الأرض، خاف الناس من المنظر، و ظنوا أنها نهاية النهايات. فالطالع يقول و كذلك سيدي علي التوناني، إن جثث الأئمة حين تعجز المحامل عن حملها، فتلك دلائل القيامة. ورممت الأخشاب بالدوم، و الحلفاء، و جذوع الأشجار اليابسة. ودفن الإمام، و بقي حي البراريك على حاله و لم يتغير شيء. حتى النهار لم يغير دورته أبدا.

التفت مجموعة من الشباب على المحمل. رفعوه على ظهورهم. و ارتفعت في أثرهم أصوات النساء، في الزاوية الثانية من مسجد القرية. كان الجو مشحونا بالغموض و الخوف.

حتى كلام الإمام لم يفهم إلا بصعوبة.

ـ لتسبقنا جماعة الخير و الأجر، لحفر القبر. تربة المقبرة هذه الأيام صارت هشة. ربي وحده يعلم لماذا؟

ـ شبر واحد لا أكثر. لقد حفرته بأظافري و دم قلبي. حفرة. أقل شيء يمكن أن نقدمه للعربي حتى لا تنهشه الذئاب الضالة من أمثال السبايبي. الله يرحمك يا العربي وليدي و يوسع عليك.

تحرك صالح و الجماعة التي كانت تساعده في حمل المحمل. حاول عبثا مسح وجهه المعرق بكم قميصه الذي كان التراب يلونه بلون هذه الأرض المتعبة.

كانت الأمطار الخفيفة قد عادت من جديد إلى السقوط. امتد الناس خيطا واحدا من باب المسجد حتى المقبرة التي تقع على المرتفع المطل على كل الهضاب المجاورة. هكذا ناس البراريك لا تجمعهم إلا المآتم و الأعراس.

لم يكن يرغب في الإلتفات و لكنه التفت بصعوبة كبيرة. كانت خالة العربي متكئة على صدر امرأتين. تغطي رأسها بملاية سوداء. تندب أيامها و تحاول إسترجاع

وجه العربي. فقد كانت ترى في العربي خصب عقمها الأبدي. تناهت إلى أذنيه حدة الأصوات المخيفة التي تحولت إلى ما يشبه عواء الذئاب الهرمة. كان الصعود مرهقا. داهمته كل الصور السوداء وهو واقف عند الحفرة يتأمل الأتربة وهي تتفتت من جراء الأمطار التي تقوت أكثر فأكثر. أخذ إناء قديما كان موضوعا على أحد القبور ثم بدأ يفرغ الحفرة التي امتلأت ماء بسرعة مطلقا العنان لقلبه و عينيه للبكاء بصت و حرقة.

العربي يا العربي خويا.

و شحال من عربي قتله الضيم.

إذا نبكي ما نردك آخويا،

و إذا نسكت ما راح يذوي الغيم.

كانت حورية قد أطلقت العنان لندبها منذ مغادرتها المسجد. لم ينتبه أحد لآلامها إلا صالح. لا أحد عزاها في مصابها. كان شعرها يتمرغ على الأتربة و الأوحال. تمسح وجهها بأظافرها فترتسم على خديها علامات الندب الدامية. تتمرغ. تطلب من السماء أن تتحول الحكاية إلى مجرد كذبة أو كابوس سرعام ما ينكشح. لكن السماء لم تتحكم في غضبها الثقيل. الرعود تقصف. الغيوم تتصادم بقوة. تقشعر الأبدان. تتحول الظلمة إلى نور معمي للأبصار و النور إلى ظلمة فجائية تطمس كل شيء. تزداد قوة الأمطار مصحوبة بموجة ببرودة لاذعة. وصالح لا يتوقف أبدا عن البكاء و تنظيف الحفرة. عندما انتهى و أخذ العناء غيره. حمل جثة العربي بين يديه. وقف لحظة شعر بها تطول إلى أكثر من سنة. تأمل الجموع التي كانت تأكلها الأشياء السوداء من الداخل. الأمطار تلطم وجهه بقسوة. شعره القاسي الذي ورث خشونته من هذه الأحراش تملس و التصق بجلدة رأسه. بشرته الجافة تلتمع كنجمة كلما أبرقت الغيوم المتصادمة. رأى فيما رأى ليلا ينزل على القرية بظلام أسود قاتم. و قبل أن ينحني على ظهره، شاهد لونجا تضع خرقة بيضاء بين أسنانها. تحاول أن تكبت حزنا تفجر كالنار في عينيها الملتهبتين. تشهق في خفاء ما، بخوف و رعب. كانت كمسيح مصلوب في ذلك الصباح الممطر البارد. رأى كل الفقراء يبكون على الرغم من أن ناس البراريك، مذ كانوا هم دائما ناس البراريك. في كل شيء يختلفون.

يتقاتلون. يتذابحون. تسيل دماؤهم هدرا. و لكنهم أيام الموت و الأعراس ينسون كل شيء.

« . الدنيا بنت الكلب. غبي من يثق فيها. »

غابت ألوان الشجر الجميلة. انطفأت براعم اللوز التي كانت قد بدأت تفتح عينيها بخجل. سقطت الأنجم الجميلة و غرقت القرية كلها داخل غيمة حزن مظلمة. و نام ناس البراريك في ذلك المساء باكرا على غير العادة المألوفة. الحيوانات صامت، أو على الأقل أجبرت على ذلك. تضور الأطفال جوعا. بكوا ثم ناموا على رائحة الجمار و الخشب المحروق و ورث الأبقار. تمططت جراح حورية و أشواقها الدفينة حتى أغمي عليها. نامت القرية على القرحة باكرا، لكن شيئا واحدا ظل يطن في رأس صالح و يؤلمه، جثة العربي التي ظهرت بوضوح، من وراء الكفن الذي بللته الأمطار، و الأغنية التي كان يرددانها كلما قطعا الوادي.

خاطر و الوادي أداني،

نهبز في الماء نشدو،

و نعيَّط وين الرجال؟

و الموجات اللا يزيدو.

حمل صالح فأسه و رفشه، و قبل أن يترك المقبرة، نظر إلى السماء. لعنها في أعماقه و لأول مرة لم يستغفر الله. بصق على الأرض بقوة. انزوى في مكان مغلق بالظلال، و أدخل إصبعه في فمه و تقيأ حتى سالت الدموع من عينيه، ثم أغلق سياج المقبرة بالأسلاك الشائكة و السدرة ونزل بهدوء. مرهقا كان، حتى العظم. عيناه ظلتا ملتصقتين بصمت الناس و هم ينحدرون من المرتفع المطل على كل هضاب القرية، في قلوبهم لذعة العربي و الأطفال الفقراء الذين أكلهم العراء و الركض وراء السراب القاتل.

مسح يديه من الأتربة في سرواله. ثم التفت صوب المقبرة. لم ير العربي و هو يركض في الأحراش و الهضاب و لكنه رأى النمس و السبايبي و هما يرقصان و يقهقهان. بصق على الأرض من جديد و لعن السماء. مرة أخرى لم يستغفر.

« . الله يلعن ربها دنيا. عاش ما كسب، مات ما خلَّى »

-2-

توقف سقوط الأمطار منذ أكثر من أسبوعين، لكن الصقيع ظل كل فجر يغطي القرية بغطاء أبيض لماع و بارد. عاد الناس من جديد إلى حركتهم العادية بعدما دفنوا العربي و بعده عبد الله ولد يامنة و بقايا لحم و عظام السي لخضر الذي قددت جسده ذئاب الليل الشرسة عند الوادي، يقول حراس الحدود إنهم كانوا يقصدون تخويفه فقط. جرح و من يومها لم يُعثر له عل أثر إلا عندما وجدوه بالصدفة داخل السدرة، على الضفة اليمنى من الوادي و قد تحول جسمه إلى خميرة سوداء بدأ لحمها يتآكل.

تألم الناس الطيبون و مشوا وراء ما تبقى من جسد السي لخضر الذي كان آخر من دُفن، كما مشوا وراء ناس قبلة و بعده. وعادت حركة بني هلال إلى طبيعتها و عادوا هم إلى حسدهم و غيرتهم و أحقادهم و حروبهم الصغيرة. تحركت من جديد العيون النجدية ذات الإتساع الكبير في كل الاتجاهات ثم ثبتت خزرتها نحو بلاد المغرب. بلاد قيل إن خيرها لا يحد و إن أمطارها لا تتوقف طوال السنة و خضرة أرضها لا تضاهيها إلا جنة عدن. حزمت القبيلة أقنعتها و خيام أمرائها و ملوكها و جندها و انطلقت تدق أبواب بلاد المغرب الموصدة و تطلب رأس الزناتي خليفة، بعدما دفنت شهداء حروبها الذين ماتوا جوعا و عطشا و بردا و خوفا أو وهم ينظمون الهجمات الأولى على البلاد التي غزوها.

كلما تضور صالح ألما لمشاهد الموت و الخراب الذي يحدثه حرس الحدود، أقسم في أعماقه بأن لا يعود إلى صنعة الهم و الموت التي لم تعلمه إلا المذلة و البكاء في السر و العلن:

« . واش ربحت يا المسكين و أنت هارب من مكان إلى مكان؟ بعد كل هذا العمر نُمسخ و نُهان و نُقتل؟ يا خسارة. »

بدأنا ننقرض كالحيوانات التي لا وسيلة لها للدفاع عن نفسها للبقاء. زايد ناقص؟ لا قيمة مطلقا لوجودنا. و لكن واش راح ندير إذا تركت هذه الصنعة؟ لا شيء. تتبع ظلال البيوتات الواطئة و انتظار الموت الذي لا يتخلف أبدا عن وعده. البارح

دفناهم و اليوم نجبر على غسل أيادينا من دمهم و ندخل في قتالنا الطبيعي عن أتفه الأشياء: هذا قال علي... سرق لي الحمار و راح يسْقى به الماء... و الله غِ ما نقبضه نقلع له الرحمة ديالو. و علاش يا خويا؟ ما يحشمش. قلت سلف لي شويه دراهم و ما حبش... ربي يجيبوا بين يدي و يشوف واش ندير فيه.

بصق على الأرض.

هكذا نحن دائما. حين نضرب في الصميم كالأطفال الأيتام نبكي، نبكي كثيرا، لكن ومع مرور الأيام التى لا ترحم، ننسى أننا عرفنا وجها كان بيننا، يتألم لآلامنا، يشاركنا مسراتنا، يشرب معنا، وتلذذ معنا بتدخين روث الحمير و الأبقار اليابس. ننسى كل التفاصيل و لا نتذكر إلا ما مارسه معنا من حماقات صغيرة كانت أو كبيرة و نبدأ معاركنا بكل شراسة.

« تسألني يا رومل خويا و أنت سيد العارفين؟ السبايبي لا يعرف شيئا آخر سوى البيع و الشراء. صحيح أنه جاء إلى المسجد و عزاك و ترك لك معونة ساعدتك على الدفن و لكنه يا صاحبي هكذا. لا يمكنه أن يتغير أبدا. »

اسمع هذه القصة عن السبايبي. ما يحشمش. خلِّني نضحكك شويه. جاءني ليلا، كان بكل بساطة يريدني أن أتحول إلى أحد أزلامه الذين يلحسون نعاله. من الصعب عليَّ يا خويا السبايبي، أنا ابن الجنون و القصص الهلالية أن تشتريني بزجاجة ويسكي. كان يريد مني أن أنفض أصابعي من دم العربي، و أركض كالأبله بالمكحلة و لزرق في عرس ابن أخيه، لكني لم أفعل. كان المساء باردا و كنت مرهقا و حزينا عندما. تصورت أنه سيلومني فقط عن غيابي في العرس و لكنه تمادى نحو أشياء أخرى أكثر اتساخا. قال و هو يصطنع طيبة غير موجودة فيه أبدا:

ـ خسرناك يوم عرس ولد خويا. و الله يا صالح خويا لزرق يساوي الخيل كلها و لكن للأسف لم نملأ عينيك.

أحرجني. التربية التي نتلقاها تلعب لنا أحيانا أدوارا قلقة و تجعلنا نقول ما لا نريد قوله:

. لا يا الحاج، أعوذ بالله. حاشى. و لكن موت العربي صعب.

. أنا أفهمك. معك حق. أنا الله غالب، عرس ولد خويا.

ندمت. في أعماقي كنت أريد أن أشتمه. كيف يقبل القلب العرس و جارك يدفن ميته؟ الهلاليون على قبحهم يرفضون ذلك. و يطلب مني أنا أن أشاركته سعادته و خويا القهواجي يموت قطرة قطرة؟ يا لطيف؟ العمياء تطلب الكحل يا لونجا تصوري؟ و أنت موضوعة في برج الموت تدلين شعرك للغادي و الرائح عله يلتفت لآلامك و الناس يمرون بمحاذاتك كالبلداء و لا يلتفت نحوك أحد. قيل لك، حتما سيعثر على شعرك رجل يتقن الخروج من الأهوال سالما. قيل إنه سيصعد و يصل، و ربما سقط في الطريق. فالطالع يا ابنة الناس متناقص و لا أحد يضمن البقية.

سألني السبايبي و هو يلف برنوسه على ظهره و يحاول اختصار الحديث و الذهاب مباشرة إلى الجوهر.

. اسمع يا صالح. الميت مات و الله يرحمه. فكر في حياتك.

– يا خويا الولف صعب. و العيش أصعب و العربي وليدي.

لف ودار مع دورة كؤوس الشاي و حرارة الجمرات المتقدة التي كانت تتفرقع بقوة من المجمر الذي لم يكن بعيدا عني. كنت أشعر أن وراءه شيئا آخر لم يفصح عنه بعد.

. أنا مسكين و أنت مسكين يا صويلح و المساكين لبعضهم.

. صحيح. الله غالب هذا اللي اعطى الله.

ـ أنت تعمل بعرقك و أنا أعمل بعرقي. أنت لا تملك شيئا، و أنا مثلك، الأرض أمموها و الأغنام في الطريق.

. يمكن راسي غليظ و لكني لم أفهم الشيء الكثير.

ـ أنت إنسان صريح و أنا نموت في الصراحة. أعتقد أن بيننا مصالح مشتركة و لو نعرف كيف نستثمرها.

. وين تحب تصل يا الحاج؟

ـ بالمختصر المفيد، أنا أوفر لك طريقة تربح بها أكثر و أخطيك من المتاعب الفارغة و انتظار عمل الحكومة اللي ما قادراش تعيَّش حتى نفسها.

الحكومة؟ أخدم يا التعس للناعس. ما زلنا تحلم بالأرض و بالسد، مجرد حلم.

. استنَّ حتى ينوّر الملح. أعتقد أنك بدأتَ تفهم قصدي جيدا. العمل الذي سأقترحه عليك بسيط جدا. أوفر لك كل أسبوع مئتي رأس من الأغنام و عملك يتلخص في السير بها و كأنك ترعاها نحو الحدود و هناك ستجد من يستلمها منك و تعود بعدها و حصتك في الربح مضمونة. بهذه الطريقة ستخرج من الميزيرية بسرعة. تعيش كالملك، أحسن من أن تموت في خلاء موحش كالقط. أعرف أنك رجل و قادر على هذا الهم.

. و إذا ألقي علي القبض؟

ـ لماذا تقرأ الشر. أنت بعودك الذي لا يركع، لا أحد يقدر عليك. ثم من يمنعك من رعي أغنامك في المكان الذي تريد؟ أكثر من هذا كل السلطات تحترمك ما عدا النمس. هذاك الكلب خلِّه عليَّ. ينشرى بسهولة.

. سمع مليح يا الحاج. إذا كنتَ تريد محاربة الحكومة، حاربها لوحدك. هذا تدمير لاقتصاد البلاد؟

ـ و ما تقوم به يوميا مع المهربين كيف نسميه؟ أنت رأسك خشن و لم تفهمني. صحيح أني أفكر في مصلحتي و الربح من وراء هذه العملية و لكني أفكر كذلك فيك. انت رجل كبير يا صالح و تستحق شيء أكبر في هذه الحياة.

ـ صحيح أني فقير و يمكن أن أقضي الليل كله بدون أكل و لكني أرفض أن تصبح حياتي رهينة الآخرين. ما أقوم به تافه، النمس نفسه لا يستطيع أن يفعل ضدي الكثير، لكن تهريب الأغنام و مئات الرؤوس هذا خطير و يمكن أن يقودني إلى البهدلة و السجن.

. ا سمع يا صالح...

. ا شرب كاسك. ما شفتني ما شفتك.

ثم قمت. كان وخز غياب العربي، قد بدأ يحفر قلبي.

أنا متأكد أنه في أعماقه لعنني حتى الموت و هو يغادر المكان.

. أنت تحب تموت في الميزرية، دبر راسك...

لأول مرة أرى السبايبي يخرج من البيت منكسرا، منكس الرأس كالمهزوم في حرب كان على يقين مسبق من الانتصار فيها.

« قصيرو العقل يا خويا رومل يظنون أن كل الناس قابلين للبيع و الشراء بمجرد حركة منهم؟ غالطين وغالطين بلا قدر. السبايبي ما يزال في عام جدي و يظن الناس كلهم نائمين على آذانهم. مسكين... يذكرني بالفرمند الجشع... »

لست قشمر بن منصور المهرج، فألبس فروا من جلد الثعالب و أدلي سوالف رأسي و أرقص في ملكك كالقرد مع نسوة بني هلال، و مع وطفا و الماريا، والست ريما و بدر النعام و جوهرة العقول و سعد الرجا. تأكد يا أيها الفرمند، ليس كل الناس أبا زيد الهلالي الذي جاء لحماية الفقراء فبدل جلده الأسود بفرو لم يكن له. بريق المال كان أقوى و قحبات بني هلال فزن به.

كان صالح مرهقا. تعثرت قدماه على حجرة مسننة رأسها اخترق التربة كالنبتة. كاد يصطدم بالحائط العتيق الذي ينتصب في الجانب الأيمن من الزقاق. بصق على الأرض كعادته عندما يخفق في المقاومة ثم واصل تدحرجه.

نظر إلى الساعة اليدوية التي أخرجها من صدره.

تذكر أنه متأخر عن الوقت الذي يفترض أن يكون فيه السي أحميدا القهواجي قد وصل و ارتاح على كرسيه المعتاد في مواجهة الوادي والحمام الذي يأتي إليه لينقر الخبز من يديه.صالح يكره الجلوس في المقاهي، لكن رغبته في البقاء مع رومل وتخفيف الوحشة عليه، كبيرة جدا. العربي كان يملأ خواءه. صعب أن يجد المرء نفسه فجأة في صحراء قاسية أوسع و أكثر حرقة من صحراء العلمين التي أكلت شبابه و لحمه. للعربي فضل كبير في الحفاظ على هذا المقهى من التلف. كان أصيلا وشهما و يعرف أن رومل لو يخسر المقهى سيموت قهرا. لم يكن يربح الكثير لكن المقهى كان يمنحه دفءا كبيرا و إحساسا بالحياة. فالقهواجي الذي كان يشعر بانقراض الأيام أمام عينيه، عادت إليه الخمس و أربعين سنة المفعة بالحياة، على الرغم من الشيخوخة التي تسلقت رأسه باكرا. ينط كأرنب عجوز داخل البراكة. يستمع برقة إلى كلام رواد المقهى، و إلى الشيخة الرميتي التي نحت صوتها في داخله كل ذكريات أيام شبابه. في عيون الأطفال الذين يركضون بمحاذاة المقهى، يرى انكسار رومل بكل آلياته و انتصار الحياة على الموت. ضجة الناس غير المتناغمة في المقهى و طلباتهم المتزايدة تعجبه: عمي احميده قهوة. خالي رومل

الكارطا الله ينصرك على الألمان و الماريكان و الروس و اليابان، فيرد هو ضاحكا: لا، لا. الروس صاحبنا و حليفنا. أتاي_ الله يرضى عليك يا القهواجي خويا. السكر يا عمي أحمد. لونجا نفسها عندما تقهرها الحاجة و يغيب السكر و الشاي و القهوة من البيت، حتى عندما كان الإمام حيا، تضع على رأسها ملايتها البربرية التي ورثتها عن جدتها و تتوجه إلى براكته و تقف عند الباب، عندما يراها من بعيد و هو من وراء ما يشبه الكونتوار، يعرف ماذا تريد من عينيها.

. مساء الخير بابا صالح. واش راك مع البرد.

ارتبك صالح و هو غارق في وجه رومل ووجهها، حين فاجأته من فتحة الباب المطلة على الزقاق الذي كان يقطعه.

. مساء الخير بابا صالح. وين رايح بهذه الجرية؟

. اذكر اللبيه_ تهدف. مساء الخير يا بنتي.

كانت جميلة. لم تكن مكحلة و لا مسوكة. منذ وفاة العربي، أحجمت عن فعل ذلك. فهي تعرف جيدا مقدار حب صالح الزوفري للعربي. بانت شقرتها الخمرية و شعرها المحنى الذي يشبه شعر الجدات البربريات اللواتي كن يخرجن تحت شمس الصيف و الخريف و ينشرن الفلفل الأحمر و التين اليابس، فليتمع الشعر كسبائك نحاسية رقيقة. امرأة مرتبطة بكل ما تركه الأجداد من عنفوان و حب للمحيط و الناس. قدر فيها صالح ذلك الموقف. حين رآها و قد أطلت بكاملها من فجوة الباب، شعر بالرعشة تزداد عمقا فيه و تحوله إلى طفل صغير.

. رايح عند عمي احمد للقهوة، كما هي العادة؟

ـ خويا احميدا القهواجي في حاجة ماسة إلي. من الصعب افتقاد عزيز هكذا. العربي الله يرحمه كان وليدي.

أحنت رأسها قليلا ثم نظرت إلى وجهه المتعب بشيء يشبه العطف و الحنان. صمتت برهة ثم رفعت إبهامها إلى فمها، كطفلة صغيرة تستحي أن تطرح على الملأ ما يختلج بصدرها الصغير. ابتسمت. شعر بالعصافير تنط في عينيها. ثم امتدت ابتسامتها لتتحول إلى ضحكة ملونة بتدرجات قوس قزح. فنفر أنفها، وتعمق الأخدود

الجميل الذي يتسلق شفتها العليا و زادت عيناها صفاء. و ظهرت الغمازتان بشكل واضح.

قهقت مرة أخرى و هي تحاول أن تضع يدها على فمها لكن عينيها ظلتا تضحكان:

. ياه يا باب صالح، كي نتفكر حكاية التبن ما نعرف إذا نرعف عليك و إلا...

. خلِّ البئر بغطاه. ما وقع وقع. اتفقنا أن ننسى هذه الحماقة.

. و شكون قالك حابة ننسى؟ خاصني التبن يا بابا صالح.

. الرحبة قدامك. هذه المرة لن أكون أحمق.

. و إذا كنت نحبك أحمق واش تقول؟

. واش يدير الميت بين يدين غساله؟ كه... كه...

لأول مرة منذ أسبوعين كاملين لم يضحك إلا الآن و يشعر بطفولة ضامرة فيه تصعد إلى قلبه و تمحو الزغب الذي يعطي الشعور بالانقباض والعمر و الخريف. رأها تحمل شكارة الخيش و تخرج نحو الرحبة. و هي تغلق باب بيتها، مر ياسين بوجه بارد كالحديد متجها نحو المقهى. لم يحي أحدا. يسميه سكان البراريك: الثعلب أو أحمر العينين. يقولون بأنه صار تحت رحمة السبايبي. يعمل معه على تهريب الأغنام باتجاه الحدود. لونجا تكرهه كدم الأسنان. يحاول دائما أن يعاكسها بدون جدوى، فتحولت المداعبات إلى حقد. لا رابط له بهذه الحياة غير المصلحة الخاصة، و استفزاز الآخرين بوقاحة. عندما نظر إليه بعيني ذئب و هي تغلق الباب، لم ثقل شيئا و لكنها لا شعوريا بصقت على الأرض. بينما كان صالح الزوفري، يواصل تدحرجه نحو مقهى رومل مطأطئ الرأس مثلما هي العادة، كجندي مكسور بعد هزيمة مرة. لم ينتبه لحركة ياسين. هو لا يحبه و يحاول دائما أن يتفاداه. حتى عندما حكى له رومل عن تجاوزاته في المقهى نصحه بأن لا يكسب عداوته، فهو مؤذ و يمكن أن يسخره الآخرون بكل سهولة.

لونجا... تمتم صالح و هو يتخطى المعبر الأخير المؤدي إلى المقهى. هذه الطفلة كفيلة بان تقهر جملا. الإمام الله يرحمه، كان يعرف ماذا يصطاد. عيناه الجاحظتان لا تخطئان أبدا في تقييم الأشياء الجميلة. فالطفلة كانت مقموعة مع هذه

الجثة الهرمة التي كانت تغار عليها حتى من التربة التي تمشي عليها. كان يقول دائما إن لونجا صغيرة و الشيطان قوي، فقد أغوى حتى الأنبياء و الرسل، فحرمها حتى من الخروج. الله يرحمه، كان مهترئا و يائسا و يابسا كحطبة، عاجزا عن ترويض نمرة، عيونها آسرة مثل لونجا. جاءت القرية طفلة فصارت اليوم امرأة كاملة. مقطوعة من شجرة، و الغربة صعبة. فلولا هذه الوجوه الأليفة التي ترغمها على البقاء، لما بقيت لحظة واحدة. ربما كانت قد رجعت إلى جبال جرجرة تبحث عن ذويها. عن أمها. فأبوها يكون قد مات بكل تأكيد. تقول إنه مريض و إن صدره تخرم من كثرة رطوبة المناجم التي كان يشتغل فيها بالنور بفرنسا قبل أن يتقاعد.

« لونجا مثلي. مقطوعة من شجرة يابسة. »

أول ما أطل صالح على المقهى، رأى القهواجي، بجانب الوادي يمارس طقوسه الاعتيادية. يقضي بقية أيامه قرب هذه الحيطان العتيقة التي كانت في ماض قريب سجنا مخيفا. يكرر نفس العمل ونفس الحركات، و حتى نفس الإشارات و نفس الكلام. يكسر الخبز اليابس بشكل دقيق ثم ينثره على حافة الوادي التي كان يجلس عليها. و في ساعة مسائية ما، تأتي الطيور الملونة و يأتي الحمام. يأكلون فتات الخبز من الحافة و من كفه. و حين تنتهي تطير عاليا، عاليا. يتتبع حركاتها و هي تحلق في الفضاءات الواسعة. يلوح لها بخرفة بالية، بعضها على عنقه دائما. يقال إنها من بقايا حربه مع رومل. ثم يعود، ليتهالك على كرسي قديم، ينتظر الزبائن، ويأكل ما تبقى من يومه. يبحث عن الخبز اليابس الذي يرميه الأطفال، و الرجال و النساء العائدون من الحمام.و في بعض الأحيان يضطر إلى إدخال يده داخل كومة الأوساخ ليخرج منها قطع الخبز اليابس. و يوم يداهمه المرض و التعب و يلازم الفراش مضطرا، يأتي الحمام والطيور الملونة. ينتظرون بعض الوقت على حافة النهر. تصفق عيونهم الصغيرة بيتم و ألم ثم يطيرون من جديد ليعودون في نفس الوقت، من اليوم التالي.

قضى احميده القهواجي، الملقب برومل، حياته كلها بين حيطان عتيقة كانت سجنا ذات يوم، ووادي متوحش لا يتوقف خرير مياهه، يهدد القرية في كل مرة بالفيضان، صيفا و شتاء. يسقي الفلاحون منه أراضيهم بالدور. و كم من مرة وقعت

بينهم مشاحنات و مشادات تصل حد استعمال الفؤوس و العصي و السكاكين حول حصص المياه التي يجب أن يأخذها كل واحد. هذا يتهم ذاك بإحتكار الماء. ابن عاشور يمسح السكين في بوزيان، وبوزيان يتهم أحمد المش و آخرون يتهمون الحسين بوككوح لأنه أول من يمر الماء على جنانه. و حين ترفع المذاري و الفؤوس و تخرج سكاكين ذبح الأبقار والأغنام، و يشهِّد الجميع استعدادا للمعركة، يا قاتل يا مقتول. يتدخل الشيخ البختاوي. يؤتى به من جانب المقبرة في ألبسته البيضاء. فهو يقول دائما أن مجاورة الشهداء أحسن من الجلوس مع أحياء خانوا الدم و الملح، و يصلح ذات البين بحكمته المعتادة و يعود كل الناس إخوة قبل أن يعودوا إلى معاركهم من جديد.

هؤلاء هم ناس البراريك. تقودهم أحيانا عواطفهم، فلا يفكرون لحظة واحدة في العاقبة. يتقاتلون من أجل أتفه الأسباب. الماء احتكره فلان. أغنام فلان أكلت قمحي. أبقار الفرخ ابن الفرخ_ التهمت كل الحصيدة. و حق محمد رأيت فلان الأقرع يغازل بنت فلانة بعينيه. الأحسن أن تتزوجها وإلا طار رأسك. المسائل المعقدة كثيرا ما تحل في عين المكان و قليلا ما يتدخل القضاء. تبدأ الأمور بسيطة، ثم سرعان ما تتعقد، فتخرج السكاكين و تشهر البنادق، وتتكاتف القبائل متجاوزة تناقضاتها الداخلية و صراعاتها الثانوية.

و ماذا عنك يا صالح بن عامر الزوفري؟ أنت ولزرق و شعر لونجا، و الجازية التي باعت ذهب بني هلال لتدخل قلبك. كلكم مساكين. مقطوعون من شجرة يابسة. الناس أحبابكم. و الناس أعداؤكم يا صويلح.

كانت الأمطار قد توقفت. الكراسي كالعادة، منتشرة في فوضى، تحيط بالبراكة. ما تزال على بعضها بقع الماء التي لم تيبس. رأى رومل صالح قادما. فتت قطعة الخبز المتبقاة في يده. نثرها على حافة الوادي. ثم قام متوجها نحو صالح بن عامر الزوفري.

ـ واش راك يا صويلح؟ اليوم اللي ما نشوفكش نقول الموت أفضل من الحياة. الموت راحة.

. راني كالأحجية كما كانت تقول أمي ربي يرحمها و يوسع عليها. إذا بت نقول ما نصبح، و إذا أصبحت نقول ما نبات.

. موت العربي عطلك عن كل أعمالك.

ـ العربي غالي يا القهواجي خويا. ما نـدير والو غير الخير في اللي يستاهله، و اللي ما يستاهلوش.

كانت الطيور و الحمام الملون، قد بدأت تغزو المكان وتحط بالقرب منهما. تنقر حبات الخبز. تحرك رؤوسها و عيونها. تشعر بألفة المكان و أمنه. بعد لحظات تطير أسرابا في الفضاءات العالية الواسعة بحثا عن مكان آخر.

. تفضل يا صالح.

يسحب له كرسيا، بينما يبقي رومل جالسا على حافة النهر بمحاذاته، في انتظار أسراب أخرى.

يجلس صالح. يمطط رجليه قليلا و يديه.

. لا باس يا القهواجي. وجهك اليوم أفضل.

ـ واش تحب. هم السابقون و نحن اللاحقون. هذه هي الدنيا، شيء رايح، شي جاي. نبكي. نحزن. نتصور العالم لحظة الضعف، تحت سيطرتنا، لكن سرعان ما تعود الأشياء إلى روتينها العادي. هذه الدنيا. قد ما عندك. قد ما تسوى.

. الدنيا قاسية، لكنها ما تزال بنت ناس.

ـ خليك يا رجل. قل: بنت كلب. تغرينا و عندما ننصاع لها تخذلنا و تتركنا لتذهب نحو غيرنا.

. متشائم إلى هذا الحد؟ وين بطل العلمين الذي قهر رومل؟ أنت لوكان جيت في بلاد برَّا، لو كان بنوا لك موليما_. بصح الله غالب يا الطالب، أنت ربي صابك مع الهلاليين.

يضحك رومل من كل قلبه.

. إذا كان كل الهلاليين مثلك، أهلا بهم. كان زمن و انتهى يا صاحبي، رومل أكل شبابنا.

ـ و لكنه علمك شطارة أكل لحم الكلاب، أيام العيد... كه...كه... على الأقل اعترف لرومل بهذه.

. الله يخرب بيتك، ما تنسى والو. اللي قال الجوع كافر ما غلطش. على كل حال لحم الكلاب أطيب من قوائم الدجاج المغلية في الماء الساخن... كه... كه.

ضرب على ظهر صالح بقوة، ثم تضاحكا عاليا كما لم يحدث منذ زمن. الأيام الماضية قاسية. تأتي معتقة، حارقة كهذه الذاكرة المثقلة بالنار و أخبار الموت.

أحمد القهواجي، أو احميده كما يناديه المقربون أو رومل بالنسبة للذين يعرفون تاريخه أو سمعوا به، عود زيتون، لا يخون الملح و العشرة. من معدن صاف، آت من بعيد. عاشر الحياة بكل قوة و شهامة حتى أرهقته. شعر بوجودها في أوقات الفرحة و الخيبة. لم تكن أيامه مجانية. كان الصيف في تلك الأيام حارا، حين ركبنا قطارات وجدة المتهالكة. و كانت الحرب العالمية الثانية في أشدها. سجلونا في سجلات كبيرة و أخبرونا بأننا مطلوبون للمقاومة و أنه بعد دحر النازية و الحاج و قوافله مباشرة ستستقل أرضنا. لم نفكر كثيرا في البقية. كان هو من الدفعة الأولى التي غزت الصحراء المصرية، على أمل أن نقيم عرسا ذات ليلة على أحراش بلدتنا المتعبة. كان كل الناس يعولون على هذا العرس الذي كان حلما عزيزا. كان احميده يقول دائما أنه سيقدم على إرتكاب حماقة في حق نفسه. و انه سيقوم بعملية انتحارية و يقتل رومل إذا كان ذلك يمنح العربي و أقرانه فرصة عيش الحرية في بلادهم. القهواجي كان يعرف جيدا خطر هتلر و النازية و الدعاية التي حولته فجأة إلى مسلم و حاج. حين عاد من الحرب، كان مثقلا بالأحزان، فقد فقد الكثير من الأصحاب و الأقرباء. الهم و دموع الغربة التي تكلست في العيون. يحكي بغصة في الصدر أنه صبيحة أحد الأعياد وجد نفسه مجبرا على ذبح كلبه و طبخه، و دفن رأسه في أحد الوديان الجافة. كانت أيام الحرب قد أرهقته، و كان يعز عليه أن يرى أطفاله يتضورون جوعا و لا يعيِّدون. فقد أكلوا يومها حتى الشبع. العربي، كان صغيرا، و مع ذلك فقد شعر بالملوحة الزائدة في اللحم. سأل عن السبب و حين لم يتلق الإجابة المنتظرة، واصل أكله و لم يتوقف. مرت أيام، و تقطن الناس الذين لا شغل سوى التقاط الأخبار. لم يكذب القصة و لكنه لم يؤكدها أبدا في حياته.

في ذلك الصباح لم يخرج. فقد كان مرهقا. خرجت العائلة بكاملها و لم يتغيب عنها لا الصغير و لا الكبير. لقد قضوا الليلة بكاملها في صنع العلم الوطني. لم يكن العلم جيدا. خصوصا النجمة و الهلال و لكنه كان كافيا لإشباع الجفاف الذي كانوا يشعرون به طوال هذه السنوات. مع برودة الفجر الربيعي 1945، كان الناس يحملون الأعلام، يخرجون من الجحور التي سكنوها دفعات متتالية و يفرحون مع كل سكان الأرضية و الحلفاء بدحر الحاج هتلر. فجأة سمعت رشقات رصاص و صرخات، بدأت خفيفة ثم سرعان ما تقوت. استرق السمع أكثر. دوى انفجار مخيف، تلته انفجارات متتالية. حين عاد بالعربي وحيدا، شعر بأن الوطن ما يزال حزينا، و أنه بدأ يستكمل شهادته. دفن عظام العائلة المحروقة، كما دفن الكثيرون أحبابهم، و بكى كما بكى جميع المخذولين.

. واش من بابور غرق يا صالح؟

. يا أحميده خويا تعبت. الدنيا ما رحمتناش.

. هل وجدت عملا آخر؟

ـ لا و الله. مازالت على ما تبقى من دراهم الحاجة طيطما. بعد أيام سأعلن إفلاسي.

. إذا تغلقت عليك الدنيا، تعال تخدم معي الربح نتقاسمه.

. الله يكثر خيرك يا احميده خويا. حرام الواحد يطمع فيك.

صمتا لحظة من الزمن، التفتا بعدها صوب النهر و حافته التي امتلأت حماما و طيورا أخرى.

. القهواجي...

صاح ياسين بصوت إستفزازي، في الركن الخلفي للمقهى.

إمتعض صالح بن عامر الزوفري، من هذا الوجه الذي لم يعد يألفه كثيرا و من الطريقة الآمرة التي نادى بها القهواجي.

. قهوة كحلة و تكون ثقيلة. و خف ما عنديش وقت.

لم ينتبه القهواجي بشكل جيد إلى نداء ياسين الآمر الذي كانت عيناه تدوران في محجريهما بشكل مريب. نبهه صالح فقام القهواجي بسرعة. حط له القهوة ثم عاد إلى صالح ليتم حديثه.

. يا خويا يا صالح. الرجاء في الله. يوم لك، و يوم عليك. إذا احتجتني فأنا هنا. اللي كاين نتقاسمه.

ـ في الوقت الحالي، الحمد لله. سأنزل إلى دار البلدية و أستفسر عن اسمي في القائمة. أراضي السبايبي أممت.

. من بعد؟ يديه طوال.

. و يقولون أنهم سينصبون تعاونية بعين المكان.

. عندي شك كبير في نية الحكومة أو من يمثلوها.

ـ إذا ما كانش التعاونية. السد. يقولون بأن الغلاف المالي للبراج أصبح جاهزا و لا ينتظرون إلا التطبيق. و ربي يفرجها بحكاية البراج_ و ننتهي من صنعة الهم.

. يا صويلح خويا، السبايبي ذيب.

. و موح الكتاتبي قافز عليه. عنده كل شيء بالوثائق، ويقول بأنه سيأتي يوما ما و يفضحهم.

ـ القضية مدخولة يا صاحبي. يقولون إنه في عرس ابن أخيه استضاف رئيس البلدية و رئيس الدائرة لتدارس القضية. حتى أغنامه صارت مهددة بالمرحلة الثالثة. و الله يا صويلح ما زلنا صغارا. فالسبايبي غول. كلهم في جيبه.

ـ لا. لو كان عنده كل هذه القوة، ما سكت عن أراضيه التي أممت. ثم ما الذي جاء به إلي يطلب مساعدتي لتهريب أغنامه، إذا لم يكن ضعفه؟

انهمكا في الحديث. و قص صالح تفاصيل الحادث الذي وقع له مع السبايبي. لم ينتبها إلى ياسين الذي كان يتلون كالحرباء و يشخر و يزأر في مكانه. ثم بصق على الأرض.

. العمى. هذه قهوة و إلا زبل؟

صاح ياسين، ثم ضرب الكرسي و الطاولة برجله اليمنى و كسر فنجان القهوة الذي كان عليها. مسح فمه بكم يده اليمنى ثم بصق مرة أخرى و هو ينظر إلى

وجهيهما. انتبه القهواجي الذي لاحظ بأن قاعدة الكرسي المصنوعة من خشب البانبو الرقيق، قد ثقبها ياسين برأس حذائه الحاد.

تسمر القهواجي في مكانه. لم يقل شيئا. لم يحرك ساكنا لهذه الإهانة، و لكنه تذكر شبابه و العربي الذي كسر عوده قبل الأوان. انزلقت دمعة يتيمة متحجرة من إحدى عينيه.

. مزبلة يا ياسين؟ لو كان العربي هنا، ما قلت هذا الكلام.

. واش يكون العربي ديالك هذا؟ ربي؟

. أبدا. كان رجلا. لم يسمع أبدا في حياته كلمة سيئة للآخرين.

. مانيش العربي و نحبش نكون مثله.

استاء صالح من الموقف وهو يسمع اسم العربي يعبث به ياسين. و مع ذلك، حاول أن يهدئ من الوضع الذي بدأ يتوتر.

. ياسين، يا وليدي. عمك احميده كبير، و الكلام الزايد ما عنده حتى معنى. اتق الله.

. أنت ماكان ما دخلك؟

حاول صالح مرة أخرى جاهدا و مقاوما غضبه، أن يخفف من الحدة التي كانت تتصاعد.

ـ تعرف عمك رومل، قطع الصحاري كذئب البراري والبحار التي لا تحد. فهو متعب. احترم سنه و متاعبه على الأقل.

هؤلاء هم أصحاب البراريك، يعيشون و كأنهم في بورديل_ الحاجة طيطما أو الحاجة رقية، أو أحد أحواش سيدي بلعباس. كل واحد يحاول أن يفرض نفسه و قانونه على البقية بأدواته الخاصة. عالم آخر، القوي فيه يأكل الضعيف و الضعيف يلتهم الأضعف و الأضعف يلتهم الأكثر ضعفا و هكذا... كل مجموعة تعيش بطقوسها الخاصة: العمال. المخدرون. الطيبون. المهربون. القوادون. القتلة. كل واحد رمته منطقته الجائعة جاء إلى هذا المكان و استقر فيه. الأحسن للغريب أن لا يتمادى في القيل و القال في الذين يناصبهم العداء إذ يمكن لخلاف بسيط أن يقوده نحو الموت. يحكى مؤخرا، أن غريبا دخل إلى مقهى في إحدى المدن الساحلية و

بقي حتى ساعة متأخرة من الليل. رفض أن يخرج. ألح صاحب المقهى. رفض مرة أخرى. حاول إرغامه فرفض من جديد. استعمل صاحب المقهى القوة فدفعه، أخرج الغريب من حزامه نصلا قديما، و أفرغ أمعاء من دفعه بكل برودة دم، ثم إنزلق بين الأزقة السوداء و الدروب الشقية و لم يلق عليه القبض إلا بعد عدة أيام، و بالمصادفة. كان من الذين سكنوا البلدة متقدمين. فشوهه تهريب المشروبات المسكرة و السبسي_. سكن جحرا مخيفا وضع عليه قطعا من الزنك، بالضبط في النقطة الفاصلة، حيت تختلط البناءات الطينية، بالبراريك التي تمتد على رقعة واسعة جدا. حتى لونجا، فلولاي، و لولا بعض الناس الطيبين، لكانت قد أفترست منذ زمن بعيد. لا أحد يرحم الثاني إذا وجد من أين يأكله.

. يا ياسين الله يهديك. رومل في رتبة والدك.

كان احميدة القهواجي قد دخل إلى البراكة، و عاد، في يده كأس قهوة مضغوطة. كان يدب بصعوبة و يحاول جاهدا أن يصطنع ابتسامة مرتبكة، عاجزة عن تأدية دورها كاملا.

. خذ يا وليدي. هذه القهوة المضبوطة التي طلبتَها. قوية، و تحرك الدم، أحسن من الأولى.

. قهوتك زدها في روحك.

تراقصت عينا ياسين كالذئب. شعر بأنه الأقوى. ضرب كف العجوز بقدمه. فاتسخ وجه احميده و لباسه، و تكسرت الكأس التي سقطت على الكرسي الحجري الذي كان يجلس عليه أحد زبائن المقهى. تدحرج رومل في مكانه و اشتعلت في رأسه صحراء العلمين بكاملها. نظر إلى ياسين و هو في الأرض:

. آه يا يماك لو كان الزمن يرجع عشر سنين فقط إلى الوراء، نوكلك التراب.

ساعده صالح على الوقوف، ثم دفع ياسين بعيدا، فاصطدمت ركبتاه بحافة الوادي، و كاد أن يسقط على فمه. فر الحمام الذي ظل يتأمل المشهد بعيونه الصغيرة. طار في الفضاءات التي بدأت تضيق. تقاطعت الغيوم السوداء التي كانت تظلل المكان بقوة. شعر صالح بن عامر الزوفري، بأن دكنة ما كانت تطوف على

مرتفعات زندل و فلاوسن التي تحتضن بلدة مسيردا المرمية على هوامش الموت. شم صالح رائحة احتراق الأشياء الجميلة في داخله و أحس بلحظة احتضارها.

بدأت الأمطار تتساقط. زاد غليان المعدن الأسود في دماغ صالح. شمر على ذراعيه. لعن الشياطين و ألحق بها الملائكة ثم الدنيا قاطبة و نزلت على عينيه ستائر سوداء قاتمة:

. تتفنطز علي يا كلب الخيام و الملاقي؟

كانت بحة ما قد سدت حلقه نهائيا. لم يعد يرى إلا الظلمة. اختلط الحابل بالنابل.

« من أين جاءوا؟ من أين خرجوا في هذا الليل؟ أين كانوا كل هذا الزمن؟ »

يا ربي سيدي واش هذا الهم؟ يعرض عضلاته علي و على رومل و أنا أتفرج؟ هكذا يا ياسين!! هكذا يا بابا صالح تموت قبل أن تشيخ؟ هكذا يا عود السيسبان؟ لا. أرفض هذا القدر الغبي. ماذا يعني إذا ما عجباتوش القهوة، نهاية العالم؟ لا أدري لماذا و لكني أشم رائحة السبايبي.هذه ليست مصادفة. قد يكون هو من بهذا دفع بهذا الجرو الممسوخ إلى المقهى و المقصود الأول هو أنا. آه يا ولد مريم الحولاء، و راءك الزناتي خليفة و كل لقطاء بني هلال. أعطاك مدينة وسعدا يا لخضر بن موسى مقابل أن تمرغ أنفك على هذه التربة. سأقلم أظافر طمعك وجشعك و لن تمر إلا إذا قتلتني. لحمي مر و لن تمضغه بسهولة. لن تأخذ، لا سعدا، ولا المدينة. فالمدينة الجميلة لفقرائها الذين تعرقت وجوههم من أجلها. و سعدا لمرعي الذي قطع القفار ليصل إلى قلبها. هل يكفيك هذا يا ولد مريم الحولاء؟ ستحصد الموت يا لخضر بن موسى يا دابة الزناتي، الهرمة.

. يا أنا يا أنت يا قواد السبايبي.

. اليوم انحُّي لك يماك.

احمر وجه صالح و غاب كل شيء عن نظره و لم يبق إلا ياسين الذي تراجع خطوتين إلى الوراء. أخرج من حزامه مطوى حادا، لمع بقوة تحت حبات المطر الثقيلة التي بدأت تكبر أكثر فأكثر. خرج الناس من المقهى. حاولوا أن يتدخلوا، لكن ياسين، أحمر العينين منعهم، مهددا بإفراغ أمعاء كل من يتقدم خطوة.

. و حق دين محمد اللي يقرب، ستبكي أمه.

تراجع الجميع و أياديهم على قلوبهم و لم يتجرأ أي منهم على الكلام. كل واحد خاف في النهاية على نفسه. هذا هو الثعلب، ياسين هكذا، كل من اقترب منه ندم على فعله. إذا حط عينيه على أحد، لا يستريح إلا إذا ذله أمام كل أهل البراريك.

التفت نحو الناس الذين تراجعوا تحت تهديده. تقدم بهدوء نحو صالح منحني الظهر، يبحث عن زاوية يفتحها في جسد خصمه، الذي ظل متسمرا في مكانه كالصنم. شامخا كجبل. لكن وجهه الذي كان الدم يجري فيه قبل قليل، تحول إلى قطعة حديد باردة. إنفتحت عروق الرقبة. تقدم ياسين بنفس الحركة البطيئة.

التفت نحو الحاضرين:

. هذا الكلب العجوز الذي حول زوجة الإمام إلى قحبة.

. يا وحد الفرخ، حاب تتعلم لحفافة في ريسان اليتامى؟

حاول رومل من بعيد أن يهدئ من الموقف الذي ارتفعت حرارته و بدأ ينذر بمخاطر حقيقية من الطرفين اللذين وصلا إلى نقطة اللارجوع:

. ياسين يا وليدي، إتق الله. عمك أكبر منك. ثم لونجا ليست قريبتك و لا أختك. أما إذا كان علي فقد سامحتك. و أنت يا صالح خويا...

ثم التفت نحو صالح الذي كان قد غاب و علا الدم عينيه. حتى شعر رومل كأنه كان يصرخ في وادي عميق.

ـ يا صالح، أنت تضرني بهذه المعركة الخاسرة. لا تنزل نفسك إلى مستوى تندم عليه.

لم يقل شيئا و لكن صفرة حادة علت وجه صالح بن عامر الزوفري. زادته الأمطار قسوة و تصلبا و جمودا. كل الأصوات انطفأت من حوله، إلا صوت المطر و الخوف و الحذر من يد ياسين التي بدأت ترتعش و تبحث عن جسده. مد يده إلى حزامه. سحب الزرواطة بيد ثابتة و باردة.

سأواجهك كما كان يفعل بعض أجدادي ولن أكون بخساسة دياب الزغبي. عمرك أو عمري. سأدافع عن نفسي حتى الموت لأنك أنت طلبتني. سيكون لك ما تريده. لن أدعوك إلى صيد الوعول و الغزلان البرية. فالسواد قد وقف بيننا. لا شهباء لدي و لا خضراء. لن أدفعك أمامي ثم أصيح منكسرا أمام رجليك: خذها؟ و تلتفت أنت

إليَّ مذعورا، فتجد في يدي سنبلة. و أكرر اللعبة معك ثلاث مرات، و في المرة الرابعة أصيح وراءك. تظن أنها لعبة. ألكز الشهباء، فتطلع كالريح الساخنة، و حين تقترب منك، أقهقه عاليا و أسحب دبوسي، و أضربك على الرأس، ليطلع مخك فتتلوث به ملابسي و سرج الشهباء الحريري. تشهق الشهقة الأخيرة و أنت تتأمل سذاجتك. الحرب خدعة يا ولد الناس؟ لقد سبقني إليها بنو دريد و بنو زحلان. لا يا ياسين لن أكون بخساسة دياب حين فجر دماغ أبي زيد الهلالي. لن أتيح لك هذه الفرصة ليسخر التوناني و أتباعه من تاريخي. أنا لم أطلبك. أنت الذي طلبتني. عضلاتك شابة. لكن عيوني المتعبة رأت صغارا كثيرين من أمثالك.

. تتفنظز علي يا واحد الفرخ؟

ارتعشت الزرواطة في يد صالح. اسودت الدنيا في عينيه. لم يعد يرى إلا الأشكال السوداء، و عيونا جاحظة، و مطوى حادا يلمع بقوة، و أمطارا غزيرة تقف بينهما.

هجم ياسين هو الأول، بكل قواه، كالوحش المجروح. كانت عيناه مثبتتين على عروق الرقبة التي كانت تنبض بقوة. كاد أن يختم وجه صالح الزوفري بجرح أبدي. تلافى الحركة، فجُرِح في ذراعه الإيمن جرحا بليغا. شعر بنوع من الوهن. و قبل أن يلتفت أحمر العينين كما يسمونه في البلدة، مرة أخرى ويعيد الكرة، هذه المرة من الظهر ليصيبه في عروق الرقبة، كان صالح قد أدرك بأن ياسين يريد ذبحه. دار في مكانه لتفادي الضربة القاتلة وعالجه برأس الدبوس على دماغه فاحمرت عيناه و وجهه. نظر إلى رومل بحقد و بعيون متعبة. دار قليلا. رأى كل الوجوه تغادر أمكنتها. تدحرج في الدائرة التي رسمها بنفسه. و قبل أن يرفع رأسه، كانت الضربة الثانية قد لوت ظهر ياسين، فانعكف كشجرة يبست في مكانها، وهوى على وجهه.حاول أن ينهض، لكنه قبل أن يرفع رأسه، وضع صالح ركبته على صدر ياسين، و أخرج سكينته الحادة التي لم يخرجها في وجه أحد منذ انتهاء الحرب الأخيرة. ثم قبض بقوة على رقبته. كانت عينا صالح تتراقصان، و وجهه يرتجف بينما خزرات ياسين تتهاوى نحو العدم. و قبل أن يجهز عليه، قبض رومل على يده بكل ما تبقى له من قوة.

. لا يا صالح مش في المقهى الذي خسر العربي عمره للحفاظ عليه. الله يرضى عليك و عيني الميسردية.

رن في أذني صالح اسما العربي و المسيردية، فشعر فجأة ببرودة تبدأه من أعلى الظهر و تنزل إلى الأسفل. التفت نحو القهواجي. كانت عروق عينيه فد احمرت و صار من الصعب إقناعه أو الحديث معه.

. و ما دخلي في رب هذا المقهى؟

ـ العربي خسر عمره فيه. اتق الله. الكلب كلب. لا تلطخ كفيك بدمه. في المرة القادمة سأذبحه أنا و ليس أنت. أرجوك.

. حرام أولادي نمحيه. تبكي أمه و لا تبكي لونجا.

. ما يلحقش لونجا حتى في حذائها. لا تكن أحمق.

كان رومل ما يزال يشد على يد صالح. شعر ببرودتها و صلابتها و نبضها الذي ما يزال حيا على الرغم من السنوات العجاف التي لم تنجب الشيء الكثير غير كذبة الاستقلال و القتلة الذين تربوا في حضن الثورة.

. يا صالح أرجوك. لونجا تنتظرك.

. لونجا ليست لا وحيدة و لا يتيمة.

. عارف و لكن أطلق رقبته، لقد خنقته. الله لا يرده.

لا. لونجا شيء آخر. معدن صاف كماء العين. لن تكون سعدا ابنة الزناتي خليفة التي تقاسم مصيرها أمراء بني هلال. وضعوها في آخر الميدان و اتفقوا على أن من يصل الأول ستصبح ملكه. و جرت الخيول، و كان دياب هو السابق كالعادة متبوعا بأبي زيد، فالحسن بن سرحان، فالبقية. قلب دياب كان أسود كالقطران. هوى على وجه سعدا، فشقه نصفين. لن تكون لونجا هي سعدا يا رومل خويا. للونجا من يحميها، ومستعد أن يمنح ما تبقى من عمره فداء لها و لعينيها. وحق ربي الذي ينسانا أحيانا، تبكي أمه و لا تذرف هي دمعة واحدة من عينيها. لن يتقاسم لحم لونجا ملوك العجم و لن تتحول إلى مارية المسبية. آه يا ياسين يا ابن الكلب؟ لن أتيح لك حتى فرصة التحول إلى الخرمنذ، لتجبر عيون الماريا المسبية، ابنة القاضي بدير، على النظر في قسمات وجهك الرخيص.

لن يحدث هذا أبدا. أبدا. و ليأتِ الهلاليون بكل تاريخهم إذا شاؤوا. ستبقى لونجا في حمايتي حتى و لو اضطررت إلى تحمل زعل أخت الحسن بن سرحان، الجازية.

شعر زومل بيد صالح ترتخي شيئا فشيئا.

ربت على كتفيه من جديد. كان الناس ما يزالون مندهشين لحركات صالح الزوفري، و خفته التي لم يفقدها على الرغم من الشيب الذي علا شعر رأسه. نهض صالح من مكانه واضعا يده على جرحه. تنفس ياسين الصعداء. تحسس رقبته التي كانت ما تزال في مكانها.حاول أن يتكئ على مرفقيه و يقوم من بركة الوحل التي غرق فيها و لكنه لم يستطع. ساعده الحاضرون. كان متسخا كدابة هرمة تمرغت في الوحل. عندما وقف، ترنح في مكانه قليلا قبل أن يسترجع رشده. كان صالح قد ابتعد قليلا عنه. نظر إلى الشيخ بعينين تتطايران حقدا. بصق على الأرض، واضعا يديه على رأسه الذي ظل ينزف.

. الأيام... بينـ...نا... يا صا...لح...

. لو كان مرة أخرى نوجدك في طريقي، أنزع لك رقبتك.

مشى ياسين قليلا. التفت وراءه. بانت له جثة صالح، أكبر من اللازم. لم يقل شيئا. تدحرج بتثاقل نحو البراريك. تمتم صالح في أعماقه و هو يغسل يديه و وجهه و يشد جرحه بالكتانة التي جاءه بها رومل:

. و الله لو كان ما القهواجي، كنت باصيت._

تفرق الناس. خلت البرابكة. أصبحت كجوف باخرة مهجورة على شاطئ مقفر. أصلح الزوفري من هندامه ثم تهالك على كرسي عتيق. تنهد بعمق.

. آخ يا القهواجي خويا. يأكلونك حيا إذا بقيت ساكنا.

ـ يا صويلح ما بقى في العمر قد ما فات. راها لهم، فليفعلوا بها ما يشاؤون. يحرقونها إذا أرادوا.

. قهوة تبرد جنونك هذا.

. إذا حبيت.

هه. هه. يا بابا احميده، قلتُ لك من زمان لن أكون أبا زيد الهلالي، فأرسل لدياب الزغبي قومي و أعياني، ليأتوني به من بلاد الحبش، هو وعشيرته. بعدها

أعطيه ظهري ليغرس مسامير دبوسه على قفاي. لا يا بابا احميده. ياسين ذئب، و مهادنة الذئب خطأ. حين يؤول الأمر له، تأكد أنه سيمزقني، و يمزقك أمام الملأ. لا تخطئ يا رومل فصحاري العلمين التي أكلت شبابك لم تكن طيبة معك ولولا شجاعتك و شجاعة الذين كانوا معك، كانت قد التهمتك مع آليات رومل الذي سدت حنجرته رمالها.

. الصبر يا صالح و الواحد يكبر قلبه.

ـ الصبر يدبر يا خويا. الدنيا، يوما عن يوم، تزداد شراسة. وأولاد الكلبة يستعرضون علينا عضلاتهم. الجنازات تكاثرت بشكل مخيف يختطفونها من أفواهنا. حرام يا خويا احميده أيتم لزرق و لونجا بسبب كلب أجرب؟ لا. أنا نفسي بدأت أقرف من هذه المهنة. عندي نية لتركها أو ترك رب هذه البلدة التي أخذت منا كل شيء، و لم تعطنا إلا الخيبة و الحروب التافهة. و لا تتصور أني سأندم.

. قدامك البراج.

قالها حميدا، و هو متكئ على خشبة عتيقة، يحضر القهوة على الببور لتحافظ على نكهتها الأصلية.

. ننتظر. على الله يكون الكتاتبي قد قال الحقيقة.

ـ جرب يا صالح. جرب. لن تخسر شيئا. هذا ما قلته دائما للعربي، لكن رأسه كانت دائما خشنة.

تمتم صالح و لم تسمعه إلا الحمامات اللواتي بدأن يعدن الواحدة تلو الأخرى إلى حافة الوادي في انتظار فتات الخبز.

« . ماذا فعلت منذ مدة غير التجريب يا رومل خويا؟ »

سأقتحم الخوف. سأنزل إلى البلدية و سأقول كلمتي، سآخذ حقي غصبا عن أولاد الكلبة الجرباء. يقولون بأنهم سيعزلون رئيس البلدية لأنه متورط مع السبايبي في قضايا تهريبية، وربما سيطردون حتى الكتاتبي، لكنهم يحسبون حسابات كثيرة قبل الإقدام على حماقة مشابهة. عمرهم بين يديه. لم تبق إلا أنت يا خويا احميده السطايفي، القهواجي الطيب، من تراث هذه البلدة التي تحترق يوميا. الوضع قاس والناس بدأوا يتوحشون كالحيوانات الضارية. و أنا يا صديقي ليست هذه مهنتي أبدا.

خلق البراريك غير متجانسين. كل واحد جاء من منطقة. سمعوا بحكاية إنجاز سد بمسيردا فجاءوا من كل فج عميق. من عنابة، سيدي بلعباس، القبائل، الصحراء، وهران، وسكنوا هذه البراريك الممتدة على مرمى العين. و مع كثرة الإنتظار تحول أكثرهم إلى تعاطي الحشيش و التربااندو و الحياة الرخيصة، و الربح السريع، و إلى بنات سيدي بلعباس و شيخات_ سعيدة. حتى أنا سقطت في مهنة تعسة لم أطلبها. آه يا خويا يا احميده، لا أحد يعرف قيمة شيخوختك المبكرة. ذات فجر بارد سيدخل فيك أحدهم نصله الصدئ، مع أنك حاربتَ الألمان حتى سقطت أضراسك، و تعبتَ، و دخلتَ مع رومل حربا، خرجت منها منتصرا، و كان أن دفعت أبناءك ثمنا لهذا النصر. أنت طيب يا احميده القهواجي. ما تزال في قلبك تنبض بقايا عظام الشهداء الذين سقطوا في العراء و لم تعرف أمكنتهم. لنا ضمائرنا يا صديقي. حتى الله، يبدو أنه قد نسينا في هذا الربع الخالي و تركنا نتخبط وحدنا بتعاسة.

. استغفر الله.

ـ اشرب يا خويا صالح. اشرب. الدنيا قاسية، صحيح، لكن من كان يقول أن الحاج_ ستأكله رمال العلمين؟

ضحك صالح، شعر في أعماقه، بطفولة غير عادية تعود إليه، تجرى في دمه بحرارة.

. الحاج كان عبقريا مجنونا. النملة كي تطعى تتريش لتصبح طعما للطير.

. ...

حين رشف أول قطرة من القهوة، شعر بالدفء يسري في اعماقه و بأعصابه تهدأ أكثر فأكثر. انتبه إلى الأمطار التي قويت حتى تحولت إلى خيط من السماء و بدأت تتسرب من الثقوب نحو عمق براكة القهواجي لتحول المقهى إلى بركة مائية. مما دفع بالقهواجي إلى تغيير أمكنة الأواني و شكارات الحليب و الخبز و السكر ليضعها في مكان آمن، على قطع خشبية و غطى الكل بباش من البلاستيك.

. ساعدني يا صالح خويا و إلا سيفسد كل شيء.

نهض. كان يشعر بإنقباض في صدره و في أمعائه. و بآلام حادة في ذراعه الأيمن الذي كان جرحه ما يزال ينبض.

. هذه هي الدنيا يا رومل، مليحة و إلاَّ مش مليحة. مجبرون على عيشها و بعدها ربي يفرج.

. أنا فرحان يا صالح أنك كنتَ رزينا.

. يا خويا هذا هو أنا. كلني و ما تحقرنيش. البرد.

دخل رومل إلى عمق المقهى من جديد و جاءه ببرنسه الخشن. شعر بدفء كبير. جلس على الحافة يتأمل الوادي الذي كان ماؤه يصعد و يفتت الخبز للحمام الذي كان يأتيه مجموعات مجموعات، قبل أن تهجم عليه النوارس و مختلف الطيور الصغيرة.

-3-

بدأ يتعرق على غير عادته.

رآها وسط تلك الضبابة الكثيفة التي تشبه غيمة الوحي، تمد يدها المرتجفة نحوه. كانت يدها منحوتة كالشمعة. مد رؤوس أصابعه لها ببطء و بحركة مسكونة بالرعشة و الخوف. لم يكن وجهها واضحا و لكنه عرفها من هيئتها، لا يمكن أن تكون أحدا آخر غير الجازية. هو يعرف وقتها. كانت تجر وراءها ظلال خيول و أحصنة متعبة من كثرة الحروب.

تتعالى سحب الدخان متعرجة في الهواء. تتلوى كراقصة آلمتها لحظة الإشراق التي شعرت بها في آخر الرقصة. تمتلئ الحجرة بالروائح المختلفة، المختلطة. يغيب وجه صالح و تذوب نظراته في أفق بعيد لا حد له. تتكاثف سحب الدخان المتعرجة و تتعالى. ينشق الحائط العتيق. تتآكل على أطرافه ألوان الجنة التي لا حصر لها. تحاول عبثا أن تكتم فرحتها التي تشعر بها في مثل هذه اللحظات الإستثنائية و الغريبة.

فتح صالح عينيه أكثر بمشقة كبيرة. كانتا ثقيلتين.

هو ذا وادي الرشاش يفيض دما على غير عادة الوديان، ساحبا في طريقه جيادا عربية و خياما لا تحصى ووجوها مندهشة مما كان يحدث أمامها قبل أن يجرفها الموت، و جثة ابن أخت الزناتي خليفة، العلام بن غضب، و جثث الأربعة و عشرين أجيرا، و آلاف الجند الفقراء الذين دخلوا غمار الحرب و هم لا يدرون لماذا سوى أن الحرب ستمنحهم فرصة أخرى للحياة.

« هكذا تأتين هذا الشكل الفجائي؟ لقد يئست من مجيئك. كأنك غضبانة مني يا أخت الحسن بن سرحان؟ »

لم أكن أفهم الشيء الكثير في ما كان يحدث أمامي.

ماذا يمكنني أن أقول؟ فأنا عاجز عن فهم هذه التحولات. لماذا يا ربك أدخلت أنفك في تلك التفاصيل يا أبا سعدا؟ صحيح أنك طيب أيها الرجل المغربي، لكنك

عاجز عن مقاومة قبيلة قادها الجوع و البرص والتيفوس لتتحول في النهاية إلى طامع في أملاك قبائل أخرى. من الجوع للفنطازية و السلطان. أبواب المدينة الحديدية عاجزة عن صد هجمات الجنود المتوحشين يا صديقي. الشجاعة يا أبا سعدا، أيها الرجل الكريم، لا تكفي، و لا حتى الطيبة في عالم غير طيب.

يتصاعد الدخان بكثافة مموها كل الأشكال ، مصحوبا برائحة خمرية لا تقاوم تحولت في النهاية إلى رائحة امرأة ناضجة خرجت من الحمام في اللحظة ذاتها. ينهار الحائط الثاني الذي كانت حجارته تتكئ على جذع شجرة قديمة. يطلع من وراء صخوره البركانية جسد نحيف يقترب من الهيكل العظمي، ولكنه ليس هيكلا عظيما. تأخذه رعشة المكان. خيل إليه أنه رأى قبل لحظات وجها مشرقا ولكنه غاب وسط الأدخنة، و هاهو نفس الوجه يعود و لكنه يبدو يابسا كحطبة مهملة. يهتز الجسد في مكانه. يسمع صالح أصواتا غير متناغمة و ضجيجا كبيرا و أوامر كثيرة. يخاف. الدخان يتعرج و يتماوج في الحجرة الضيقة التي انهارت بعض حيطانها.

« أعرفك يا أخت الحسن حينما تأتين؟ »

تبدأ الضبابة الكثيفة في الانسحاب شيئا فشيئا. يجري الدم في الوجه اليابس ثم في كامل الجسم. تستقيم العينان المكتحلتان اللتان صارتا تشبهان اللوزتين. و تلمع حمرة الشفتين المكتنزتين بقوة. تمتم صالح: ثمة يد خفية تصنع جمال هذه اللحظة. ثم ينزل الشعر كشلال قوي من الأشعة، من أعلى الرأس. ينسدل ممتدا حتى الركبة ثم ينسحب على الأرض كثعبان صحراوي. رائحة مسكرة، مدوخة تتضوع منه. الدوخة التي تصاحب عادة عودة الجازية من الحروب القاسية و المؤلمة.

. مساء الخير يا زين الرجال.

. خوفتني. مجيئك هذه المرة كان غريبا. كدت أن لا أعرفك.

. الجازية يا صالح. الجازية التي سقط تحت قدميها الدهام فارس بني زغبي.

. تأخرتِ كثيرا. اشتقت إلى وجهك.

ـ الحرب و اليتامى لا يتركون الوقت الكافي لزيارتك و البقاء معك قليلا و مقاسمتك أشواقي و أحزاني و همومي التي صارت تتكاثر علي. أنا كذلك يعز علي وجهك و لكنها الدنيا.

ارتجفت الكأس في يده.

أحنى رأسه و هو يسمع إلى أحزانها. سحب من سجارته التي لفها من جديد، نفسا قويا أحس بأدخنته تجري في عروقه و تختلط بدمه. شعر فجأة بعينيه تحرقانه و بقلبه يزداد اتفاخا و ألما.

« ياه؟ الجازية تأتي في وقت كل شيء فس صار حطاما؟ »

الجازية أيتها النبية الهلالية التي لم تبع أشواقها للقتلة، سحبوك من ربوع مكة، وطافوا بك مرابع و منتجعات بلاد المغرب المتعبة. أخوك كان طيبا لكنه كان خائبا و لم يكن شهما كوالدك. كانوا أقوى منه ألف مرة. لعبوا له لعبة الغولة. فالملك يا الجازية يطير العقل. قطعوا بك أهوال بلاد نجد، و مصر، و العراق، و حلب وأجبروك على ابتلاع الآلام و الانكسارات و مباغتات الأسفار التي لا تنتهي مسافاتها. ويوم فقدتِ مبرر عيشك معهم في بلاد الموت، و كانت مضارب بني هلال قد تمزقت، و جروحهم تنزف، و سيوف دياب الزغبي تقطع الرؤوس بدون حساب و لا خشية، بكيتِ دمعتين على جثث الميتين ثم ركبتِ جوادا أصيلا و هربتِ مع غفير اليتامى. حرقتِ أملاك أخيك وعدتِ إلى التربة القاسية، تتدفئين بحطب الغابات و الخلاء الموحش، وأقسمتِ في سرك، أن تطحني دياب الذي قطع رأس الحسن بن سرحان في غفلة منه. و حين كان أهلك يتحاربون، كنتِ تشعرين دائما أنها حرب قوادين وسماسرة و تجار أسلحة و مخذرات. حين تيأسين من محيطك المتهالك، تنتابك غربة باردة، قاتلة تدفعك أحيانا إلى التفكير في الانتحار. فالملك يا الجازية شيطان، فرق بين أهل القبيلة الواحدة. أهلك غزوا بلاد المغرب و قاتلوا سكانها، ثم قاموا بتصفية أنفسهم بأنفسهم. حتى أبو زيد الذي اتكلنا عليه كثيرا، لم يكن أكثر من مهرج سياسي صغير، رضع من حليب الملوك. ذاق حلاوة بلاط الملك، فلم يستطع لحظة واحدة ترك أثداء بلاد نجد. كانوا مرضى السلطان، و كنتِ الطيبة الوحيدة، و لهذا حزوا رقبتك عندما اخترتِ مسالكك الخاصة.

دمك يا الجازية كان عزيزا.

. واش بك ساكت يا بابا صالح؟ كلمني مثلما تعودتَ أن تفعل معي و أنت مشدود إلى عزلتي و حزني. كلمني.

ـ أحبك يا الجازية و حبك أتعبني. يخيل لي أحيانا أني ملتصق بغيمة و ليس بامرأة أحبها و أشتهيها. لست أدري هل ألومك أم ماذا؟

. إفعل ما تريد. أنا اليوم هنا لأجلك وحدك. لقد طهر الدم النازف قلبي. لم أقاتل من أجل الملك. كان بيني وبين دياب دم لا يمحوه إلا الدم.

. دياب كان أقوى. كان طاغية.

ـ و مع ذلك، سقط و بقيت أنا. حتى بلاد الأحباش لم تستطع حمايته من الميتة الرخيصة التي هيئت له.

انتهت اللفافات التي كان صالح يبرمها الواحدة تلو الأخرى. شعر بأنسام خفيفة تصعد من أنفه إلى دماغه. انتعش قليلا. تحول وجه الجازية الذي كان يراه برتقالي اللون إلى تفاحة حمراء مغرية. تفرقعت الجمرات التي كانت عند قدميه. تحسس وجهه. لم يشعر بالزغب الذي نما بقوة على صدغيه. في لحظة ما لم يستطع فهمها، أحس كأن قامة الجازية الفارغة، توقف دورته الدموية و تأسر عيناها كل حركاته.

« عندك حق و كان القتلة صغارا. أقسم يا الجازية، أنك كنتِ الأعظم هذه المرة. والأقوى. صحيح أنهم قاتلوك حتى قتلوك، لكنهم حين رشقوا سيوفهم على ظهرك، تفسخت لحظتها جثثهم، و تفتت عظامهم، و لعبتْ ريح الشتاء بنثار أجسادهم حتى غيبتها في حفر العدم. و أنت هي أنتِ لا أحد يضاهيك يا ابنة سرحان.»

حين طلبتِ أن تُرفع السيوف عاليا و ترشق في الهواء إيذانا ببدء المعركة، رفض الدهام أن يحاربك لأنك إمرأة. عيناك إمتلأتا بالدم و النجوم التي لا تنطفئ. جرت بينكما معركة الدم و تقاتلتما، حتى حان عليكما الحين و زعق فوق رأسيكما غراب البين. كان وقتها ملوك الهلاليين يحاولون امتلاك الشرق كاملا ليصبحوا فيه سادة حاكمين. و يهتكون حدود بلاد المغرب التي أفل نجمها فجأة. كنتِ واجمة تنتظرين حركة الدهام الذي رفض أن يحاربك. شعرتِ بثقل الدرع في يدك. الهجمة الأولى لم تأتِ بشيء، فقد تفاداك و هو يسخر من أنوثتك و رخاوتك، و لكن الضربة الثانية المفاجئة كبرق يوم عاصف، فصلت رأسه عن بقية جسده. كان حصانك يريد المزيد

و كنتِ تعلنين عن نهاية الحرب. دافع الهلاليون عن الملك، و دافعتِ أنتِ عن الحق و اليتامى و الدم الضائع.

« الدهام؟ يستاهل. جابها في روحه. لم يكن يعرفك. »

ياه يا الجازية؟ من علمك كل هذا الحرص في المواجهات أن تعطي دائما الفرصة الأولى لخصمك لكي يتراجع و يراجع نفسه قبل أن يُقتل. الدهام قرأ ذلك ضعفا فيك و لهذا سخر منك طويلا و قهقه كثيرا و قبل أن يرفع عينيه نحوك و يسدد ضربته القاتلة، كان رأسه قد طار.

اللثام الذي كان على وجهك زاد من جمالك و من دهشة أعدائك، فانتصرت حتى و أنت تتهاوين مضرجة على التربة التي ساقوك إليها مرغمة. طلبتِ مبارزة دياب الذي سرق منك روح أخيك. بلثامك، ظنوك مخيبر بن أبي زيد، لكن مخيبر كان قد مات في بلاد الكوع. حاول حمزة بن الأقرع مداهمة صدرك الشامخ، النافر كفرس جموع، فثقبت صدره برمح لا يلين، صلب كأحجار الوديان التي أجبرت على قطعها. و حين خرج دياب و هو يهز جثته الثقيلة، شعرتِ كأنك أمام جبل. طلب منك أن تزيلي اللثام لأن نفسه، كما أدعى، تأبى محاربة من لم يعرف حسبهم و نسبهم.

إرتجفت أمعاؤه حين داهمه إتساع عينيك الآسرتين.

قهقهة كعادته قبل الدخول إلى أية مبارزة. كنتِ مندهشة في طوله و عرضه، كأنك تكتشفينه للمرة الأولى. و قبل أن تخرجي من سهوك و تنتبهي أنك أمام طاغية و ثعلب خادع، كان نصله قد شق جبهتك و صدرك، فتفجر نهداك بالدم مختلطا بحليب الأمومة المحروقة. لكن اليتامى قتلوه حتى قبل أن يخرج نصله من صدرك.

. كان يعرف جيدا أن الانتصار تحدده الضربة الأولى.

ـ لا يا صالح. عند الرجال و المحاربين العظام، الضربة الأولى فرصة تُعطى للشخص للتراجع و رفع العلم الأبيض.لو قاتلني برجولة و سقط أحدنا كنت أحترمت شجاعته، لكنه لعب لعبة الغدر، فهزم نفسه من حيث لا يريد.

. لكنه حرمني منك.

. و هل حرمنا حقيقة؟ ها أناذي معك. في أحضانك أقص عليك متاعبي.

. كنت أريدك من لحم و دم. امرأة و ليس مجرد غيمة.

. الموت هو الذي صنع لي هذا القدر الجديد.

. أحيانا أزعل منك. ألم تجدي غير بغل...

. لماذا سكتَّ؟ أكمل. بغل الهلاليين أبو زيد الهلالي.

ـ لست زعلانة منك. أنت تخطئ يا صالح في حق الناس. أبو زيد ليس بغلا. أحببت شجاعته. كان بطلا مغوارا و لكنه كان مرتزقا، هذا كل ما في الأمر.

. كيف تجتمع البطولة بالارتزاق.

. أنت تعرف أن الإنسان ليس من السهل تقييمه. مثل الريح و الهواء، كلما حاولنا القبض عليه، ازداد ضمورا و انتفاء.

. أنتِ تبحثين له عن أعذار و تتعاطفين معه.

ـ معه لا. ربما تعاطفت مع ماضيه. لكنه خان الملح و محبة الفقراء ودخل لعبة الملك حتى العظم. لكن صدقني أنه كان رجلا مقداما. بفضله سقط جبروت الزناتي خليفة. لولاه لما تشجع أبو وطفا دياب بن غانم و معه سلكنا أنهارالبلاد الغربية و فتحنا الأبواب الموصدة و المراعي المقفلة في أوجهنا. حماقته لكبيرة أنه سجن دياب سبع سنوات بسبب الملك. و حين بكت نوفلة أخت دياب عند أقدامه أطلق سراحه ليأكل هذا الأخير له رأسه و يتحنى بدمه. عندما فتح أبو زيد الهلالي عينيه لم يستطع أن يحرك رأسه، لأن أكثر من مئة مسمار من دبوس دياب كانت مدفونة فيه. مات و هو لم يصدق أن إخراج دياب من السجن كان خطأ.

. أنا لم أسألك عن كل هذه التفاصيل.

ـ لأني أحبك يا صويلح بن عامر. لأنك من دمي. دم الأيتام. فأنت واحد من يتامى بني هلال الذين هربوا معي حين تيتمت فعشقتك بشغف.

. و ماذا يمكن أن تفعلي من أجل ناس البراريك؟

. الموت معك و في صفك إذا كان و لا بد.

ـ كلامك يا الجازية كبير في هذا المساء. قريب من كلام الأنبياء والشهداء. لكن... بغل الهلاليين...

. أنت مصر على قتله ثانية و أنا لا أملك شيئا آخر لإقناعك.

ـ الذي أعرفه، أنك تجرأت و تخاصمت مع عليا ابنة غانم زوجته و قلتِ أنك نحبينه و من بعد؟ بكتْ كثيرا. لكن كلب نجد المخصى رفضك و تنكر لك تماما. حتى حين طلب غانم رأسك لم يدافع عنك أبدا. لم يدافع عن حبه على الأقل. و عندما أصبحتِ قاب قوسين أو أدنى من الموت، هربتِ. و عندما حاكمك القاضي بدير خرجتِ بيضاء ناصعة مثل الثلج. مع أن سيوف الهلاليين كلها، كانت مشهرة لقتلك بتهمة إهانة ابنة سيد القوم غانم.

ـ يتعبني حبك يا صالح، و تتعبني أنت أكثر لأنك لا تعرف أن تنسى. لو فعلت ما تفعله أنت معي لانتحرت. كل واحد فينا يخطئ. لا تنس أبدا أني أخت الحسن بن سرحان، و ربيت في جو الإمارة و الملك و العز و كان على الآخرين احترامي على الأقل من هذه الناحية.

. و هذا عيبك.

. ليس عيبا، إذا كانت رغبتي كبيرة في عشق فقراء بني هلال. أنا لم أطلب شيئا لي. كل ما طلبته كان من أجل الآخرين.

نظر صالح طويلا إلى وجهها المنكسر. أحس بحرارة في عمق عينيه. كانت بعض الدمعات قد اندفعت بقوة إلى الخارج مليئة بالأسئلة المعطلة و الأحزان و الأشواق المنكسرة.

. الأفضل أن أصمت. كأسك يا ابنة سرحان.

. كأسك يا ابن دمي و لحمي.

اليد في اليد و الخد على الخد، شربا سبع كؤوس متتالية و غابا.

هبت الريح بقوة في الخارج. انفتح الباب الخشبي العتيق. تناثر الرماد من المجمر. تعالت الأدخنة التي صارت الآن رمادية و داكنة. مسح عينيه بصعوبة. شعر بالجازية حزينة. حزينة كما كانت يوم سقط أخوها و مثلما جاءته أول مرة.

مدت يدها نحوه، ثم سحبتها بهدوء و انسحبت وسط الأدخنة و الضباب. انغلق الحائط المترهل. تشابكت شقوقه ليعود إلى وضعه القديم. فصلت بينهما الأحجار الباردة و لم يعد يسمع إلا صوت الأرياح و صهيل الجياد، و الجازية و هي تأمر اليتامى بالرحيل إلى بلاد الكوع.

فتح كيسا جديدا من التبغ الطبيعي. سخنه قليلا ثم طحنه في كف يده. برم لفافة و أشعلها. ملأ فمه بالدخان و النبيذ من جديد. أحس بتيار بارد يتحرك في دماغه. فتح عينيه. رأى الفراش الموضوع في فوضى في أحد أركان الحجرة. سمع خشخشة الجرذان و هي تتحرك في السقف وفي زوايا أخرى لم يستطع تحديدها.

. شربت بزاف يا بابا صالح.

هي؟ الجازية؟ ما الذي عاد بها مرة أخرى؟ حاول أن يقوم من مكانه و لكنه لم يستطع. فتح عينيه. ليس صوتها. نظر إلى الساعة. متأخرة جدا.

« ماذا ينتظرني غدا؟ هلاك أكيد. الترابأندو. صنعة النحس. آخر مرة و سأتركها. سأتوقف. »

إتكأ على الحائط. أغلق الباب الخارجي الذي فتحته قوة الرياح. ثم عاد إلى مكانه الأول ليلف سيجارة جديدة و يفرغ كأسا أخرى يسخن بها رأسه و أمعاءه. تذكر وجه ياسين. بان له حقودا، قطعة حديد يابسة مثل وجه دياب الزغبي.

« الحمد لله أني لم أقتله و إلا ليتَّمت الجازية و لونجا. »

مر جرذ أمامه. فكر في قتله، لكنه قبل أن يلغي الفكرة، كان الجرذ قد دخل بين شقوق أحد الصناديق الخشبية الضيقة التي يخبئ فيها عادة المشروبات الكحولية.

. أفضل أني لم أقتله.

كانت عيناه حمراوين من كثرة الدخان و الشرب. لم يلعن ياسين كما تعود، و لكنه، حاول أن يجد له مختلف الأعذار. و صمم في داخله، أنه لو يلتقي به مرة ثانية سيطلب منه أن يغفر له حماقته. و يضعه تحت ذراعه كأحد أبنائه الصغار و يجري به حتى التعب. مع علمه مسبقا أن ياسين حين يهزم، يتحول إلى كلب غادر. يتحين كل الفرص للانتقام ولو دفعه ذلك إلى المرور على جثة خصمه.

« . أنا لم أظلمه و لكنه ظلم نفسه. »

دافعت عن نفسي ليس أكثر. و كل الناس يعرفون ذلك. جرحني. مطواه كان حادا، لكن الحمد لله لم يختم وجهي بتشويه أبدي. كان يريد رقبتي و لكني أتقن جيدا هذه اللعبة و أعرف مخاطرها. كان الهلاليون، أجدادي يتبارون في ذلك، من يصيب صاحبه في الرقبة تماما أو الوجه.

تحسس الجرح الذي في ذراعه. شعر بألم خفيف.

إتكأ على الحائط من جديد. نهض بصعوبة كبيرة. أنزل بندقية الصيد التي كانت معلقة. حاول أن يتسلى بتنظيفها للمرة المئة بعد الألف. كان ذلك دليل أعصاب أكثر منه دليل متعة.

قلب البندقية بين يديه و هو يتذكر الملاحظة التي وضعت في ملفه: Elément dangereux. السي محمد بلخير كان يختلف في هذه عن المصطفى بن براهيم. الأول كان شاعرا شعبيا و خيالا لا تعرف بندقيته الراحة و عاشقا في فمه عسل و شهد الكلمات. الثاني، كان قوادا أقبح من أبي زيد. زانيا بغيا. من سلالة القياد. يركب رخلته، يجوب شوارع سيدي بلعباس، و يوهم الناس بأنه خاتم أنبياء الشعر و المقاومة. في هذه النقطة يختلفان. يختلفان كما تختلف هذه الخلائق البسيطة عن السبايبي. الفنطازية و الإجرام العلني.

مد يده إلى الزجاجة. صب كأسا أخرى. و دخن بتلذذ كبير لفافة تبغ أخرى. شعر بحركات يديه تزداد خفة و حياة.

كانت الجازية تلبس لباسا خفيفا و لكنها كانت منكسرة. صدرها يفيض شبابا و شوقا و حنينا. لو تلمسها يد عاشقة تتهاوى كالورقة في مهب الريح.

« كيف جاءت؟ كيف رجعت إلى بلاد الكوع. إنها الدنيا يا صويلح. سائر دائرة. كبر قلبك و علمه الصبر و السلوان.»

شعر بالنشوى و الدفء يصعدان من أخمص قدميه حتى شعر رأسه، فتململ في مكانه بعياء، و بالبرد الساخن يتحرك داخل أعضائه، و باللذة تشتعل وسط هذا البرد الشتوي.

ـ لو يفيض الوادي سيهلك الزرع و الضرع. البلدية المبتئسة لم تتخذ أي احتياط. ناس مسيردا، في كل شتاء يرتعدون خوفا من النهايات المفجعة. التربانـدو ياكل الناس، والوادي يأكل الخيرات و الديار و كل واحد يقول مش أنا، ربي هو المسؤول، هو الذي أراد. يا أبناء الكلب و أنتم ماذا تفعلون في تلك المناصب؟ أتركوا الله يسير البلاد إذن.

مد يده نحو المجمر المتقد بجماره الحية. أشعل لفافة جديدة من تبغ الشعرة الطبيعي. صب كأسا أخرى. لم يعد يتذكر العدد، مع أنه في البداية أقنع نفسه بأنه لن يزيد على عشرة كؤوس. و مع شعوره بخفة وزنه، أحس برغبة ملحة في البكاء حتى الصباح. الوحدة. البرد. الزلط_. الموت الأزرق. الوجوه الأليفة. هذه التحولات و هذا الحنين للجازية الذي بدأ يقوى لديه في الآونة الأخيرة.

« آه يا ربي العالي، لو لم تكن قاسيا معنا. لو لم تنسنا، ربما كانت المسيردية الآن معي بطفلها، نملأ جميعا هذا الخواء الموحش المتعب. ربما حسنا فعلتَ يا الله؟ أن يتحول ابني إلى العربي و تقتله أياد باردة في خلاء موحش، الأحسن أن لا نرتكب ذنبا في حقه، أو أن يمسخ إلى شيبان و البريقع و نصر الدين، و تلعب برؤوسهم سيوف بني هلال. لا. لا. هذا أقصى ما يمكن أن نرتكبه من ذنوب في هذه الدنيا.لكن الأطفال عندما يأتون في امسيردا، لا يسألون. أبناء الرغبة السوداء المعلقة على أسلاك الرغيف. هكذا نحن دائما، و قلب المسيردية كبير، كبير، أكثر من همومي»

. إيه المسيردية، الله يرحمها و يوسع عليها.

تسربت دمعة ساخنة من عينيه. سقطت على الجمار المتقدة محدثة خشخشة خاصة بين الجمار التي كانت تتفرقع. صعد الدخان بكثافة. تمنى عبثا لو يصعد جسد الجازية المرمري مرة أخرى، فهو بقدر ما سكر، تمنى لمس الأشياء الجميلة التي لا ينفذ رونقها.

. الدخان الذي جئت فيه، حرمني من لمسك؟ كنتِ محملة بأشجان كل الذين ذهبوا و تركوك وحيدة.

الذي أحزني ليس موت البريقع. أنا أعلم مسبقا أن القبيلة الطويلة العريضة، ستتمكن من إنجاب بريقع آخر، يستطيع أن يحارب ليس فقط دياب الزغبي وحده، و لكن كل ذئاب الدنيا، و يبقى بريقعا صحيحا. الذي أبكاني يا ابنتي هو ضعف سحنة البريقع أمام جثة نصر الدين. صحيح أنهما كانا كلبين. و لا خير لنا من وراء كلبين يتقاتلان. لكن، مع ذلك، قد نتعاطف مع الأكثر ضعفا و كنت أعرف مدى محبتك لهذا الأخير:

« إلى أين يا ابن كلب العرب و أنا وراءك في الطلب؟ »

ثم شقه هو و جواده إلى نصفين. كان نصر الدين خشنا و يداه عندما ترتفعات عاليا، تحملان الموت. أنتِ كنتِ قد سقطت قبل أن تري المعركة، لكنك لو رأيتِها، كنتِ قلتِ مثلي إنها معركة غير متوازنة .حتى أقارب البريقع خانوه لحظة الفصل و لم يطالب بدمه إلا أربعون نفرا من بني زجلان، ذبحوا فيما بعد كالأكباش. و حين انتهى نصر الدين من حربه الصغيرة، ركب الشهبا و انطلق نحو الرمل و الخلاء و اليباس و الصفرة. على يمينه الملك صالح صهره، ووراءه عشرون راية، و تحت كل راية خمسة آلاف فارس. ركبوا الجياد وامتصت أراضي عين برشان دم البريقع و شيبان وزيره الذي كان أول من قطع رأسه.

مد صالح يديه نحو المجمر. سخنها قليلا. شعر بالوحدة تزداد عمقا. تمنى فقط لو تفاجئه الجازية بعينيها الواسعتين إلى حد الخوف و تدفعه إلى الشكوى أكثر و إلى إفراغ البراكين التي تتأجج في صدره. تمسد على شعره، و تواسيه بحنان. هو لم يقل كل ما في قلبه. كانت قلقة و الدخان المتصاعد في كل مكان حجبها عنه. تمنى أن تضعه في حجرها. أن تمص شفتيه. أن تكتشف جسده. أن تحتضنه حينما تأخذه سنة من النوم و تدندن في أذنيه:

« ابك يا صالح الزوفري. ابك يا شعلة الليل و النهار التي لا تنطفئ. ابك يا وليد البلاد التي تمتص عظام أحبابها. ففي عيون المسيردية تتقاتل أزمنة القهر و قبائل بني دريد و بني زحلان و دم الشهداء الهلاليين الفقراء. ابك. المسيردية الطيبة تستحق أن يذرف عليها المرء دموع الحرقة و غبينة الزمن الأرعن الذي لا يرحم. إبك و لا تسأل عن الرجولة، الدمع يقوي إنسانيتها. »

بكيت العمر كله يا بنتي و ما زلت. تمنيت طفلا بلون عينيك يا الجازية من المسيردية و بشعرك الجميل الذي يشبه سالف لزرق و الشهباء والخضراء المسبول على رقابهم الطويلة. يبدو أن لعنة الأجداد تتبعنا. حين بدأ بطنها بالانتفاخ تحول كل شيء فيها إلى ذرات من الفرح. لكن الفرحة سرعان ما قتلت عندما خسرته المسيردية قبل أن تراه. في المرة الثانية ولد بستة أصابع ولم يعمر طويلا. و أقسمنا أن نتحدى الزمن، و نجرب حظنا مع الطفل الثالث و إذا لم نفلح، فالدنيا يمكن أن تعاش بدون

أطفال. وذات شهر حبلت لكن الحمل كان لحمة ثقيلة بدون ملامح، ولدتها بعملية قيصرية. قال الطبيب وقتها أن التشوه راجع إلى مشكلة عناصر دمنا المتشابهة و قال أمورا أخرى لم أعد أتذكرها. و قالت جارتنا التي كانت تنجم للصاعد والنازل، إن البيت مسكون بالرعب و الخلائق الغريبة و علينا تغيير البيت. و بقينا مرغمين في براكتنا. حين يقدم الشتاء، و تهتز الحيطان المتعبة، نهرب إلى مقهى رومل، و نتخبأ بين الصناديق العتيقة. و بعدها رممنا البيت و بقينا مع بعض، بيننا الحب و طفل نتمناه، و أيام وعدنا بها.

« . يا الله قم. لم تعد زوفريا؟ عندك امرأة ونص. واش تحب أكثر من هذا؟

. آه يا المسيردية؟ حوحو شكار روحو. »

علمتني الزواج و دفء الفراش، و ها أنت تغيبين و تتركينني مثقلا بالغربة و تعاسة الجري ليلا و التربالدو. آخر مرة حين أخصبت ثم أنجبت كنت حاضرا بالبلدة. كان ذلك بعد أربع سنوات من الإنتظار، حتى ظننا أنفسنا أننا خصينا، و لن ننجب أبدا. حتى الدراهم التي التهمها الأطباء لم تفدنا في شيء. قال إن البرد هلك التناسل في أحشائنا. كنا نبيت عاريين. ننتظر متى تثمر هذه الرغبات المحروقة في البراريك، شيئا يصعب تحديده. نشعر بجماله حتى قبل أن نراه. كنت في ذلك اليوم، واقفا على حافة الطريق العام مع أهل البلدة، أنتظر الولادة وخروجك بسلام من المحنة. أرسلتِ لي بنتا صغيرة. خفتُ عليك و توقعت مكروها. جريتُ وراء بنت الجارة حتى أدخلتني إلى بيت الولادة. كنتِ ملتصقة بالحبل المعلق على أخشاب السقف. تزحمين و تئنين. حين رأيتني ابتسمتِ بعياء و تنفستِ بعمق. و تغيرتْ علامات الكآبة و الخوف التي كانت على وجهك. أحنيتُ رأسي. خزرتْني القابلة حنا عيشة بنظرة مؤنبة، تجاهلتها، قلت في خاطري ما دامت هذه رغبة المسيردية، طز في البقية. كانت مربعةعند رجليك. تفاديتُ النظر إليها من جديد. ثبت عيني في وجهك. ابتسمتِ مرة أخرى وأشرتِ برأسك أن إقترب. إقترب. فأقتربت. لا إقترب أكثر. فأقتربت أكثر. و حين حاذيتك، لمست شعرك. كنتُ مشمرا على ساعدي. الوقت صيف و حرارة. رائحة عرق النساء اللواتي كن بالبيت قوية. وجهك حار مثل الجمرة. رأسك كان متكئا على ذراعي الأيمن. و لحظة الألم، فجأة عضضت بكامل

قواك على زندي. شعرتُ بشراستك حتى صرخت بأعلى صوتي: آي...ي...ي... و مع تكشيرة و ابتسامة خبيثة، قلتِ كمن أشفى غليله من شيء ظل يحز في قلبه من قرون.

. هذه نتيجة أفعالك يا وحد الشيطان. شكون قالك جيبو.

خرجتُ أجري بأقصى سرعة. تطاردني قهقهات العجائز اللواتي أعجبهن المنظر. أسنانك مرسومة على ذراعي الأيمن في شكل شبه دائري. حين حكيت الحكاية لزملائي الذين كانوا ينتظروني على حافة الطريق. ماتوا ضحكا من سذاجتي. و حين توفي الطفل بعد خمسة شهور ببوحمرون. ذكرتك بالعضة. ضحكتِ ثم بكيتِ بشكل مجنون، فأنَّبت نفسي و اكتفيت بالبكاء معك. عيناك قاسيتان لحظة البكاء يا المسيردية. قاسيتان يا بنتي. أنا قلتها منذ أن وجدنا ههنا نمارس طقوس العيش القاسي في هذه البراريك. الله نسينا. وحق هذه البراريك نسينا. و انت تقولين دائما قولة احميده القهواجي المكرورة.

. الرجاء في الله. الرجاء في الله.

ربما لم نكن نتحدث عن نفس الله.

و قبل أن يفتح زجاجة خمر جديدة، خيل إليه أنه سمع حركة الباب و غزغزته. ظنها في البداية و هما من أوهام الخمرة، لكن لكن الصوت تكرر من جديد و صار واضحا.

« ربما كانت الجازية؟ لكن الجازية حين تأتي تشق الحيطان. »

القطط؟ لم يبق إلا حقها؟ الله يلعن كل قطط الدنيا، سرقت مني أول طفل هلالي كسر نبوءة التوناني، لعنة الله عليه. هل يستطيع القضاء الذي يشارع المتسببين في موت الطفل، أن يصل إلى ذروة المأساة التي أشعر بها؟ أنا لا تهمني نتائج قضائهم، يهمني ابني الذي سرق مني. عليهم أن يتوصلوا إلى الشعور بالبراكين التي تشتعل في صدري و إلا لا قيمة لكل ما يفعلونه. في النهاية هل نحاسب القط أم الذي فتح الباب للقط؟ حالة جنون. على القضاة أن يشربوا حتى السكر ليتبينوا الخيط الأسود من الخيط الأبيض. حتى اللحظة التي يشعر فيها الإنسان بأنه فقد كل شيء ليتحول صياحه و نحيبه إلى عواء ذئاب شرسة. آه يا يما الحنانة التي لم أرتو من

حليب ثدييها و رضعت الدم من صدرها. يبدو أن مؤرخ القبيلة سيدي علي التوناني وراءنا حتى الفناء، مع كل مؤرخي السيرة الهلالية. فإذا كنت سأعيد بني عامر إلى الوجود بهذا الغبن، فلا عاش الخفاجي الذي زرع ألف نطفة في هلاليات بني عامر و لا عاش أطفالي. فسيف مطاوع خطيب الزناتي خليفة كان الأقوى، إذ قتل فيك خصب الأشياء. الشجاعة يا خفاجي العامري لا تكفي. و لو استمعت لحلمك الذي رأيت فيه ذؤابة إبنتك، تطول لتصبح جاهزة للقطع، لما وقع الذي وقع. عليك أن تكون ذكيا قبل أن ترتشق على ظهرك حربة غادرة. و لكنك لم تستمع لنحيبك الداخلي الذي كان يشتعل فيك بقوة و عناد كبيرين.

. هذه أنتِ؟ لا. مستحيل.

لم يصدق عينيه اللتين رفعهما مثقلتين بالعياء و الدمع المتكلس و الدخان. لم يصدق أنها هي. بانت له منتصبة كرمح عند الباب. لونجا بجسدها المرمري الطويل الذي يشبه تمثالا رومانيا قديما. في يديها إناء من البركوكس و الحليب الفائر الذي اختلط بخاره بالدخان الذي يملأ الحجرة الضيقة. في البداية ظن نفسه أمام الجازية، لكنه سرعان ما تنبه إلى تفاصيل وجهها عند ما تسربت أنسام باردة إلى دماغه المرهق من فجوة الباب الذي لم يكن مغلقا بشكل كامل.

لا بد أن تكون مجرد رؤى مجنونة. لكن الحائط لم ينفتح و إنما الباب. مزح كعادته، حتى يتأكد أنه خارج لحظة السكر.

لونجا. يا لونجا.

شعرتك خبالة.

كليت سبع رجالة

و الثامنة هجالة.

واش عشاك الليلة... آ بنت امَّا؟

و بابتسامة عذبة تستجيب لونجا لفضوله، ليتأكد في النهاية أنها هي، امرأة الرحبة التي أفقدته توازنه.

عشابا نزيلة،

و رقادي قرينة.

واش عشاك الليلة... آ ولد امًّا؟

ثم يرد عليها بعد أن تأكد بأنها هي و ليست ظلا أو غيمة خرجت من حائط انشق إلى اثنين.

لونجا. يا لونجا. دلي لي سالفك نطلع.

حاول أن يتلمسها. لكنه خاف من أن تكون مجرد غيمة هاربة و سرعان ما يعود إلى رشده و تستقيم الأشياء. فهو بالعادة يخشى أن يتلمس وجه الجازية أو المسيردية حين يراهما خوفا من انزلاقهما من بين يديه. نهض بصعوبة من مكانه. لم يصدق عينيه. و بعد أخذ ورد، تلمس وجهها. لم تنطفئ كالنجمة. تذكر أنه شرب كثيرا، وأن الهواء المتسرب من فجوة الباب كان باردا و قد أفاده كثيرا.

. ياه هذه أنتِ؟ أي حظ هذا. اغفري لي شكوكي، لقد بدأت أفقد توازني و عقلي.

. معليش يا بابا صالح. سمعت أن أحمر العينين جرحك. جيت نشوفك و أطمئن عليك. عرفت أنك كدت تُقتل من أجلي. لا يا بابا صالح أريدك أن تعيش حرا كالنسر لا وراء قضبان صدئة. اسألني أقول لك ما معنى أن يقضي الإنسان العمر كله وراء الحديد.

. ما عاش اللي يمس ظفر من لونجا.

. أعرف لكني أريدك أن تظل حيا و حرا.

صعب عليها أن تخبئ سعادتها الصغيرة. دغدغتها فرحة اكتشاف الطفولة التي ما تزال في قلب بابا صالح و ما يكنه لها و هي التي كانت تظن أنها ستقضي بقية العمر في شرنقة معلقة كالدودة في الهواء، تنتظر الموت الذي لا يرحم.

. ماذا في يديك يا لونجا؟

. عشاي. معاش و حليب. قلت أقسمه معك.

لونجا تقاسمه عشاءها؟ لم يكن يعلم بأن حرب ياسين مهمة إلى هذه الدرجة و إلا لاختلق كل يوم معركة معه بسببها؟ شعر بالأرض تصير ضيقة على سعادته و لا تتحمل فرحته الكبيرة.

. حتى الآن أخشى أن أكون داخل غيمة فقط.

ـ يا بابا صالح أنا لونجا و لست الجازية. خفت عليك، لست أدري لماذا؟ أنت طيب و ياسين كلب.

ـ لا تخافي يا القبايلية. الصحة ما تزال كاينة و اللي يمسك و إلا يمسني ما زال ما جابتوش أمه.

. فرحت حين سمعت أنك قلت : تبكي أمه و لا تبكي لونجا.

. قلتها. و مستعد لقولها أكثر من مرة.

. الله يخليك لي يا بابا صالح.

. أعذريني، راني رايح فيها. فأنا شارب و الله غالب.

ابتسمت في أعماقها تدرحجت أشياء مضيئة و نجوم جميلة. هه. ما يزال في قلب بابا صالح متسع للفرح و الحب.

. تمنيتُ لو تفاديتَه. فهو كالكلب، ضربته لا تروح في الهواء.

ـ هو اللي بدأ. و البادي أظلم. منذ رأيته يتتبع أقدام السبايبي في السوق، تيقنت من أنه مستعد حتى العظم ليكون قاتلا لإرضاء أسياده الجدد.

. الأحسن تفادي مثل هذه الأشكال. بودلخة رئيس البلدية السابق كان طيبا فقتلوه ثم أشاعوا في البلدية بأنه انتحر و ألقى بنفسه في الوادي. أخطيك من جماعتهم يا بابا صالح.

ـ و الله يا بنتي تفكرين أحسن مني بكثير. الله يعطيني. فأنا ماتزال جلافتي هي التي تحركني. ما يزال ذلك الشيء البدوي الحار هو الذي يدفعني إلى البقاء بين هذه الخلائق الشرسة.

. حتى في رحبة التبن، كان هو السبب؟

ثم تحركت بسرعة من مكانها، لتضع البرنوس الذي كان على ظهرها، على رفوف عفش البيت، و عادت لتجلس بالقرب منه تنظر إلى عينيه اللتين، على الرغم من الشرب، لم تتضاءل خضرتها الجميلة الضامرة.

مدت يديها إلى الملعقة لتملأها بالبركوكس ثم تضعها في فمه، حتى قبل أن يقول أية كلمة. كانت حارة و جميلة و مؤلمة مثل هذه الأشياء التي تترسب في قاع الذاكرة. حركت زندها. بان الشعر الذي تحت إبطها و بان له ذراعها بكامله ممتلئا و

مقولبا بشكل يثير الرغبة التي تحجرت و ترملت قبل الأوان. تصاعدت إلى أنفه رائحة عطور غريبة، مصحوبة بالعرق و ماء الزهر و البرتقال و الخزامى و الحناء البدوية و كتان مرزاية الذي كانت ترتديه. غابت رائحة الشراب وسط هذا العالم المتناسق المتجانس. في لحظة شردت من ذاكرته المرهقة، تذكر رحبة التبن و النادر الغامل، و جسدها المتمدد بكامل طوله. تمنى في أعماقه لو لم يرتكب تلك الحماقة. لكن تلك الحماقة ذاتها هي التي شجعت لونجا على تركب رأسها و تأتيه في هذا الليل الذي يدفع المرء إلى اليأس، لولا هذه الأنجم الجميلة التي لا تطمسها قساوة الأيام. تذكر الباب البراني. خاف أن تداهمه كلاب الحارات الجائعة. شعرت بحيرته.

. ما تفكرش، وضعت الخشبة وراء الباب. ريح بالك.

لم يقل شيئا. كان غائما في تفاصيل وجهها و جسدها الغض. نظرت إليه جيدا، ثم بتثاقل أسلبت جفنيها.

. يا بابا صالح. أحك لي قداش تحب المسيردية.

. كان زمن و انتهى يا بنتي، لماذا نخبش في الماضي؟

. قلبك أكبر من الهم يا بابا صالح. لا تهرب.

. أوف. ماذا أقول لك. كنت أحبها قد_ البحر بأمواجه. قد المسافات التي تأكلني كل ليلة. قد الموت الذي يتهددني في أية لحظة. قد الدموع التي بكتها و هي تشعر بافتقاد الأمومة. و هي تكتشف أن الإبن السوي الوحيد الذي تمنته طوال حياتها تأكله قطط المستشفيات. قد السنوات العجاف التي آلمتنا حتى كدنا نموت. قد أمي التي جنت و ماتت ميتة بشعة. قد الجازية التي أحببتها و أنا صغير، أستمع عند المجمر المتقد إلى حكايات جدتي التي لا تنتهي. قد لونجا التي تزرع في قلبي الفرح و تعطيني معنى الحياة. قد الليل والنهار في تعاقبهما. قد الأشياء التي لا تفنى. قد قلب لونجا الذي يتسع لكل ذنوبي. قد الألم الذي يثمر الرجال و الشهداء والأنبياء. قد عيونك التي لا تحدها مسافات الدنيا. قد ما لا يستطيع لسان قوله... قد...

سالت من عينيه دمعتين متعبتين. نظر إلى الحائط. لم ينشق. لم تخرج لا الجازية و لا المسيردية. و لكنه شعر بدخان الاحتراق يتصاعد من قلبه في شكل دوائر و رموز بدلالات عميقة.

مدت لونجا يدها إلى يده. أرخت رأسها على صدره. لم يقل شيئا. أخذت تدفع برجليها طاسة_ البركوكس، حتى أبعدتها عن الفراش نهائيا و حررت المكان لتمطيط رجليها كما تشتهي.

. سامحني يا بابا صالح. أنا بنت طائشة.

. أنتِ سيدة البربر و العرب قاطبة.

. بزاف علي يا بابا صالح.

قالتها، مفرجة عن أسنان جميلة، منتظمة بشكل متناسق.

. و أكثر يا لونجا. مثل الشمعة التي تحترق لتنير هذه الظلمة.

. خلينا من الهم. غنِّ لي عن الشمعة.

. صوتي مبحوح.

. و أنا أحب بحتك. أنت تغني لي أنا. و ليس لغيري.

. بشرط أن ترقصي رقصة جبال جرجرة. ها...ها... ما عندك وين تزغدي مني. اتفقنا.

. و أنا موافقة.

لم تتوان لحظة واحدة. قامت بطولها الفارع. شدت خصرها، وأفخاذها بخرقات حمراء. بان جسدها ممتلئا و مثيرا. رفع صالح عقيرته عاليا، عاليا حتى بانت له الأنجم تصطدم مع بعضها البعض. كانت الشمعة التي أوقداها قد بدأت تذبل، و تتراقص بألم، أشعتها الملونة التي يغلب عليها اللون الأزرق. اتقد جسد لونجا الذي اختلط بالشعاع الممتد من السماء حتى الأرض، أكثر فأكثر.

بالله يا الشمعة سألتك،

ردي لي سآلي.

آش بك في الليالي تبكي،

ما زلتِ شعيله...

تلوت لونجا بألم مع اختلاط الألوان التي كانت تأكل الشمعة. هزت أوراكها و تطاحنت في عينيها كل أزمنة البؤس. متاعب الإمام الذي نسى أنها شعلة من النار. شعرت بنفسها تتحول إلى طائر نورس يحلق، يحلق في الفضاءات العالية، يثقب

النيازك و صدر السماء، و يتمدد كألسنة النار المقدسة. تحرك نور الشمعة. تحولت إلى نسمة. إلى شعاع عمودي من شمس صيفية تستيقظ متأخرة لتذرف دمعتين على بقايا عظام دفنت في أمكنة مجهولة. لونجا تتلوى دائما. غاب الذين كانت تحبهم و الذين كرهتهم. حتى وجه أبيها لم تعد تتذكره جيدا. ربما يكون قد مات. قبل أن تأتي إلى هذا المكان، كان قد تحول إلى حطبة يابسة جافة من كل نسغ...

أغمض عينيه جيدا. بانت له لونجا صغيرة. صغيرة. تيتمت منذ طفولتها. في يدها قصبة صغيرة، تجري وراء بقرة غير حلوب. أحنى رأسه. سخن يديه. انتبه إلى حركاتها المتسارعة. بانت له عيونها محروقة. تحولت إلى خيط رفيع من النور الصافي، يشع من وراء شجرة لوز أثقلتها الثلوج. نحنح كما ينحنح لزرق لحظة الرغبة في الجري و التحليق ثم أنَّ كحمام جريح.

يا وعدي، لو جيت يا الشمعة،

نحكي لك ما جرى لي،

تنساي غرابيك،

و تسمعي لغريبتي طويلة...

دخلت الأغنية قلبها كالسهم. تلوى جسدها و دارت حول نفسها ثم حوله بعد أن دوخته بنشوى الخزامى و الجسد الذي لا يلين ثم دارت في مكانها كطائر مذبوح. و عندما تعبت، تهالكت على صدره و لم تسأل عن البقية. كان قد مضى على الليل وقت طويل. جسدها كان كفرس جموح لا يستقر في مكان. ارتعدت. تحولت الحرارة إلى برودة سامة. طلبت منه البورابح_. وضعه على صدرها ثم أسند رأسه برأسها.

هو كذلك، كانت أعماقه تتفتت كالتربة التي دفن فيها الأنبياء والشهداء و الصالحون. رفع رأسه قليلا. نظر إلى عينيها المسكرتين. حاول أن يتجرأ على وضع يده على شعرها. دخله خوف غير مبرر بتاتا.

« ياه يا صالح لا تكن غبيا هذه المرة. هي التي جاءتك لأنها تحب البقاء معك. كثرة الحذر تولد الشكوك. »

ماذا يحدث لو تجرحني و أنا في هذه الحالة. لا. يبدو أنها أشجع مني. أتكل على الله يا صويلح و خليها على ربي والوالدين. تسللت يده اليمنى، لتتزحلق من على

ظهرها الناعم، وتستقر داخل جمال شعرها. بقي لحظة متجمدا، لا يحرك ساكنا. لونجا لم تقل شيئا. كانت تركب موجة برتقالية، و تسافر على متنها، قاطعة البحار السبعة. تشعر بلذة غريبة تحرك دمها على غير العادة و تعيد لها حرارة جسدها الذي بدأ يموت قبل الأوان.

« اسمع يا بابا صويلح. لونجا جاءتك و في رأسها بابا صالح. فلا تكن غبيا أكثر من اللزوم. »

أضاف كأس نبيذ أخرى.

كانت هادئة عند صدره. تستمتع بدقات قلبه التي ازدادت بشكل متواتر.

. ياه. وحق محمد، صدق اللي سماك لونجا.

ثم أخذ يدندن في أذنها، متعب الحلق:

لونجا يا لونجا.

شعرتك خبالة.

دلي لي سالفك نطلع.

ـ غرقت يا بابا صالح. غرقت. البحر و البر بعيد والعيون المتعبة التي لا تقاوم الزرقة.

. أنت شمعة و اللي يقرب منك، يحترق.

نظرت إلى خطوط وجهه بعمق. فجأة، تشبثت به، وكأنها شعرت بأنها ستفتقده إلى الأبد. و في اللحظة ذاتها تأكد بابا صالح من حبه لها. لم يعد يخاف على فقدها. زحلق يديه تحت إبطيها وجرها نحو صدره بقوة، حتى شعر بأنه أكسر عظامها و أدخلها في قفص صدره. نفذت إلى أنفه رائحة العرق المختلطة بالخزامى التي كانت لونجا تحب التعطر بها. لم يدر كيف حل ضفيرتيها و أسبل شعرها على جسدها النابض بالحياة. لم تدر كيف نزعت ثيابها و ثيابه و استلقت بكامل رغبتها المحترقة في حجره. لم يكن يدري قبل هذا العهد، أن للونجا لسانا بهذه النكهة الطيبة، و شفتين، امتلاؤهما يشبع. لأول مرة يحس بها بقوتها و بحبها. بلذة اكتشاف كل شيء جميل تتفرد به لونجا دون غيرها. بغموضها الذي يثير الدهشة. نظن أننا نعرفها ثم في كل لقاء نكتشف أننا لم نكن نعرفها أبدا و أن ما منحته لنا كان جديدا.

حين عادت لتلتم و تتكور عند رجليه. سمع نشيجها وحزنها يتحول إلى كتل محرقة تشبه الصخور البركانية لحظة القذف.

. آه يا بابا صالح لو تدري كم أشتهيك و أحب رجولتك الحية؟

. و أنا أموت لإرضائك كمجانين الأحاجي. و مع ذلك أخاف من افتقادك دائما.

. لا يا بابا صالح. هذه المرة جئتك برضاي. حتى لحظة التبن الغامل، في أعماق أعماقي، لم أرفضها. شيء واحد كان و ما يزال يخيفني حتى هذه اللحظة. الدنيا قاسية يا بابا صالح. البرد. والثلج و أولاد الحرام الذين يملأون الطرقات. العربي مات. العربي لا يبرح مخيلتي. اضطررت تحت تأثير الخوف أن ألعنه و أقول له حجارتك تشدك. يملأ أحلامي بشكل مرعب يا بابا صالح. موته لم يكن عاديا بالنسبة لي. شعرت بك وحيدا، كمن أخذوا جزءا كبيرا من قلبه. أخاف أن أفقد ذات فجر بارد، حنانك و محبتك لي. أنت بابا و يما و جبال جرجرة التي لا ينتهي امتدادها. أنت الأراضي الجبلية التي لا تنجب إلا التبن و الزيتون و الغربة و البؤس ولحظة الفرح الهارب. أنت كل شيء في حياتي يا بابا صالح. أنت لم تتسخ كما حدث للآخرين. لم ترتكب حماقة. جئتك برضاي. و نمت في حجرك الدافئ برضاي. الدنيا قاسية، وحرام يأكلني الدود من الآن. أخاف. أخاف أن تأكلك المسافات التي لا تنتهي. ابن آدم صار رخيصا في حي البراريك، أرخص من كلب. حين سمعت أنك تشاجرت مع أحمر العينين ارتعد قلبي لأني خفت عليك.

. اللي عنده لونجا و لزرق و البندقية، ما يخاف لا من الليل، ولا من البرق، و لا حتى ياسين.

ـ لا يا بابا صالح. الدنيا بنت الكلب لعابة، دوارة. تأتي من الخلف. هل تتصور كل الذين ماتوا غدرا كانت تنقصهم الشجاعة؟

. طبعا لا. و لكن هل يجب أن نستسلم للقتلة؟ الدنيا قبيحة صحيح. لكنها ما تزال جميلة بالناس اللي مثلك.

. و أنا واش ذنبي حتى ييتمني غيابك؟

ـ أفهمك. أنا كذلك مللت من هذه الحياة. غدا سأبحث عن عمل. سأنزل إلى البلدية، لأسأل عن أراضي الثورة الزراعية. عن بداية الأشغال في سد الصواني. عن

أي شغل يحفظ ماء الوجه. تيقني يا لونجا، لو كنا بالصيف، كنت عدت إلى حرفة الشوالة، لكن الشتاء يا لطيف و البرد و الموت الأكحل لا يرحمون.

. أحسن. فأنت كلما خرجت، خرجت معك عمري. التراباندو و الموت شيء. حافظ على روحك و علي. فلو بذلت مجهودا قليلا، ستجد شغلا يناسبك.

. و من يكره ذلك؟ إن شاء الله.

كانت يده اليمنى قد عادت لتندفن في شعرها المنسدل على كامل جسدها. بانت له صغيرة. صغيرة. طفلة ما تزال بكرا. حادة كهذا الوطن الذي يقتل كل يوم ألف مرة. تذكر رقصتها التي ذبحته مع الأغنية و مدى الانسجام الدقيق. أقسمت هي أنها ستحمل منه. أقسمت برأس عوده و بشيب رأسه. العرق و ماء الزهر و الخزامى يملأون أنفه. الجنة تسري في عروقه المحترقة. عندما انتابتها رعشة اللذة، رأى صفاء بياض عينيها و اتقاد وجهها و استسلامها المطلق لجسده و يديه.

كبرت في عينيه أكثر حين بكت على صدره و بكت له عن أهلها الطيبين الذين إذا تغذوا لا يتعشون، و إذا تعشوا لا يتغذون، رزقهم من باب الله الذي ينفتح مرة في السنة. نبتوا في تلك المناطق الجبلية الوعرة حتى أكلهم الجوع و البرص و الحروب.

لم تغف أجفانهم طوال الليل. و مع الفجر الأول، حينما بدأ النعاس يغالب لونجا، و التعب يرخي كافة أوصالها التي لم تفقد حيويتها لحظة واحدة، التصقت بجسده العاري للمرة الأخيرة أكثر فأكثر حتى شعرت بنفسها تدخله و تندفق في أعماقه. عاودتها رغبة النوم في حجره. نادته

. بابا صالح ... حبيبي...

قالتها متقطعة، وبكسل ظاهر يشبه التغنج، و عيون نصف مغمضة ووجه لم يغادره إشراقه:

. بابا صالح يسمعك في صمتك.

. وين القلبة اللي درناها البارحة؟هيا نعاودها يا الله. هيا نعاودها. هل تتذكر هذه الأغنية.

. أتذكرها. بابا صالح؟ وين الكلمة اللي درنا البارح. لا داعي للكلام، فصوتك يملأ قلبي.

كانت تريد أن تخرج و لكن يديه تشبتتا بها من جديد و استيقظت حواسه مرة أخرى و هو يمص لسان لونجا الذي كان معطرا بعود النوار. لم تقاوم. أرخت شيئا فشيئا رأسها على صدره و تلاشت كالومض.

كانت حركة الجرذان قد انقطعت بالبيت و انقطع تساقط الأمطار. لكن البرد في الخارج ظل قويا و سقوف الزنك تئن بصوت مسموع هذه المرة.

-4-

العربي. و يا العربي خويا.

لو كان جيت سما و نجوم،

نخليك كالطير تحوم...

القلعة عالية و كبيرة و نحن ما زلنا صغارا ظلالها الممتدة. كل الأشياء تغلق وجوهنا حتى أبواب المدن الغربية الثلاثة التي بنيناها بدمنا ولحمنا و عرقنا. منصور يشتفز ضعفنا بثقل أخشابه التي لا يحركها جيش بكامله. بوابات سارة التي تتخبأ وراءها جيوش الزناتي خليفة لم تطحنها حروب السنتين مع بني هلال. باب حسرة أخفقت في تدميره حتى الجيوش الجرارة التي سبقت بني هلال في غزو المنطقة، بعددها و عدتها الثقيلة التي جرتها وراءها من بلاد العجم، و لا حتى سيف دياب الذي يزن الأطنان.

القلعة عالية يا العربي و أبوابها مغلقة. من أين تدخل يا هذا الولد الذي لا يعرف شيئا آخر سوى حورية و حلم لقائها يوما بعيدا عن الأنظار المخزية؟ وينك يا العربي وليدي؟...

من أين ندخل.

بان له باب دار البلدية عاليا و هو تحته كالذبابة. لا شيء. الذين شيدوا هذا المكان فعلوا ذلك عمدا بحيث أن المرء عندما يواجه البناية يشعر بصغره أمام مؤسسة الدولة و يدخل المكان مهزوما و مجردا من كل سلاح المناوشة و قابلا لكل ما يقترح عليه.

« ناس بكري كانوا يبنون بعقل و ليس في الفراغ. يعطون للبناية شيئا من روحهم و قوتهم و بطشهم. »

ضغط على الزر الخارجي ثم وقف يتأمل الحديقة المحيطة بدار البلدية و ينتظر الإذن له بالدخول.

في هذه البلاد الواسعة يا العربي التي تشبه أراضي بني هلال، كلما لمسناها تزداد ضيقا، يحدث أن يموت المرء كما تموت أبسط الحشرات. فالمحاكم في هذه الأرض، لحظة الغضب، تجري في دقيقة واحدة، في دماغ كل واحد فينا. نحن الرؤساء. نحن الحكومة. و نحن الضحايا و نحن الجلادون كذلك. و كما يقول سيدي علي التوناني، فإذا اختلط الحاكم بالحكومة، و المحكوم بالحاكم، و الخيط الأسود بالخيط الأبيض، فالبلاد على حافة الموت و لن تفرح بها. التوناني كان مؤرخا فاشلا و تافها و أحد أزلام الزناتي خليفة، و لكنه مع ذلك لا ينطق إلا من خلال تجربته.

. نايمين و إلا واش؟ أنا صالح بن عامر الزوفري.

يا لطيف. هذه بوابة دار البلدية أو بوابة قلعة ملكية؟

تحسس الدبوس الذي ينام دائما على خصره الأيمن و يكاد لا يظهر. انفتح الباب. انزلق داخل البهو. سأل الحارس الذي عرفه بسرعة:

. عمي صالح خير إن شاء الله بهذه الجرية؟

. غير الخير يا وليدي، أبحث عن مكتب موح الكتاتبي.

أشر له الحارس بيده إلى أحد الأبواب المسدودة بدون أن يضيف كلمة واحدة . دق بهدوء. فتح الباب. ولج القاعة و هو يفتح يديه عن آخرهما عندما رأى موح في الركن، وراء مكتبه.

. آي... آي... و القلب عاي. صباح الخير يا السي موح.

. صباح الخير يا بابا صالح. زارتنا بركة.

. هذه قلعة و إلا دار الحكومة؟

. الدنيا هكذا يا بابا صالح. زيارتك الأولى للمكان؟ أنت مقصر يا بابا صالح في حقنا.

. الأولى. كلما مررت على المكان وجدتني أبتعد أكثر. كان العربي الله يرحمه هو اللي يقوم بكل شي.

ـ الله يرحمه. أنا نفسي ما نحبش هذه القلعة. بناية جميلة و لكنها ثقيلة و غير مفتوحة للناس. لازم يفكرون في بناء دار بلدية أخرى و يحولون هذه إلى متحف.

ـ هاذو؟ فاشلين في كل شيء إلا في السرقة. خلها كماهي و إلا ستمر من هنا يوما و تجد الكلاب عند الباب و السيارات السوداء و الأطفال و كلمة صغيرة معلقة:Propriété privée مثلما فعلوا ببقايا أملاك الدولة. و هي بلدية لا يستطيع أحد أن يمسسها. ما عليهش نتحمل ثقلها.

. واش نقول لك يا بابا صالح، أنت سيد العارفين. قهوة و إلا شاي؟

. اللي تحب.

ضغط على زر من مكتبه.

. قهوة يا موسى الله يرضك عليك.

ثم إلتفت إلى صالح مقتربا من أذنه و تاركا مكانه في الزاوية:

ـ عندي لك أخبار سارة. بدأوا بإعادة الاعتبار للمجاهدين القدماء. الكثير منهم ساعدوهم بالدراهم لبناء مراكز سياحية على الشواطئ ومقاه و فنادق و حمامات بخارية، و سيارات.

ـ هؤلاء مصابون بحالة جشع و عمى كلي. المجاهدون المفروض أن ينزووا و يتأملون الدنيا قليلا. آخر واحد فيهم الآن عمره ستين سنة. واش باقي لهم؟ أدخلوهم لعبة المقايضة. ها هم يبادلون عظام الشهداء بالفلات و المقاهي و التجارات المربحة. تصور يا موح وليدي؟ يرفعون ناسا و يحاسبون ناسا اعتمادا على الملفات التي خلفها الاستعمار؟

. خلِّها على الله يا بابا صالح، أنا عارف كل شيء.

ـ و الله يا موح الكتاتبي من النهار اللي قتلوا بودلخة حسيت باللي العملية مقصودة. هو وقف لهم في الحلق كالشوكة. تعرف سلاحهم؟ الخساسة و الخديعة و المشي في جنازة المقتول.

. كان فحلا و طيبا. و عرف أن البلدية و البلد قاطبة تحركها المصالح الصغيرة و الكبيرة. المصيبة أنهم لوثوا كل الناس.

. الله يرحمه، على الأقل أدى واجبه برجولة.

. جاي نهارهم. إنهم متورطون حتى العظم. الأسبوع القادم سيزور الوالي المنطقة و سيقلبها على رؤوسهم.

. إذا لم يكن واحدا منهم.

. على كل حال، يقولون أنه رجل نزيه و شريف.

ـ كالعادة إذن، سيزينون الشوارع. يذبحون الذبائح. يشوون. يقدمون اللبن و التمر و الزغاريد للزائر السعيد. و يعود الوالي مسرورا، فرحا و جازما بأن الرعية مرتاحة و الحمد لله. ثقتي يا وليدي بدأت تتقهقر في كل شيء ألمسه. كأن البلاد فقدت رجالها.

ـ لا يا بابا صالح. الناس الطيبون موجودون و أنت مقتنع بهذا، و لعلمك حتى تقتنع أكثر، فأراضي السبايبي أممت رسميا وستوزع قريبا. طبعا سيحاول من جهته أن يفعل أي شيء من أجل إحباط توزيع الأرض. له معارف كبيرة الفوق و لكنه لن يفلح.

ـ هذا أمر مفرح. فليس من السهل أن يضرب رجل كالسبايبي. على ربي ينجح المشروع و تقص أجنحته.

. طبعا، أنا كذلك لا أثق فيهم كليا. تصور يا بابا صالح، السبايبي، الغني، سليل القياد و القومية، ساعدوه هو بدوره و استفاد أكثر من غيره بقانون إعادة الاعتبار للمجاهدين.

فكر صالح بن عامر الزوفري لحظة ثم قال و هو يحاول أن ينسى ما سمعه:

ـ ما راحش ناخذ من وقتك. قل لي يا وليدي، هل اسمي مقيد على قائمة المستفيدين من أراضي الثورة الزراعية؟

ثم فرك يديه بقوة و هو يحاول أن لا يكسر فرحته.

. أنا قلت لك يا موح، اللي يصبح عليك، يصبح على الخير.

. اسمك مقيد و سأعمل على الحفاظ عليه. اشرب قهوتك. و ادخل المكتب الثالث على اليمين. هناك اسأل عن قوائم تعاونية الشهيد مبارك. وتحقق بنفسك. أنا نفسي شفت اسمك.

. الله يكثر خيرك يا وليدي.

. و إذا كانت تهمك قضية إعادة الإعتبار، فسجل اسمك.

. لا. عرقي و دمي أكبر من الحمامات و الفلات والعمارات. الله غالب هذه تربية و ما عندنا ما ندير معها.

. ربي معك بابا صالح.

« يا الله يا صالح. الدنيا تفتح لك ذراعيها و أنت تشيح بوجهك؟ لماذا الحزن؟ لماذا البكاء و اليأس يا شمعة الليل و النهار يا لونجا؟ ألم أعدك؟ فالدنيا ما تزال حية و أنا مازلت على إصراري، أن أتوقف نهائيا. ربما منحتني الثورة الزراعية فرصة للتخلص من هم صنعة الموت. ربما... »

بسرعة شرب قهوته التي بردت بين يديه.

و بسرعة دق على الباب الثالث، على اليمين.

. تفضل.

. يزيد فضلك.

قالها ثم توغل حتى قبل أن يرفع رأسه. بدا له الصوت مألوفا. شد حزامه. نفض مؤخرته، ثم دلف الحجرة بكل عرضه و طوله في عمق المكتب متجاوزا الممر الصغير. في لحظة ما لم يعد يتذكر تفاصيلها جيدا، انقشعت كالبرق، تذكر جيوش الاستعمار و الحلفاء التي قطعت البحر و الصحاري أوامرها الصارمة، و قوافل الشهداء و الناس الطيبين الذين طعنوا في الظهر. فهذا الباب الخشن ما يزال قائمة بينه و بين أحلامه. لقد تعالت الحيطان فجأة بينه و بين البلدية و بدأ يتساءل إذا لم يكن مخطئا بالفعل عندما صمم دخول هذه القلعة؟ استقبلته في البداية السكرتيرة. شابة في مقتبل العمر. كانت منحنية بشعرها القمحي على المسؤول الذي كان منهمكا في حديثه معها و التوقيع على بعض الملفات التي قدمتها له. عندما انسحبت، رأى السبايبي جالسا ينتظر خروج السكرتيرة. كان صدره مثقلا بكل نياشينه القديمة و الجديدة: نياشين المقاومة إبان الحرب العالمية الثانية، المقاومين الوطنيين، المجاهدين القدامى، جبهة التحرير، التنظيم المدني و المسبلين... كان يسير على نفس خطى السابقين، مثلما كان يفعل جده ووالده كلما زار الإدارة الإستعمارية ليبين خدماته الجليلة التي قدمها. السبايبي هكذا حتى عندما يذهب إلى العاصمة، يضع كل الإستحقاقات على صدره قبل أن يدخل أي مكتب لمزيد من الإثارة و التخويف.

سمع نفس الصوت و تأكد هذه المرة كذلك أنه يعرفه جيدا و لا يثير لديه ذكريات جميلة.

ـ اسمعني يا الحاج السبايبي. إذا كان رئيس البلدية لم يستطع حل العقدة، فكيف أستطيع أنا العبد الفقير. ارفع القضية مرة أخرى للعاصمة. أما فيما يخص إعادة الاعتبار لجهادك، فأنت على رأس قائمة المسجلين. ملفك محفوظ في ممو العين. هذا حقك.

ـ على كل حال أشكرك. و الله يعطيك الصحة. رايح للعاصمة و نفريها إن شاء الله. سأعود فيما بعد. ثقتي فيكم كبيرة.

قام من مكانه. هز برنوسه على كتفيه. التفت نحو صالح الذي كان منهمكا في تأمل جدران القاعة. خزره بحقد. ثم انفلت كالبرق يجر عصاه الثقيلة المذهبة عند الرأس. و قبل أن يغلق الباب وراءه، لو يستطع كتم غيضه:

ـ و الله الأرض ما تشوفوا فيها. نقلبها عليكم. الرعيان يحرثون أرضي؟ و الله ما تكون.

ثم صفق الباب من ورائه بعنف.

صالح لم يكن يصدق ما كان يحدث أمام عينيه. كان دم السبايبي يغلي. و بدا جليا أن الغضب الذي كتمه أمام الإداري لم يستطع السيطرة عليه عندما رأى صالح. كان كتلة ملتهبة من العنف واليأس. بدا جليا أن المسألة كبيرة و أن مصالحه بدأت تتهاوى. الكتاتبي لم يكن مخطئا أبدا في تقييمه. لقد تخطى الأمر المصالح البلدية التي اشتراها كلها. و ما قيل عنه صحيح. قضيته وصلت للب السلطان. العاصمة. و تفرقعت هناك كالقنبلة. الناس ناس. شي معه، شي ضده. حين شعر بأنه سيفقد الأرض. المسألة واضحة وضوح الشمس، تمتم صالح و هو ينتظر دوره:

« حاول تسخيري لخدمة مصالحه، و عندما فشل، وجد ضالته في ياسين أحمر العينين، فقاده من أنفه كالنعجة. ياسين من أجل الدراهم يبيع أمه. المؤكد أنه سيدفعه إلى القيام بما رفضت أنا القيام به. تهريب الأغنام و توفير الويسكي و الباستيس للمسؤولين. أعط تأخذ. الرشوة. وبعدها، كل هذا من فضل ربي. »

هذا هو السبايبي. يخسر من هنا، يربح من هناك. تخرجه من الباب، يدخل من التاقة. كالقط الهرم، من أي علو رميته، يأتي واقفا على قوائمه. وسهرة صيفية واحدة في أحد كابانوهات المتوسط يدفع هو ثمنها، كفيلة بأن تجعله مستفيدا من قانون إعادة الاعتبار للمجاهدين القدماء. فالحصول على وثيقة المجاهد في هذه البلدة لا تكلفه أكثر من سهرة و بعض زجاجات الويسكي و تليفون للحاجة طيطما بإرسالة أفضل سلعة متوفرة لديها.

رؤية السبايبي على هذه الحالة وحدها، كانت كافية بأن تجعل صالح يرقص فرحا. فلأول مرة يرى هذا الدب القطبي، كما كان يسميه، منكسرا. شعر بأن شيئا يتغير ببطء و لكنه يتغير، في البلدية و إن لم يستطع فهمه. السبايبي بدأ يعود إلى حجمه.

. عمي صالح. تحتاج إلى شيء، نحن في الخدمة؟

لم ينتبه له. كان ذهنه مع السبايبي و عيناه عالقتين بجدران القاعة و بسقفها.

. عمي صالح، مالك ساهي في الحيط. هذه صورة نابليون، منقوشة على الجدار من زمن الاستعمار. لا البلدية نزعتها و لا نحن انتبهنا لها. هذه هي الدنيا، زمن رايح، و زمن جاي، و كلها دنيا واحدة.

ـ لو عرفت قسوة الزمن الأول، كنت غيرت رأيك حتما في الصورة. استفزاز للسيادة.

ـ واش من سيادة يا عمي صالح. واش راح يتغير لما نقلع صورة نابليون؟ بيار راح، و موح جاء.

. ...

فكر أن يوصل الحوار لكن عينيه المعلقتين في السقف أتعبتاه، فانزلهما عن الجسم المنقوش من على الحائط الخشن. انتبه فجأة إلى وجه الرجل. فوجئ به هنا. نفسه، لم يتغير أبدا. فتح عينيه أكثر، هو بلحمه و دمه.

. الميلود ولد السي لخضر؟ يا ربي واش هذا؟ وصلتم حتى هذا المكان؟ خرجناكم من الباب دخلتم من التاقة.

. زهرنا. الدنيا تدور، واش تحب عمي صالح؟

مسح عينيه أكثر.

. الميلود بوخنونة؟ أنت هنا، و بين يديك ملفات قدماء المجاهدين، و المستفيدين في الثورة الزراعية؟ و مكلف بإعادة الاعتبار لدمائنا التي شربتها الوديان و الليل وجليد الفصول الشتوية؟ شكون حطك هنا؟

. ما تقولش بوخنونة يا عمي صالح. اليوم كبرنا و استعقلنا.

الميلود ولد البارح يقيم ناس المكحلة و الفروسية و التضحية؟ واش من زمن أكحل هذا؟ أين كان مختبئا و من أين أتى؟ ـه يا ولد السي لخضر، البارح تذبحني و تذبح والديك و اليوم تقيم مقدار قدرتي على التضحية من أجل هذه التربة التي سحقتنا و تجازيني أو تعاقبني؟

. يا عمي صالح ما عندي حتى مسؤولية فيما حصل. هم الذين أمروا بذلك. و ما أنا إلا منفذ صغير.

لم يفهم صالح جيدا كلام الميلود. كانت الأرض قد بدأت تدور تحت أقدامه التي لم تعد قادرة عل تحمله.

. سمحوا لك بالتسجيل في قائمة عمال السد، لكن الثورة الزراعية قالوا...

. إيه. كمل. ماذا قالوا...؟

ـ قالوا إن ماضيك يكتفه الغموض. و قد وصلتني نسخة مصورة من ملفك القديم التي كُتب فيها...

. من وقت الاستعمار؟

. ما قالوش.

. واش كتبوا إذن؟

. ملف يعلق حتى إشعار آخر لأنه...Elément dangereux

. إيه... ما عليهش... كنت غالط؟ حسبت البلاد استقلت.

. و الله يا بابا صالح هم اللي قلعوك من القائمة.

بدأت الأرض تدور بسرعة بشكل عكسي. شعر بتوازنه يختل، و بابتسامة صفراء تتدحرج في أعماقه كقنديل زيتي مهمل في قبو. تطاير زبد أصفر من جنبات فمه

الذي أبيض كقطعة جافة. احمر وجهه. جحظت عيناه و احمرتا، جمدت فيهما دمعتان هرمتان.

ـ أنت هنا يا الميلود يا ولد السي لخضر؟ أنت هنا، و بين يديك مصائرنا؟ أنت صاحب الشأن؟ الدنيا ولات مجنونة و إلا احنا اللي ما عرفناش كيفاش نتعامل معها؟

. يا عمي صالح، يمكن ما فهمتنيش. اسمك مقيد مع عمال السد. المشكل يتعلق فقط بالثورة الزراعية. الثورة الزراعية و الاستفادة من امتيازات قدماء المجاهدين، فأنت تحتاج إلى وثائق أخرى و إثباتات رسمية. في العاصمة لا تنفع معهم العواطف. لا يعترفون إلا بالأوراق و الوثائق. أنت عارف هذا الشي.

« إثباتات رسمية؟ »

تمتم بحزن. تدحرجت في أعماقه بقايا الأنجم الجميلة التي تكسرت على صخور هذا الليل الذي تضاعف سواده.

. لو كنت أريد إثبات نضالي بورقة، ونزاهتي، ما انتظرت كل هذا الوقت. و لفعلت ذلك يوم نزلت من الغابة أول مرة، عندما كانت الفوضى تعم البلد و الناس يهجمون على المدن و البيوت و ينهبونها بيتا بيتا و دربا دربا. لا يا الميلود أنا لم آت من أجل هذا.

إرتجف ساعداه. سقط الدبوس من يده. بدأ الدم يجري في عروقه بسرعة الضوء و هو يحاول أن يتحكم في حالة الجنون التي بدأت تنتابه و تهزه بعنف.

ـ أنت هنا. أتذكرك يا لخضر. و حق الله أتذكرك كهذه اللحظة. الذاكرة تنسى و تتسامح و لكنها ليست غبية.

. و شكون ما يعرفش عمي صالح. سبع امسيردا؟

. و لماذا تستفزني إذن بالأوراق؟

ـ لقد كنتَ مجاهدا كبيرا. لكن الأوراق. الله غالب. من عندهم و ليس من عندنا. العاصمة صعبة يا عمي صالح.

الميلود... ياه؟ من أين يأتي كل هذا الصفاء؟

هذه البلاد بدون ذاكرة. أو على الأقل قتلت ذاكرتها. الميلود أراه الآن كما لم أر أحدا من قبل و هو يؤمر بالبول على رأس أمه العجوز التي ظلت تبصق على خلقته

كلما رأته حتى جنت. و ماتت بغصة في قلبها. ألفت وجهه في المسجد حتى كدت أنسى أنه واحد من الذين باعوا قلوبهم للكذب والذل. وجه النحس. حتى لحيته الطويلة التي كان يعرف بها، نزعها. يقال إنه تاب. لا يتكلم إلا عن الذين و القيامة و يوم الحساب، الذي لا رحمة فيه إلا لوجوه المؤمنين المتسامحين التي لا تلمسها النار. لهم الحوريات اللواتي لا ينضب دفؤهن. يتحدث عن الصلاة و مناسك الحج و فقهاء سيدي بلعباس. ممحون حتى الموت بطلعة السي عثمان الذي لم يعترف بالمحكمة و القضاء البشري، ابتغاء لرحمته تعالى. قيل فيما قيل، أنه يحيك مع غيره خيوطا لاغتيال كاتب ياسين في قرية تنيرة. أنا لا أعرف كاتب ياسين، سوى أنه رجل مهم قال أن الصوامع مثل الصواريخ الجامدة في أمكنتها. عنده حق. صواريخ موجهة ضد الله أولا. أنا متيقن من أنه شخصية فذة و إلا لماذا يريد بولحية اغتياله؟ آه يا كاتب خويا، لو تدري ماذا ينتظرك و ينتظر أصدقاءك من الكتاب؟ ستذبحون كالخرفان إذا وصل هؤلاء القتلة إلى السلطان؟

ثم لطم رأسه على الحائط بقوة. شعر بالبناية تهتز. و أحس بنابليون يقهقه فوق رأسه و يكشر ضاحكا.

« لونجا يا لونجا. شعرتك خبالة. دلي لي سالفك نطلع. »

دخل الكتاتبي مكتب الميلود بولحيا ولد السي لخضر حين سمع صرخات صالح و غضبه يتردد وسط أبهية دار البلدية. كان وجهه أصفر، يحاول أن يكتم خوفه.

« فرقعها. مع أني قلت له مرارا تمهل. سيأتي يوم و نكشف كل أوراقهم. هو لا يعرف بأنه يدمر كل شيء؟ »

انتبه صالح لدخوله. كان غارقا حتى الآذان في دم الشهداء الذي فاض من قلبه و من ذاكرته و من كل جسده. عيناه فشلتا في مقاومة الدموع التي نزلت بقوة.

ـ شوف يا الكتاتبي خويا؟ الميلود، ولد السي لخضر اللي بال على رأس أمه و قتلها بالفقعة يطلب مني تبرير ما ورد في ملفي؟ تصور يا خويا؟

هزه الكتاتبي من كتفيه بقوة. شعر بصلابة عوده.

. عمي صالح جننت؟ واش قلنا؟ أنت تخرب كل شيء.

ـ يا موح وليدي، أكاد أجن. لا أصدق عيني. خرجناهم من الباب، دخلوا من التاقة.

. عمي صالح، اسمع لي على الأقل؟ ما تخشنش راسك.

. يلعبون بدمنا، يسترزقون به و يحولونه إلى تكريمات و أوسمة وفلات وكباريهات و سيارات فخمة...

ضرب برأسه على الحائط مرة أخرى. سال الدم على جبهته. ثم عاود الضربة ثانية. نشب أظافره على الإسمنت البارد.

. هاهم قد عادوا، هم و أولادهم و أولاد أولادهم. من يوقف سيولهم؟ خرجناهم من الباب، عادوا من التاقة. يا موح، ألم تعرف بعد؟ إنهم ينحدرون بالبلاد إلى الموت و الحرب الأهلية الظالمة و المدمرة. سيحترق الأخضر و اليابس و لن ينفع بعدها أي شيء.

حاول موح الكتاتبي عبثا أن يربت على كتفه. أخذ صالح بن عامر الزوفري زوراطته التي سقطت على الأرض التفت نحو الميلود ولد السي لخضر. كشر عن أسنان حادة، حادة كسكاكين الجزارين. رفع يده و فكر أن يفجر رأسه و يحوله إلى عجينة. كان الميلود قد بدأ يبول في سرواله من تخوفه من هذا الوجه الذي تحول إلى قطعة حديد ساخنة. اصفرت تقاسيمه كميت لحظة الاحتضار.

. بعد كل هذا تأتي أنت يا الميلود؟

. عمي صالح. يرحم والديك قل لي مالك؟ واش بك؟

تدحرجت الكلمات مرتبكة داخل حنجرة الميلود الذي حاول أن يخفف من حدة الوضع و لم يزد من استفزاز صالح. مكتبه ملأه الرعب والخوف و اللغط. تدخل الحاضرون و الموظفون لحسم الموقف. تفادى الجميع استدعاء الجندرمة أو الأمن.

. عمي صالح... أنا في خدمتك؟ ما كانش قصدي.

كررها الميلود بارتجافة اختلت معها أمعاؤه الخاوية.

التفت صالح نحو الجميع و هو يحاول أن يتحكم قليلا في أعصابه حتي لا يفجر رأس الميلود بدبوسه الذي لوى به جسد ياسين الذي لم يره منذ ذلك اليوم.

. شوفوا يا ناس؟ أنا صالح ولد عامر الزوفري الهلالي، سبع امسيردا، تحولت إلى عنصر خطير على هذا البلد الذي أعطيته دم قلبي. يستنجدون بالملفات التي خلفها القتلة وراءهم. نعم كنت عنصرا خطيرا على الاستعمار لأني شرَّبتهم المر. وين الاستقلال؟

كانت الرجفة التي اكتسحت كل جسده و أعضائه و جعلت قلبه يدق دقات بعنف، خفت كثيرا و بدأ يعود إلى رشده. بصق على الأرض. نظر إلى كل الوجوه التي بدت له متعبة و تخبئ وراء تجاعيدها أسرارا كثيرة. انحنى على ركبتيه. وضع إصبعه في فمه حتى غاب في حلقومه. تقيأ في وسط القاعة. و لم يتوقف إلا عندما رأى خيوط الدم تتسلل من فمه كالأسلاك الرقيقة. هو دائما هكذا. يقول سيدي علي التوناني، على وقاحته، إن قيح القلب ومتاعبه يخرجان مع القيء. بعدها، احمر خداه قليلا و بانت نتف الزغب التي تملأ صدغيه، نافرة و سوداء أكثر. كانت العيون مندهشة، تتأمل حركاته التي لم يفهمها إلا الذين يعرفونه جيدا.

عندما نهض لم يسأل أحدا و لكنه اندفع بدون أن يلتفت وراءه نحو الباب بكل قواه و هو يخبئ كامل وجهه.

و في الطريق ظلت تترنح في أذنيه أصوات الميلود ولد السي لخضر، مرتبكة. عمي صالح؟ بابا صالح؟ إرجع الله يرضى عليك. و أنين أم الميلود و هي تحاول أن تتفادى النظر إلى عضوه و هو يرفع رأسها نحوه لتراه. و صورة نابيلون المنقوشة على الحائط. في البداية شعر بها تستفزه في حريته و شبابه. و لكنه ادرك بعدها أنها كانت في مكانها الطبيعي، فلا شيء تغير. نابليون كان واقفا وقفته المعتادة. يد داخل الصدر وأخرى على المؤخرة، و نظرة لا تستقر على أي شيء.

شعر بصوت الميلود يلاحقه مكدودا، مرتجفا و يائسا، بعد ان انطفأ نهائيا صوت موح الكتاتبي.

. عمي صالح، لا تكن مجنونا. أنا هنا لخدمتك.

و قبل أن يسقط على وجهه، قرب دار البلدية اختلطت في رأسه كل الألوان معجونة بعضو بولحيا المقوص، و برأس العجوزة الفقيرة فاطنة، و جيوش العسكر، و أزمنة الدمار الفائتة، ودار البلدية، و وجه الحاج السبايبي الذي حاول إغراءه، و بول

حمير الحارات الفقيرة، وروث بقرة ماما عيشة التي تلتصق كل صباح بذيلها و تعارك كل من يسرق زبل بقرتها.

« ناس تسرق خيرات البلاد و تاريخها و آخرون يسرقون زبل بعضهم بعضا. »

أغمض عينيه، ثم واصل جريه بدون أن يلتفت وراءه.

هاه يا صويلح، تحولتَ إلى Elément dangereux. ترفضك التربة التي قاتلت الجيوش الجرارة من أجل حمايتها. عنصر خطير يا صويلح أنتَ، على راحة البلدة؟ عليك أن تترك مكانك للآخرين. أنت لم تعد شيئا. لا شيء تماما. و ربما أقل من ذلك. أمض و امش و اترك المسافات تطول ربما صادفتَ أحد الشهداء و قاسمته همك و أحزانك.

لم يلتفت. كان يشعر كأن وراءه وديان الدم و آلاف العظام وملايين الأشلاء و القديد الآدمي، تطارده و تلومه على نومه و نسيانه بينما الآخرون يبيعون كل ما يقبل البيع و يتاجرون في الدم و يحولونه إلى مناصب و رتب عسكرية و فلات وقصور و فنادق وحمامات و خطابات وطنية. الكل يلعنه. الكلب و الأسد. الخائن و الشهيد. و هو يجري ويتلوى كطفل لدغته أفعى و عزلته تزداد اتساعا و قلبه يتهاوى.

لم يلتفت و لكن عيناه انتصبتا باتجاه بيته و الاسطبل ولزرق وعيون لونجا التي كانت تنتظره بقلب هش و خوف مبطن.

الفصل الثالث
احتمالات موت مؤجل

-1-

مر الليل على ناس البراريك قاسيا. موجة البرد و الأمطار زادت قوة و كثتفة. الخالدي لم يفتح حانوته_. ظلت براكة احميده القهواجي باردة و مهجورة، لم يرتدها أي واحد من الزبائن، حتى المداومين منهم. حتى الفقيه الكسول الذي يقوم لأول مرة و يؤذن في الناس، لم يسمعه أحد. لم تزل الكتلة السوداء التي كانت تغطي صفحة السماء بكاملها. فقد ظلت تتشكل في صور أفاع وحيات خرافية ضخمة. الأمطار لم تتوقف و لكنها زادت سمكا. يسمع نقرها من بعيد و هي تتكسر على أسطح البراريك التي خفَّت مقاومتها. في الزوايا الأكثر دفءا في البراريك، اختبأ الناس، شربوا القهوة و تكهنوا:

. الدنيا قاسية و هذه علائم الثلج. الوادي سيفيض حتما.

هو ذا الشتاء يصل إلى أقصى درجات البرودة.

« الحفظ من عند الله. »

جملة ترددها العجائز كلما صار الخطر محدقا بالناس و بالمواشي و بمآويهم. عجائز البلدة المجربات، تخشين أخبار البرد و المسافات و الثلوج التي لا ترحم. فالوادي الذي يشق البلدة إلى نصفين، كل سنة يترك وراءه ضحاياه و خرابه و مع ذلك فهم يفضلون هذه الحالة على الجفاف. قسم من شرايين الوادي التي تمر عبر البلدة مبنية بشكل مقاوم للسيول. الجنبات متراصة بالأحجار و الإسمنت والبيطون، و بها مجار صغيرة مخففة لتسريب المياه كلما فاض الوادي الكبير. بنيت منذ الفترة الاستعمارية لري الحقول المجاورة، لكن مع كثرة الإهمال يحدث أن تنسد هذه الثقوب، فترتفع المياه و تتسبب في الفضيانات التي تأكل كل خيرات البلدة. الناس يخافون بطش الوادي. فهو حين يفيض يمسح كل شيء في طريقه. حتى حركة الحمام غابت و لم تعد الطيور الملونة تحط على حافة النهر. ارتعدت الزرائب المكشوفة على الهواء و تمايلت أكوام السدرة الملتصقة ببعضها البعض في شكل دائري. تداخلت العظام كالإبر. عادت الذئاب إلى عوائها المخيف، و سكنت الكلاب

قليلا بعد أن تنابحت طوال الليل و تآكلت فيما بينها. بدأت أصوات الديكة في البلدة تخف و لم تعد تسمع الملائكة التي تناديها كل فجر من أبراج السماء العالية. اسودت الفضاءات و ضاقت سبل الدنيا على ذويها. يخافون تساقط الثلوج مع أنهم يموتون يوميا ببرودة قاتلة، أكثر من برودة هذا الثلج. بقايا أشواك السدرة اليابسة تملأ الطرقات المهجورة و الأزقة الضيقة. تصاعدت رائحة البريو_ مختلطة بالتربة و الأمطار و روائح الزنك الصدئ الذي يغطي كافة البراريك. بعض الكلاب ترفع إحدى قوائمها الأخيرة و تبول في سخرية مطلقة من البرودة. الأمطار حولت الدروب الضيقة إلى عجينة رفست ألف مرة قبل أن تخمر. اختلطت أصوات مهاريس القرية بآلات النسيج الصغيرة، والرحي الشعبية، التي تطحن فيها عادة، نسوة البراريك، الحبوب الجافة لأيام الأعياد الموسمية. نشيج الأطفال الذين قتلتهم البرودة، يسمع من بعيد مصحوبا بدندنات آباهم اليائسة الذين لا يملكون شيئا آخر ضد البرد إلا الكلام.

لحظة تهب الأرياح الباردة مصحوبة بزخات أمطار ثقيلة، تصفق مرتعدة، أسطح براكات الزنك. يحلق بعضها في السماء عاليا، ثم يتساقط بتثاقل على الوحل، فيتجارى الأطفال و الأم والأب و أحيانا الجدة التي تآكلت، ثم يعيدون قطعة الزنك إلى موضعها الأول قبل أن تسرق و يقسم الذين سرقوها أنها لهم، و يضعون عليها كتلا ضخمة من الصخور حتى لا تسقط إلا إذا سقط الحائط الذي يحملها.

ناس البراريك هكذا، يخافون من النهايات المفاجئة. فمع قدوم كل شتاء، تقطع هذه الزنكات المنتشرة على الأسطح، رؤوس خلق الله، أو تشرد عائلات بكاملها. الشتاء الماضي حصدت رأسي بنت و أختها كانت تحملها على ظهرها. حين تجارى الناس على إثر صرخة جافة، وجدوا البنتين غارقتين في الوحل و مياه الأمطار.

حتى الحمير التي تعودت النهيق بدون مناسبة، و ألفها الناس، خفتت أصواتها. الحمار صار عزيزا هذه الأيام في امسيردا. في الفترة الأخيرة تكاثرت سرقتهم. آخر المسروقين كان العم شقرون، عامل لادريس_. قلب الدنيا و أقعدها. كان حماره وسيلته الوحيدة لجر الماء من الساقية، والسفر و النتقل إلى الأسواق الشعبية. يقولون في مسيردا، أن من لا حمار له، موته أحسن من حياته. و ذات فجر، حين

أتعبه القنوط، عرفه من نهيقه و من بحة صوته. وجده بكامل عافيته عند الوادي. هذا هو منطق البلدة. يسرقون الحمار، يحملونه بالبضائع المهربة، و يقطعون به الحدود التي لا تنتهي. فإذا مروا بسلام، أطلقوا سراحه و أعادوه إلى صاحبه بسرية تامة، و إذا فوجئوا بجمارك الحدود، هربوا، و حجزت البضاعة، و بيع الحمار في المزاد العلني بأبخس الأثمان.

عادت الخرفان الصغيرة إلى الثغاء من شدة البرد و الجوع.

بدأت مسيردا بكامل أطرافها، تلتف حول نفسها بخوف. كانت البرودة قد تضاعفت أكثر مما كانت عليه في الفجر الأول، ومال لون السماء نحو بياض مشبوه.

في البداية ظنوا أنها مجرد إنذارات بمطر غزير آخر، لكن سرعان ما تيقنوا من أن البلدة مقدمة على أيام عصيبة حين بدأت نتف الثلج الخفيفة تتساقط لتملأ الطرقات و الأسطح، و الأزقة الباردة التي لا تصلها الشمس.

أطلت الشمس خجولة من وراء كثافة الغيم، سرعن ما انطمست من جديد. خرج الأطفال يتراشقون ويتصايحون.

مسح الخالدي وجهه عند باب دارهم. تثاءب طويلا قبل أن يتوجه إلى الحانوت. يسمون دكانته في البلدة، الصيدلية، ويسمونه هو الفرماسيان، يبيع المواد الاستهلاكية بأضعاف أسعارها.

اختبأت الشمس من جديد. كان الثلج قد تقوى أكثر.

مر بجانب دار لونجا و هو يرفع رجليه بتثاقل. كانت عند الباب.عيناها منتفختين من قلة النوم، مثبتتين على أفق غامض. تمنى لو سألها عن سر غياب صالح ابن عامر الزوفري، لكنه ألغى الفكرة، وواصل تدحرجه نحو دكانه.

« .كل شيء يخبأ في هذه البلدة إلا الأخبار. »

حين فتح باب الحانوت، فوجئ بالفوضى. مسح عينيه جيدا ثم صرخ مندهشا:

« . و الله هذه سرقة. أولاد الكلاب. »

لم يثره الموقف كثيرا، فقد تعود على السطو في مثل هذه الأيام الباردة من كل سنة. و قبل أن يقوم بترتيب الأمور، أوقد المجمر. سخن يديه اللتين تثلجتا ثم أخذ

يبعد المواد الإستهلاكية عن الرفوف خوفا من القطرة التي فاجأته في الركن الأيمن من السطح. دفعها إلى إحدى الزوايا. كومها فوق بعضها البعض ثم وضع عليها جلدا قديما و عاد إلى الجلوس على أحد الكراسي القديمة ليسخن رجليه اللتين تورمتا. نزع حذاءه الذي فاضت منه رائحة كريهة. و أخذ يتأمل الفوضى التي خلفها الذين سرقوا الحانوت.

ـ يا لطيف؟ السراق أطفال حتما. لم يجدوا الدراهم. فخلطوا الحناء بالكاز، بالمازوت. يا لطيف. هكذا دائما، مثل الحلاليف، يدمرون أكثر مما يستفيدون.

حاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ثم لف الباقي داخل أكياس بلاستيكية جمع فيها الصابون و السكر و الملح و الدقيق و الحبوب الجافة المخلوطة مع بعضها البعض. لم تعد صالحة لأي شيء و غير قابلة للتنقية. كوم الأكياس عند الباب ثم وضع الطاولات و الكراسي عند المدخل، في الزاوية و أشعل نار المجمر الثاني لتدفئة لاعبي الكارطة حتى لا ينسحبون.

بدأ رواد حانوت الخالدي، يتكورون، و يلتفُّون حول المجر الذي كانت جماره تتفرقع. كبرت الدائرة. أخرج ياسين الكارطة_. أخلط الأوراق. وضعها على الطاولة ثم فرك يديه:

. كلب الدشرة منذ فترة لم يظهر؟

. و الله كان رجلا طيبا وفحلا. عاش ما كسب. راح ما خلى.

قال الخالدي و عيناه مثبتتان على السقف حيث بدأت مساحة القطرة تتسع و انتفاخه المثقل بالأتربة يزداد هبوطا

. صالح كان رجلا. كلمته يقوله في الوجه و ليس في الظهر.

. أنت هذه حالتك إذا لم تتعاطف مع النساء تعاطفت مع التافهين.

. احترم روحك يا ياسين و إلا راك تندم.

. رقية مميس أنت يا الخالدي. واش راح تدير؟ تدافع عنه و كأنك... كلبه...

. ما كانش كلب غيرك يا ياسين. ما تخافش، اللي سرقوا الحانوت سيظهرون.

قالها مركزا على الجملة الأخيرة.

. اسكت يا الفرماسيان.

ـ صحيح أني ألعب في الأسعار لأن الدنيا لعابة و لازم تلعب لعوبك و تنسى كذوبك. لكنك تافة وتقبض في زنطيط_ السبايبي.

شعر ياسين بالإهانة. لقد ضاعت رهبته منذ أن كسر شوكته صالح بن عامر الزوفري. اصفر وجهه. تفاجأ كيف أن الخالدي، ضعيف السخنة، المسالم و الخواف، يتجرأ على قول مثل هذا الكلام. فكر في كسر دماغه، لكنه سرعان ما كشف خلفية الموقف. رأى من تحت أهداب عينيه المنكسرتين أبناء عم الخالدي الثلاثة الواقفين وراءه. عيونهم تتراقص، منتظرة اللحظة التي يحرك فيها ياسين يديه.أحنى رأسه ثم واصل لعب الكارطة.

دخلت لونجا إلى الحانوت و هي ملفوفة في فوطة قبائلية نارية. وجهها محمر كتفاحة. رآها ياسين. في لحظة ما اشتهاها لكنه كان فاشلا في الوصول لها. نظرتها الحادة قمعت رغبته.

. كيلو سكر يا الخالدي خويا. يرحم والديك.

ـ شوفي يا لونجا ماذا فعل أولاد الكلبة. خلطوا الحناء بالسكر بالصابون بالفارينا بالكاز. الله يلعن اللي جابهم. منكر. الحمار اللي وراء هذه العملة سنعرفه قريبا.

قالها و هو يركز نظره على ياسين الذي تظاهر بلعب الكارطة.

. أنت هكذا دائما. كل شتاء يعريوك. لازم تشوف حل معهم.

. خليها على الله. يجي نهارهم؟ ما تخافيش.

أرادت أن تلعنه. هو كذلك لا يرحم أحدا في الأسعار. لكنها في أعماقها شعرت بأنه قالها بمودة و لم يبد في كلامه أي استفزاز. انحنى. خبأ أنفه في كارتونات قديمة و أخرج منها السكر.

. كانوا يريدون سرقة الدراهم و إلا لما تركوا حبة سكر أو قهوة.

. كبر قلبك يا الخالدي.

وضعت على الطاولة العتيقة دينارا و نصف دينار، كانت تخيئهما في قبضة يدها اليسرى الدافئة.

. إذا ما عندكش ما عليهش. الأحباب لبعضهم يا لونجا.

. يكثر خيرك يا الخالدي. الحمد لله.

. حبيت نسولك؟ صحيح الحاجة طيطما وجدوها مذبوحة في خرجة سيدي بلعباس؟

. مثلك سمعت. هذا مايحكيه القادمون من سيدي بلعباس.

. شرطة سيدي بلعباس صعبة. راح يجيوكم حتى للدار.

ـ مرحبا بهم. يشربون شايا و يذهبون. صالح قطع معها من زمان. و كل الناس يعرفون ذلك. صالح أقسم بأن لا يرجع إلى فلاج اللفت. الحاجة نفسها اختارت الذهاب مع العسكري المتقاعد الذي وعدها بالزواج.

. و بلاكش عمي صالح راح لسيدي بلعباس من أجل هذه القضية.

. يا الخالدي أنت تفترض لوحدك. صالح لا يكذب. قطع معها.

. و أين راح إذن.

. ما قالش. الله يلعن اللي كان السبب. فمنذ حكاية البلدية التي رواها لي الكتاتبي الله يكثر خيره، لم أسمع عنه شيئا.

. عمي صالح يا يا لونجا ما يزال حارا. الميلود ولد السي لخضر، بولحيا، جرحه.

. بلاد ميكي. الخيانة و التفنطيز.

. الله يلعن أولاد الكلبة. هذا زمن، الحمار صار فيه غزالا.

. ما تخافش يا الخالدي. ولد اللبية_ ما ينقهرش.

شعرت بدوار في رأسها. حاولت أن تداري و تقنع نفسها بأن المسألة عادية، لكنها لم تستطع. اتكأت على الطاولة التي كان يقف الخالدي من ورائها قليلا. سألها مندهشا:

. واش بك يا لونجا؟

ـ لا شيء. رأسي دار. عندما يحكون عن بولحيا رأسي يدور وأشعر برغبة في التقيؤ.

. الله يشافي.

تدحرجت في مكانها. تذكرت وجه صالح الذي لا ينفذ دفؤه. فكرت في البكاء، لكن المسألة بدت لها عبثية.

ـ بولحيا لم يكن الخائن و لا المجرم الوحيد. هناك آخرون، و البلدية تعرفهم و تغطي عليهم.

التفتت صوب الصوت. عرفته من عينيه البراقتين المحمرتين.

ياسين. قالها مفرجا عن أسنان صفرتها الخمرة الرديئة والكيف. ثم أحنى رأسه مرة أخرى. تمتم بكلمات تسربت مرتبكة من تحت أنفه لم يفكها أحد إلا هو.

. اللي ينطح الحيط، تتكسر قرونه.

. و اللي يحسب لروحه، يشيط له.

ثم التفتت نحو الخالدي الذي انتبه لاستفزازات ياسين المجانية. أحس به أنه لم يأت إلى هذا المكان إلا لينتقم من صالح أو من محيطه. الكارطة لم تكن إلا مطية للجلوس. فكر في طرده و لكنه لم يرد أن يكبرها، كما يقول دائما.

. لما تحب توري شطارتك، روح للرجال يا السي ياسين.

. الكلب كلب يا الخالدي. لما تضربه بحجرة يزيد ينبح.

قالتها لونجا بدون حتى أن تلتفت إلى ياسين الذي كان منهمكا في خلط الأوراق. شعر بالغيض يصعد من قلبه. اشتعلت فيه نيران الانتقام و لكنه هذه المرة كذلك خاف من الخالدي و أبناء عمه.

. تفو. قحبة.

خرجت من فم ياسين مرتبكة و غير واضحة.

. قواد السبايبي.

رد الخالدي بنفس الهمهمة الغامضة. شعر ياسين بثقل الكلمة. حاول أن يقوم، لكن أحد لاعبي الكارطة ربت على كتفيه ثم أجلسه بهدوء:

. كبر عقلك يا ياسين. ما توصلش نفسك للموت.

ضغط الخالدي على كتفي ياسين بدوره. و حاول تهدئته بشكل استفزازي. كانت لونجا قد ابتعدت عن المكان.

ـ شطارة الرجال تبان مع الرجال. لونجا امرأة. و لو كان صالح هنا لما تجرأت على قول مثل هذا الكلام.

بلع كلام الخالدي بمذلة. تآكلت الأشياء السوداء بداخله. تمنى لو كان الخالدي وحده، لأكله نيئا، لكن الأشباح الثقيلة التي كانت تحرصه، أخافته. قام من مكانه. ضرب الكارطة على الطاولة. بصق على الأرض بحقد. حملق في وجه الخالدي

بتمعن، و بعيون صغرت حتى لم تعد ترى شيئا. تحسس سكينه. فكر في أن يدحرج الصندوق الخشبي الذي كان يجلس عليه، لكنه حسب حسابات عدة، فألغى الفكرة. ضرب يدا بيد. رفع يافطة معطفه حتى غطت رقبته ثم تدحرج نحو البراريك. من حين لآخر تتناثر الثلوج تحت ركلاته العنيفة و المتواصلة .

في المنحدر، حين التفتت لونجا، التقت عيناها بعينيه. كانت بعيدة، بصقت على الأرض، ثم واصلت سيرها بسرعة. بينما كان هو يحاول أن يبحث عن أكثر طرقات البراريك اختصارا.

لم يتوقف تساقط الثلوج منذ الفجر. حتى الشمس كانت تطل و تختبئ بخجل. وقبل أن تفتح لونجا باب دارها، شعرت مرة أخرى بالدوار. تدحرجت في مكانها. ثم تهاوت و غابت كما تغيب هذه الأشياء الجميلة الواحدة تلو الأخرى. و حين فتحت عينيها، وجدت نفسها في حجر ماما عيشة. كانت على ظهرها، ترتعد بشدة، رغم الأغطية الصوفية التي وضعتها على صدرها. مشطت لها رأسها. زينتها بالعطور حتى تخف عنها حمى البرد ثم حكت لها كيف سقطت على الثلج عند الباب و كيف تجارى نحوها الناس و كيف أخذوها إلى بيتها. و حين فحصتها، عرفت أن الدوخة لم تكن إلا علامة من علامات الحمل.

و في المساء، كان يوم آخر قد مر على دورته العادية، باردا و ممطرا جدا.صالح لم يعد. ولا أحد يعرف مكانه. الناس في حي البراريك، شي رايح شي جاي، و لونجا ما تزال تمشط شعرها وتسرحه، و تحسبه شعرة شعرة قبل أن تعود لها الغولة ليلا و تعده.

نشطت الحركة قليلا بشكل تلقائي. لا شيء يزعج. إلا الثلوج التي لم يتوقف تساقطها، و الوادي الذي بدأ يهدد البلدة بالفيضان الكبير على الرغم من دأب عمال البلدية لتنقية الممرات المسدودة عند حدود مقهى رومل الذي واصل عمله بشكل عادي على الرغم من الغياب الكلي للزبائن. هو يعرف أن حرب الفيضان، حينما تندلع، ستبدأ من مقهى رومل القهواجي. و مع ذلك، فهو لا يخاف من أي شيء. الخسارة لن تكون كبيرة. كراسي البانبو قديمة، و حتى الوديان تعافها. وسيجدها حتما إذا جرفتها المياه، بعد يوم أو يومين على حافة من حوافي الوادي.

الكل دبت فيه الحركة إلا مقهى رومل، فقد ظل شبه معطل. غياب الزبائن و ركون القهواجي في صدر القهي، بالقرب من دفء المجمر. الذين لم ينتبهوا لوجوده، ظنوه سافر مع صالح، لكنهم سرعان ما أدركوا الحقيقة حين عرفوا أن رومل موجود و لكنه مريض و لهذا لم يشرع بابه كالعادة على الحمام و حافة الوادي. لم يعد جسده المنهك، المنتهك، قادرا على مقاومة البرد و هموم ناس البراريك و قتالهم المجاني.

ازدادت رقعة القطرة المتسربة من السقف راسمة بركا صغيرة في عمق الحانوت. مما اضطر الخالدي إلى سحب كل المواد الإستهلاكية إلى بيته و غلق الدكان. حتى بقرة ماما عيشة عجزت عن مقاومة هذه البرودة السامة. كانت ترتعد من قساوة الثلج. الزريبة غير كافية لوقايتها من أمراض الشتاء. أطلت ماما عيشة برأسها من الباب، ثم اختبأت من جديد في براكتها و هي تمتم:

. الله يحفظ البقرة و يحفظنا معها.

بالقرب من الوادي الفائض، و من مقهى رومل،كان الأطفال يتراكضون، ويتراشقون بالثلوج. تأتي الحمامات. تقف على الحافة. تنتظر رومل، و حين تفاجئها صراخات الأطفال، تطير من جديد في الفضاءات الواسعة، بحثا عن لحظة دفء صغيرة.

وسط هذه الحركة المتناغمة كانت لونجا تصلي بخشوع و تدعو الله أن يعيد لها صالح سالما معافى، و تتحسس بطنها الذي بدا لها مكورا على غير عادته.

« سيكون هلاليا صحيحا أو هلالية مثل الجازية. »

ابتسمت ثم تغلغلت في عمق الفراش و الدفء.

-2-

« و إذ يأتيهم يوم البين و الفصل، تمر الأعوام مسرعة كالبرق الساطع وهي أيام. تغوص الأقمار في وحل الوديان و يموت النور. تلتهم الأضواء حيات عمياء سكنت البحار السبعة منذ قرون. تفيض الأنهار و ينقلب النسل على ذويه. الصغير يطمع في الكبير و الكبير يطمع في الصغير، تقتل الأم ابنها حتى لا يأخذه القتلة و يقتل الابن أمه لإرضاء القتلة و يقتل الأب الإثنين لأن سبل الدنيا ضاعت عليه، و يختلط الحابل بالنابل و لا دعوة تنفع، فكل شيء في تلك البلاد يأتي متأخرا عن موعده... »

« الله يسخطك يا التوناني، كل دعاويك صادقة. لماذا لم تقل خيرا في بني هلال؟ »

سيدي علي التوناني أسطورة كبيرة عند الهلاليين و لكنه، الله لا يرحمه، أسطورة مؤذية و قاسية. كل الناس يخافون كلامه. كلما فتح فمه تجارى الناس نحوه يطلبون منه أن يقول خيرا في رجال البلاد و أن لا يذهب بعيدا في غضبه.

توقف تساقط الثلج، لكن البرودة اللاسعة ظلت تحفر عظام الفقراء كالدبابيس. الذعر دخل النفوس، و الوادي المشؤوم، بين اللحظة و الأخرى، يهدد بالفيضان و بمحو القرية التي توقع سيدي علي التوناني غرقها نهائيا في الألف الجديدة و لا أحد يعرف متى تأتي الألف الجديدة، ربما كانت هذه.

مياه الوادي زادت و أصبحت تهدد بفيضان كاسح كالذي حكى عنه السابقون و الذي ذكره التوناني في تدوينه المشؤوم. عمال البلدية اشتغلوا قليلا ثم تخلوا نهائيا عن العمل لأن الماء الصاعد لم يسهل لهم مهمة العمل، فعوضهم سكان البراريك. لون الأسطح الزنكية غاب تحت كتل الثلج البيضاء الناصعة. و احتل قلوب الناس صقيع بارد يشبه الخوف.

القرية كلها تحولت إلى بركة و إلى ورشة يشتغل فيها الصغير و الكبير، كل من جهته. قيل فيما قيل عن غياب صالح بن عامر الزوفري، إن العلامة ستظهر بعد تساقط الثلج. و تساقط الثلج و لم تظهر؟ وقيل إن غيابه من علامات الغيب و

النبوة، و هو الآن، ربما في أحد الغيران يتعبد و يخشع لإله لا يستجيب بسرعة للقوم الفقراء و سيعود بعد الانتهاء من تدوين مضاد للتوناني.

في ذات اليوم الذي تقاتلت فيه الأسئلة و تناقضت فيه الأجوبة عن صالح، تساءل حشد آخر من الناس عن سر غياب هذا الوجه الذي قاوم كل المصاعب و غاب فجأة، و حاولوا أن يعودوا إلى مسالك البلدية و يسألونها، لأن صالح خرج من هناك ممتلئ القلب، حزينا و منكسرا. و أجمعوا أن الخيبة الكبرى هي التي دفعت به نحو مجاهيل الخروج مثلما كان يفعل أجداده الأوائل عندما كانوا يغضبون و ينكسرون.

التوناني يؤكد على ذلك. يقول إن الفقراء دائما هكذا. يتقاتلون على نفايات الفقر، ولا يقدرون قيمة بعضهم البعض إلا حين يطعن الموت أو الغياب واحدا منهم. يتشتتون في ربوع الدنيا حزانى و يقسمون أن لا يعودوا إلى معاركهم الخاسرة و لكن بمجرد مرور الأيام ينسون بسرعة و يعودون إلى تهتكهم.

و يقول الذين عاشروا صالح بن عامر الزوفري، أحبوه و حاربوه، إنه كان طيبا و رجلا شهما. نموذج المعدن الصافي الذي لا يمكن أن يتسخ. عمي صالح، الزرواطة والمكحلة. حين يتعلق الأمر بالحياة أو بالموت، يضعها بين يديه. يركب لزرق، ثم مثل محمد بلخير الشاعر المهبول الذي قتلته أنفته و حبه لأرضه، يصعد الدم إلى عينيه، و ينسى في لحظة ما العالم الذي يحيط به و تصبح الدنيا في عينيه قاب قوسين أو أدنى من الدمار. يقول دائما. ثقتي في المكحلة لا توازيها ثقة. أحسن من عشرة أصدقاء. يخونون و لا تخون.

« سِرْ يا لزرق. سِرْ. أنا و أنت و مكتابي، عايش جوال. ما تقهرني لا الدنيا و لا بحور الشوق. »

عشق الوجوه الأليفة و المسيردية. طلب ولدا، لكن السماء أحجمت وأعطاه ثلجا ظل يحب لونه و يكره برده و صقيعه. و فاتح السماء مرة أخرى في أشواقه، لكنها هذه المرة كذلك لم تستجب. و حين اعتلى سرج عوده، تحول العود بين يديه إلى براق مجنح، إلى بوبركات_، و سافر نحو عوالم صعبة، لا يدركها إلا الذي خلقها. و يقال، و الله هو خير العارفين، إنه وجد الصحابة م الأنبياء و الشهداء. أعجبه

مجلسهم، أكل معهم حتى الشبع ثم نام قرير العين. و حين استيقظ، كان متعبا و مرهقا، شرب شايا واعتلى لزرق، ثم أغمض عينيه و ترك بوبركات يطير به نحو المجهول.

قال ابن عبد الله السكايري الذي كان يقضم بقية ليلته الأخيرة في أحد الوديان، لحظات، قبل أن ينغرس سكين ما على ظهره و ينام إلى الأبد، إن صالح من كثرة الهم و الغم و المفاجأة التي لذعته في دار البلدية، شرب حتى كاد يموت و تسارعت دقات قلبه وتحرك الدم في شراييه كالرغبة المذبوحة. تذكر هموم الدنيا. حك ذقنه، فأبيض. و ظل يحك ويبيض حتى تحول إلى ثلوج حملتها الريح وسافرت بها إلى القمم الباردة. مسكين صويلح، أكد ابن عبد الله السكايري، حين يستيقظ، سيجد نفسه باردا و على ارتفاع شاهق يستحيل معه النزول نحو الأرض، و قبل أن يدرك الموقف بكل تفاصيله، سيسقط و يتكسر أنفه ولن يندم على ألمه. لأن ما حدث له لا يحدث لكل الناس، حالة نادرة تمس الناس النادرين فقط.

« آه يا صالح يا وليدي. كما اليوم إن شاء الله، ستشهد ميلاد أول طفل يعيد بعث الذرية الصالحة. المرأة التي وضعت في رحمها نطفة و سافرت، تنتظر عودتك بسلام فلا تركب رأسك.»

قالت حنا عيشة و هي فارجة رجليها، على يمينها مجمر متقد و على يسارها قصعة ماء ساخن، تحاول جاهدة، أن تخرج رأس الطفل التصق برحم أمه كالعلقة. يامنة، زوجة الخالدي كانت مرهقة من كثرة الضغط بأقصى قوة لخروج الوليد. تحاول أن تكتم أنفاسها و تتنهد بسرعة لتسهيل خروج الرأس على الأقل:

. هذا راسه خشن كما بوه؟

ـ آه يا يما عيشة، في يديك البركة و الرحمة. لازم يشبه لي. جميل و كريم. الخالدي مشحاح.

. إن شاء الله. لو كان يسمعك الخالدي يقلب عليك الدنيا.

تبتهل حنا عيشة كعادتها. تمتم بحيث لا تسمع إلا نفسها:

بأسم الله. أخرج يا وليدي. عمك صالح كان يطلب الأولاد، لكن الدنيا بنت الكلب. تعطي اللحم للي ما عندوش السنين. قيل يا وليدي، إنه خرج منفتح القلب، يستعيد

طفولته التي أكلتها الحروب، عند أخته خضراء، آخر سلالة بني هلال النسوية. يقاسمها الوحدة القاسية و الفراغ و الغربة التي تأكلها في الأراضي البعيدة. هذا هو صالح؟ من كثرة حبه للأطفال و المسيردية، حين انفتح عليه باب السماء، خرجت منه نجمة هاربة. عجبه لونها، أغراها بجنونه. ضاجعها حتى أغمي عليه. و كان القمر مكتملا وواضحا. طلب من نوره المتوهج أن يحوله إلى طفل يأكل إبهامه. سمع صوتها يأتيه دافئا و غامضا. يا صالح بن عامر الزوفري يا ابن الناس. الناس جميعا. عليك أن تشرب لبن العصافير، و تقطع مسالك الربع الخالي المقفرة. وكان لصوت الهاتف ما أراد. حين ملأت رغوة الحليب فمه، شعر بنفسه يحترق و بخلاياه تصغر، وتصغر، حتى تحول إلى صبي، يرغي في البرية الموحشة. يقول الطالع الذي تأكد من تفاصيل الحكاية. سيشرب من حليب الغزلان و الذئاب و سيعود حتما إلى هذه البلدة مشهرا سيفه في وجه الذين حاولوا مسخه إلى قرد. له وجه غزالة حمراء اليمن. و حين تغور الأنوار في رأسه ستخرج من أصابعه مخالب ورثها عن الذئاب الهرمة التي أرضعته و سيحارب الذين ورثوا كنوز الله على الأرض بدون توكيل. يقال إنه سيأتي على ثلثي الرعية لأنها فاسدة و لا يمكن إصلاحها أبدا.

« رغوة الحليب الدافئ يا وليدي تملأ الآن فمه.إنه يرغي. الرأس تخرج. الرحم يضيق من جديد. اللطف من عندك يا مولانا. إنها صرخة الولادة القاسية. إفرحي يا قبيلة بني هلال، سيطلع منك صبي قادر على خوض الحرب الموعودة ضد بني كلبون. جندي النار. أخو لونجا الذي لا يكل و لا تتعبه الأقدار. »

قال شهود عيان أقسموا برؤوس كل الصالحين، إنهم رأوه راجعا بسرعة من دار البلدية، و كانت وراءه قوافل من الشياطين و الجان. دخل داره. مكث برهة، ثم سرج عوده وخرج ممتطيا صهوة لزرق. قصد المقبرة. كان عرق الخوف والرعب، يمشي على وجهه كالدود. نزع بعض الحشائش الضارة التي كانت تملأ قبور الشهداء. قبل شاهدة العربي، ثم خرج، و حين هم بغلق باب المقبرة نطق بكلمات غامضة لم يلتقطوها كاملة:

« يا ناس المدينة الراقدة؟ بيني و بينكم عهد الأنبياء و الرسل و الشهداء... خدعناكم. خدعناكم. خدعناكم. يا ناس المدينة الطيبة... أصبحنا شيئا آخر على ما

عهدتمونا عليه و على غير القسم الذي قطعناه على أنفسنا أمامكم. عظامكم نتقاسمها ثم تنزل إلى الأسواق نبيعها لمن يعطينا أكثر مع الوسكي المستورد و الأقمشة و الأجبان و الأدوات المنزلية و حليب الأطفال المجفف... خدعناكم يا رجال البلاد... أنا ذاهب وراءكم. أقتفي خطاكم علِّي أنسى الخديعات التي تقود البلاد اليوم نحو حتفها النهائي. عندما تعودون ستجدون بلادا أخرى غير بلادكم، و أرضا غير التي تقاتلتم من أجلها. مثل أهل الكهف، أنتم لا تعرفون الناس و الناس لا يعرفونكم. ثم انزوى، ليس بعيدا عن النهر الذي كانت مياهه تهدد بالفيضان، وضع إصبعه في فمه و تقيأ على القرية و البلدة قاطبة. ثم امتطى لزرق و أغلق وراءه باب البيت و باب المقبرة و البلدة و خرج.

قال رجل ملتح قضى العمر وراء الجبال. يمنعه الحر صيفا، و الثلج شتاء من النزول إلى البراريك إلا عند الحاجة الملحة.يرتعد يوميا من حكاية بني كلبون التي ملأت دماغه المرهق: بنو كلبون يحفرون الآن آخر الحفر. فؤوسهم هذه المرة لم تكسر. سيتوصلون حتما إلى هدم الجبل الذي يفصل بيننا و بينهم. واحد فقط من هذه البلدة الطويلة العريضة، قادر على حرق أحلامهم والوقوف في حلوقهم كالغصة. شكون و صالح بن عامر الزوفري راح؟ ركب جوادا أدهم، تحول في خفاء ما، إلى براق لا تتعبه المسافات التي لا تحد. كل الناس يحكون أن لزرق صار مسكونا. حتى الديوانه و حراس الحدود لم يستطيعوا القبض عليه. فلماذا لا يكون صالح، هو صاحب البراق الذي يطوي الدنيا بكاملها قبل فوات الأوان وقبل أن تفاجأ بأنوف بني كلبون في مخابئنا، و قبل أن يجتاحوا البلدة؟ الجرأة و الزرواطة و المكحلة التي يمتلكها قادرة على هدم قارة بني كلبون. أضاف بعض التجار إلى قول الرجل الملتحي، أنهم رأوه على مشارف الحدود يدفن نفسه حيا في حفرة متسخة، ويتآكل كالدودة حين تلتوي على نفسها و تقضمها.

قال رومل القهواجي، السي احميد، المحزون منذ موت العربي و خروج صالح بن عامر الزوفري الذي أقعده الرشح ومرض البرد وعلته حرارة الحمى التي اشتدت عليه حتى بدا لنفسه كأنه مرمي في صحراء العلمين المقفرة: و الله يا زين الوجوه، يا صالح يا وليد البلاد الجائعة. لن يفتح المقهى في غيابك. للملح و الدم قيمة النار

و الأنجم. هي ذي أصوات المدافع يا صديقي تتحول إلى شيء مخيف يطن في الآذان. إركب جوادك. سرجه و أهرب و لا تلتفت وراءك. كلامهم كذب و مدافعهم لا تخطئ. لماذا تقف و تتسمر في مكانك؟ لا، أهرب. هناك فرق بين الجرأة والمغامرة. هاه. ها قد بدأت تتحلل إلى حبات رمل جافة. ماء تصير ثم ضبابا كثيفا ترحل مع هذا الهدير. قل لرومل كلب الألمان، بأني سأدحره. و قل لجيوش الحاج أن تستسلم قبل فوات الأوان. سأعود منتصرا إلى صطيف و إلى هذه البلدة و أفتح مقهى. قل له أني سأدفنه في رمال العلمين بكل آلياته. يجب أن تقول كل ذلك. أمانة. يقولون يا صديقي إن عيونك صعبة، مصنوعة من نار. كل من لسعته، أحرقته. فهل أخبرك بما جرى بعدك؟ لقد خانوا دمك و نسوك. كانت الحاجة طيطما قريبة إلى قلبك. عشقتها حتى و هي كبيرة. لقد ماتت بعدك. يقول العائدون من سيدي بلعباس إنها وجدت ذات صباح في باحة مسكنها بالطابق الأول مذبوحة من الأذن حتى الأذن، في كفيها بقايا من شعر الكومندار، العسكري المتقاعد الذي أكدت الجرائد الوطنية الكبرى على موته في حادث سيارة، بمعبر وادي الشولي و يقال إن سيارة كبيرة دفعت به نحو الوادي. الدنيا لم تتوقف عند هذا الحد، ابنتها هي التي صارت تسير الحوش.

و في الأسواق الشعبية، تحول صالح بن عامر الزوفري، في أفواه وفي أدمغة المتسوقين إلى أبي زيد الهلالي. خارق القدرات. يركب بغلة حمراء ينكحها عند الحاجة الماسة. و يسافر وحيدا في الظلمات، طالبا غزو بلاد المغرب. ويعسكر في المراعي الخضراء و في الغابات مع عصابته. و مع الصباح، يواصل رحلته، على يمينه سيف يمني أصيل وحاد و على شماله ذاكرة الحجاز و بلاد نجد التي طارده جفافها و قلب الجازية الذي جف كليل بدون نجوم و التي باعت ملك بني سرحان و عادت إلى قبور نجد لتحترق على نارها و رملها بهدوء.

و في أحد الأزقة المظلمة، حيث تراكمت الثلوج، رأى الناس، وهذا ما يحكيه الجميع تقريبا، آخر أبناء صالح بن عامر الزوفري الذي أفرغت أحشاءه قطط المستشفيات، يلعب مع الأطفال، و يتراشق بكرات الثلج. كان صالحا وعامريا صغيرا، و المصيبة أن بينه وبين المسيردية شبه الدم و النجوم. يركب قصبة

خضراء، تتحول في خفاء سحري، إلى فرس جموح لا تلجمه ظلمات الشتاء. يأمرها فتطير به مع الرياح التي زادت سرعتها في هذا المساء الذي لا يشبه كل الأمساء.

قيل...وقيل...وقيل... لكن ألم صالح بن عامر الزوفري و متاعبه، ظلت مدفونة في قلبه الذي انفتح حتى كاد ينفجر و كانت أكبر من كل ما قيل و نسج حوله.

-3-

يا السامعين، ما تسمعون إلا سمع الخير.

ساعة الخير جات و الظلام اللي كان راح.

نهار الحد راها تبدا الخدمة في البراج.

اللي ما جردتش روحه، يجرد.

يا السامعين...

يوم الجمعة مر باردا. حرارة ما سمعته من البراج ظلت تملأ كل خوائها. و مع ذلك، كانت تشعر و كأن شيئا جميلا تكسر في أعماقها أو ما يزال مكسرا، أو على الأقل يسير على غير عادته. تألمت في أعماقها. خدشت جرحا ما تزال تشعر بحرقته.

« والله يا بابا صالح سبعين سد، ما تجي في ظفر واحد منك. كلش كاين، و حين تبحث عنه لا تجد إلا الفراغ. ورايحة للهلاك، كما قال صالح الله يذكره بخير. واش ربح منهم؟ حتى الآن ما يزال هو هو. فقير معدم و زوالي. زمن الاستعمار كان يلبس البومنتل و لباسا عتيقا واليوم اللباس نفسه يبس على جلده. كلما رآه تذكر رائحة العظام الآدمية المحروقة و عظام الشهداء. »

كانت البلاد واسعة فضاقت على أهاليها بسرعة. صالح عندما خرج كان يائسا و منكسرا. لقد رأى ما تراه العين التي لا تقبل الذل، بلادا تشتعل فقرا و هي تنام على أنفس الخيرات؟ لم يبق أمامه إلا البكاء و الندب. و هل يبكي الزوفري بسهولة لو لم تجتحه الحرائق المدمرة؟ كانت بلادنا واسعة يا صالح فماذا حدث يا ابن أمي؟ شيء ما يسير على غير هداه. فإما أن الغلط فينا لم نفهم سحر هذه البلاد و أنها كانت دائما هكذا، خادمة لأقوياء اللحظة و للانكشارية الجدد أم أننا لم نفهمها أبدا و كل ما فعلناه حتى الآن مجرد عبث؟ من يحاكم من؟ أخرجوا له من أرشيف الموت حكما يشرفه ثم استعملوه ضده؟ باعوا قبور الشهداء و اتهموه بالخيانة الوطنية؟ شيء في هذه البلاد يسير على غير هداه؟ الشتاء و البرد و الوادي الذي يهدد بابتلاع البراريك و لا شيء تغير، صالح خرج و لم يعد. و أنا وسط كل هذه الدوامة ماذا بقي لي

غير الأساطير و الحكايات البربرية التي لا تنتهي؟ هل أحزم أمتعتي و أعود إلى بلاد القبائل؟ و هذه النطفة التي انغرست في أحشائي، ماذا أقول لها؟ قد أكذب و أقول إنه ابن الإمام و لكن هذا لن يشبعني. أريده من صالح بن عامر الزوفري الذي فتح قلبي على الدنيا و على هواء آخر.

سمعتْ صوته يأتي من بعيد، مخترقا الأقوال التي سجلت حوله، و الليالي الباردة و الخيبات المتتالية:

« لا يا لونجا. لا. بلاد القبائل ما تزال واسعة. والأحباب هناك كثيرون. ستجدين حتما من يوصلك إلى زرائب جرجرة حيث أمك، و أبوك و إخوتك. ما فيك مني و ليس من الإمام، احتفظي به حتى عودتي. قاومي الشطط و الموت، سأعود. الدنيا لم تضق بعد عليك في امسيردا. لا ترحلي. ستقتلينه حتما في الطريق. »

سكن البراح و خفت صوته نهائيا. رجعت لونجا إلى فراشها. تدثرت من جديد. قربت منها المجمر الذي كان حطبه يتفرقع. شعرت بالحرارة. رفعت عباءتها قليلا. تحسست بطنها لتتأكد مرة أخرى أن ما قالته حنا عيشة لم يكن وهما. البطن منتفخ. الوجه مشقق علاه نمش الحمل وعرق الحيض الذي غاب. كلها علامات تؤكد كلام القابلة. تذكرت الجازية التي قرفت من سماعها على فم صالح قبل أن تحبها لأنها لم تكن امرأة و لكن مجرد خيط رقيق من شعاع الذاكرة. امرأة جميلة قطعت الفيافي وحدها هربا من السلطان و من القتلة الذين تقاسموا خيرات البلاد. أحبتها حتى صارت قريبة منها مثل الكلام العذب و مثل الدم الذي ما يزال يجري بكثافة في عروقها الحية.

« و أنتِ؟ سيحدث لك ما حدث لها. سيتجارى نحوك القتلة و المرضى و يسبونك و يجعلونك نعمة فراشهم مثلما فعلوا مع الجازية؟ أخرجي... أخرجي... »

ستسبين يا الماريا، يا أبنة القاضي بدير. وتقادين من رقبتك مهزومة، ويضاجعك آخر تافه في هذه الدنيا بالرغم منك و قد يقتل هذه النطفة التي بدأت تدغدغ رحمك العطشان. بينك و بين الجازية يا القبايلية شبه الدم و النجوم المشتعلة. لا تخرجي. الهروب لا ينقذك. وسط هذه الأحراش عليك أن تبقي. سيعود صالح حتما ذات فجر. مسيردا قاسية ولكن عليك أن تتعلمي الصبر. هنا يموت قاسي يا

بنت الناس. لا أحد يعلم أنك حملت من رجل بدوي كان يعشق عينيك و شعرك و كل ما يحكى عنك من الأشياء الجميلة.

« تبكي أمه و لا تبكي لونجا. »

قالها و أنت غائبة. فلماذا الرحيل إذن؟ حتما، سيكون في حاجة ماسة إليك، حين يعود. لا تتحولي إلى نوفلة أخت دياب الزغبي من حيث لا تدرين. نوفلة كانت سبب هلاك الهلاليين. الحرب بدأت من عينيها. الفرشة على ريش النعام، ورش ماء الخزام و دموعها التي إمتدت كالأنهار. طلبت من أبي زيد الهلالي، أن يطلق سراح أخيها الذي فتح وجه الطفلة التي عشقت مرعي. ابنة الزناتي خليفة، التي شطرها شطرين. كانت جميلة يا ماما حنا. توسط أبو زيد إلى الأمير حسن، و أطلق قيوده. لكن أخا يا نوفلة، في خفاء ما انتزع رأس الحسن بن سرحان و علقه في شكل فزاعة يخيف بها طيور الصحاري الكاسرة. من عيني نوفلة سالت دماء بني هلال كما كان يقول بابا صالح، و من عينيها بدأت الحرب التي التهمت الصغير و الكبير. الخير و الشرير. لا يا لونجا. فكري جيدا. كوني امرأة. لا تبك قبائل بني زحلان و دريد. لا تدفعيهم إلى كسر سيوفهم و دفن موتاهم. فكرامة الميت مأواه بعد القتل. آه يا نوفلة ما أوحشك؟ بقيتِ للنار، و غادرك دياب إلى بلاد الأحباش. عيونه الملتهبة من كثرة الحروب، ملكها جوهر صاحب التاج المجوهر و حشمه وأعوانه. يا لونجا، يا اللي شعرتك خبالة. أكلت سبعة رجالة و الثامنة هجالة. لا ترتكبي حماقة نوفلة أخت الزغبي. إذا أصررت على الرحيل، تأكدي أنه إذا لم يسبك ملوك العجم: الصنصيل و فلاق الجماجم و الخرمند، و يهرب بك جملك نحو خيامهم، ستقتلين يا الماريا، يا إبنة القاضي بدير، و يقتل معك ما في بطنك. آه يا ربي العالي، لو فقط كنا متزوجين، كانت المسألة قد هانت. النية الطيبة لا تكفي و دم الحسن في رقبتك. حتما لن يستقبلك أحد يا نوفلة بالعبيد والدفوف و الغلمان و النساء و المزاهر، و في الأيدي القماقم المملوءة بالمسك و ماء الزهر، مثلما أستقبلوا أخاك دياب الزغبي. لا. إحذري بطشهم. عندما يحقدون يصيرون أسوأ من العميان و أكثر ظلاما منهم.

غيبه صالح طالت و هذا البطن الملعون بدأ يتكور. الدوخة، عند الخالدي لم تكن عادية. المؤكد أنها حادثة التبن الملعونة... لا مش ملعونة. و ما تبعها كان رائعا.

أنا رحت له برجلي هذه المرة. حنا عيشة لا تخطئ أبدا. يدها ميزانها. جميع نسوة البلد فرخن على أصابعها.

عندما سمعت البقرة تتضور جوعا، تشجعت و خرجت من فراشها. حملت شكارة التبن على ظهرها ثم خرجت في قلبها قرحة. شيء واحد كان يملأ خواءها. صالح. حين أطلت برأسها على الزقاق الضيق، شعرت برائحة الجرذان، و الدقيق، والخميرة تغادر أنفها، و بالإبر المسمومة تنغرس في عظامها.

« كلما ذكرت كلمة تبن شعرت بلذة. كل شيء انتهى في رمشة عين. حاجة التبن تحولت إلى مسألة روتينية لا حياة فيها و لا قيمة لها أبدا. الوحدة صعبة يا بابا صالح، و أنت سيد العارفين. »

تلمست خذها الذي جمد من لفح الهواء البارد. شعرت ببقايا قبلة دافئة أتاها بها في ذلك المساء. كان رقيقا و في فمه مذاق خاص يشبه عود النوار.

. سيعود حتما. طفله بدأ يتكور و يكبر.

سأكون الجازية التي يحلم دائما، و سأعيد نبتة فقراء بني هلال إلى الحياة. لكن ماذا يحدث لي إذا لم يعد؟ أنا حضرت كل أغراضي. و إذا كبرت المسألة و لم يظهر، سأحمل رأسي وطفلي و حاجياتي و أرحل ذات ليلة. لا من شاف و من درى. سأجد أهلي، فجبال جرجرة واسعة و عائلةسكورة طويلة عريضة. سأعثر على الناس الطيبين الذي سيدلونني على الأحباب الغائبين، وسط الأحراش و الأتربة الحمراء التي لا تنجب إلا النار و الجوع والسل. سأجدهم و سأضطر إلى الذهاب إلى مغارة مرمية على أطراف البلدة و أعيش بقية أيامي مع نطفة صالح التي لا تموت أو ربما سأكذب. سأقول لأهلي على الأقل أنه ابن الإمام الذي قتله تورعه، و عبادة الله.

و هي تمشي تعثرت. داهمها شعور غرائزي. تلمست بطنها، خوفا من أن تكون النطفة قد تعرضت لضرر ما في الرحم. خافت عليه أكثر مما خافت على نفسها. انتابتها رجفة الإحساس بفقد الأمومة قبل حلولها. كادت تسقط من عينيها دمعة متعبة.في الطريق، أجهدت نفسها لإلغاء الفكرة التي بدأت تعذبها. التعثر كان عادي و لا يستحق كل هذا الخوف. لن تلحقها لعنة المسيردية التي لم يتحمل رحمها نطفة

صالح. لا.لا.ستكبر هذه النطفة و تصبح شيئا جميلا يثير الدهشة. لن تكون الجازية التي احترقت في أحشائها كل النطف التي غزت رحمها سرا.

واصلت صعودها نحو رحبة التبن. كانت تستمتع بكتل الثلج و هي تتكسر تحت وطأة حذائها الخشن. شعرت بقشعريرة تسري في كامل جسدها. مسدت على ركبتها التي برزت من تحت كومة العباءات التي تلبسها. تذكرت خشونته البدوية ويده الصلبة التي تغوص بين فخديها بقوة. رجولته الفذة التي لم تسقط تحت تأثير المتاعب اليومية. شعرت بفرحة الأطفال تجتاحها. ابتسمت.

« رجعت أم لم ترجع، فلن أكون لغيرك يا صويلح. »

عيون الغولة يا صالح مخيفة. تحسب كل خطواتي وحركاتي. خزرتها يا يما تذوب المعدن. ستعد شعراتي. تحسبها الواحدة تلو الأخرى. لكنها في النهاية ستطمئن، لأني ما زلت عذراء، أنتظر القلب النابض الذي سيعود حتما. وسوالفي ما تزال في كامل عنفوانها و نقائها. لن تسقط الشعرة التي تثير الغولة إلا بعودة صالح. حين تهيج سأغمد أشيائي الصدئة في عينيها و أتزوج خويا صالح. لننتظر فقط متى تستيقظ قبور الأموات التي في بطن الغولة لنشرع في الدخول في تفاصيل الحلم الأزرق. يا ستوت، و عجوزة الموت، صالح سيعود حتما، و في يده كافة شروطك التي تقضي عليك. لن يتأخر أبدا لأنه يحبني. الغولة يا صالح هائجة. بدأت العد. اركب العود بوركات، قبل أن تمنعك الثلوج من تقبيلي، و يصعب بعدها اقتحام برودة البحار السبعة. تفاحة بنت منصور يا صالح. أخشى أن تصاب بلحظة قنوط و تفقد أعصابها، فتلتهمني. تصور، في بعض الأحيان أتحول إلى مجنونة. ابنك سيخرج و في يده سيف من حطب الزيتون، على غير شكل السيوف التقليدية، و ينزل على هذه الأرض كالمهدي، يزرع الرعب في قلوبهم. قلوب الذين أبعدوا أباه عن الأرض التي شربت من روحه و عرقه و دمه و يسترق السمع إليه و هو يستنجد:

لونجا يا لونجا، شعرتك خبالة.

دلي لي سالفك نطلع.

هذا شعري، تعبث به الرياح الموسمية الباردة. فأين يدك الطيبة يا الوجه الغالي؟

في الليل، و كانت قد عادت من رحبة التبن، شعرت بالأنجم تغيب قبل الأوان، و بالبرد ينزل بكل إبره الحادة على الأزقة المظلمة التي لا تعرف الشمس. فكرت قبل أن تدخل فراشها أن تذهب إلى دار صالح للاطمئنان على الأقل . صحيح أنه لا يوجد شيء مهم قابل للسرقة و لكن مع ذلك. فالدار العامرة خير من الدار الخاوية. هكذا كان صالح يقول دائما. حوش طيطما صار خرابة بعد ذهاب صاحبته. ابنتها لم تستطع فعل الشيء الكثير كما يقول العائدون من سيدي بلعباس. مسكينة طيطما. كأنها لم تكن أبدا. يقولون إن الكومندار هو السبب.خاف أن تفضحه و تمسخه حين رفض الزواج منها. و هو يعرف أن أيدي طيطما طويلة. لكن حتى هو أكلها، يستأهل.

يا صويلح. نحن سنتزوج صح و صحيح إذا شئت، ونسافر بعدها جميعا إلى أحراش و جبال جرجرة نبحث عما تبقى من هذه العائلة التي أكلتها متاعب الدنيا. طفلنا يا صالح كان ثمرة اللوعة، و لوعة التبن والقمع و برودة الإمام الفظيعة و رائحة الحشائش المبتلة التي لا تنسى روائحها.

حين دفنت رأسها من جديد تحت الغطاءات الكثيرة، استحضرت وجهه للمرة الأخيرة، ثم نامت داخل عينيه الواسعتين بارتخاء. لم تر شيئا إلا الثلج وقهقهة صالح و ابنهما و هو يركض على مرتفعات جرجرة الشامخة و الشمعة التي كانت تذوب تحت حرارة جسديهما الملتصقين كتوأمين.

الفصل الرابع
صهيل الجياد المتعبة

-1-

يا لزرق أنا ربيتك.

و بسرج الفضة وديتك،

و الورغان حرير..

دندن صالح بن عامر الزوفري و هو على عوده، متكوما، يحاول أن يدخل في جسده من شدة البرد. حتى برنوس الوبر، لم يعد قادرا على حمايته من هذا اللفح الذي يدخل العظم كالسم.

« هو ذا خوك يا لونجا. قطع الفيافي و الثلوج ليصل إخيرا إلى سالفك، أين أنت يا ابنة أمي و أبي؟»

يا لزرق هذه ليلتك يا حبيبي. إما أن تتحول إلى عود بوبركات و تقطع البحار السبعة، و الجبال و البرية البعيدة و تصل بلاد البربر و قلب لونجا الطيبة أو تستسلم و نتكوم مهزومين، أنا و أنت، و هذا البياض الجبلي القاتل. المقاومة أو التجمد و التحول إلى أصنام جليدية، و ألياف ثلجية رقيقة، ترفعها رياح هذا الليل الذي لا يرحم. لم تبق إلا أنت و أنا و البر بعيد بعيد يا حبيبي. أجر يا لزرق و قل ما جريت، وراءنا عالم شرس و سيوف الزناتي و السبايبي ووقاحة أبي زيد الهلالي.

امسيردا لا تعرف إلا فصلين في السنة، أو على الأقل، السكان لا يشعرون إلا بهذين الفصلين. الصيف و الشتاء. الصيف للشوالة و التهريب والشتاء للتخزين و للتهريب لمن يملك جرأة مقاومة العواصف المفاجئة و البرد القاتل. و في الشتاء يكثر كلام الناس. فهم إذ ينزوون وراء الأفرشة و المجامر، لا يجدون ما يتسلون فيه إلا سير الناس و همومهم و حروبهم الخاسرة. يبدأون حكاياتهم بالقسم بالذي خلق الكون أنهم رأوا الحدث أو عايشوه، و كل واحد يحكيه بتفاصيله الخاصة. القصة الواحدة تسمعها بعشرات الروايات. لا أحد يهرب من الحكاية، من الأمام إلى المهرب البسيط إلى العسكري إلى نساء الأحواش إلى... الكل يمر على لسان الكل. و حق ربي أنا شفتها؟ نكذب عيني، سبحان الله؟ كانت معه. بلأمارة أخذته من يده و أدخلته بيتها... الإمام؟ ياه؟ النار تحت التبن. يلقمها و هي طايرة. يلعبها يصلي بالناس و

فعايلو كل واحد يعرفها. هاذيك المرة كنت فايت على الجامع... و الغريب أن كل الناس يصدقون الراوي و المروي عنه الأمر الذي لا يخلف حزازات كبيرة بينهم إلا إذا تعلق الأمر بمسألة الشرف و هذه يسمعها الجميع إلا المعني بها.

سِرْ. سِرْ. يا لزرق سِرْ.

المخلولة في تستنى،

و أنا لا هي بالغير.

ارتفعت عقيرة صالح بن عامر في الليل البارد، مجروحة لكن البحة كانت تعطي لصوته إنسانية عميقة:

لزرق عَاطِي وَذْنُه لِيَ

يَصْغِي في لفْظِ مْعانِيَ

وَطَّى بْظَهْرُه ينبَّه فِيَّ

وطَارْ مثل الطَّيْر...

هبت الريح بقوة كبيرة. شعر بقسوة البرودة أكثر بالرغم من التفافه داخل البرنوس الخشن. ارتفاع كميات الثلج في هذه المناطق الجبلية متعب. لزرق كان يجد صعوبة في تخطيها على الرغم من أن صالح لف على قوائمه قطعا من القماش حتى لا يجمد. الثلج أحيانا كان يصله حتى الصدر. و الظلمة الكبيرة لم تساعده على التقدم. كان و كأنه يدور في مكانه.

. القوة يا لزرق. لا تفشل. لم نعد بعيدين. عند العودة، سأجبر حماد الزعيمي أن يصنع لك حدوتين لا تفنيهما مسافات الليل.

كفرت برب الدنيا الظالمة و أقسمت أن لا أعود إلى هذا المرض القاتل. كل شيء تكاتف ضدي. موت العربي الله يرحمه.إغراءات السبايبي و آخرها النذل الذي ترك الإمامة و الصلاة بالناس ليتفرغ لإعادة الإعتبار لقدماء المجاهدين. واحد يتهمني بالخيانة و آخر يغريني بالفنادق التي علي القبول ببنائها على عظام الأنبياء والشهداء و خيرة ناس بني هلال الطيبين. كيف أتحمل يا لزرق و أنا الذي رأيته بهذه العيون التي ألهبتها أسفار الليل، يفرغ على رأسه أمه مثانته بكل قذارتها و يحاول أن يظهر لها عضوه. المسكينة، ظلت تبصق حتى قيل أنها جنت و ألقت بنفسها ذات

فجر بارد في وادي امسيردا، في جهته الغربية الأكثر قفرا و عزلة. إنه البؤس يا لزرق، الذي ينخرنا من الداخل. خاطري ضيق يا ولد أما و لم أستطع الصبر.هذه المرة سأدخل مجبرا، التجربة من بابها الواسع. سأطأ على رؤوسهم جميعا بدون أدنى رحمة. سأعيد تعاملي مع بنات طيطما أو أذهب إلى ياقوتة و أبني معها عرشا جديدا من المحبة والتهريب. خل الدنيا تخلآ، و حين تتاح لي أول فرصة مع موح الكتايبي سأفضحهم واحدا واحدا.

« آه يا صالح أنت تهذي و تحاول تبرير لحظة و انكسارك و أنت تواجه أناسا كالغيلان، بأسنان حادة و عيون تلحظ الكبيرة و الصغيرة،. أنت ضعيف لا لأنك هربت فقط ولكن لأنك تحاول تبرير تعاستك. إرفع راسك و امش باستقامة و لا تستسلم للبرودة. البرودة قاتلة حين نسترخي و ننساق لها. »

أوف. يا أخي هربت لأني كرهت. مللت رب بلدة يباع فيها الشهداء تماما كما تباع الخردة في الأسواق الرخيصة. و بقدر ما حاولنا أن نكون طيبين، وجدنا أنفسنا نئن تحت الجوع، و تحت الكلام المؤلم الذي يقتل من الداخل و يفعل أكثر مما تفعله رصاصة. رفضت السبايبي و رفضت أن أتحول إلى أحد عبيده الذين لا يتحركون إلا بأمره. و رفضت الوجوه المتسخة التي تشكك في محبتي لهذه التربة التي أحرقت طفولتي وامتصت نسغ شبابي. ماذا تريدني أن أفعل. غص بداخلي لحظة واحدة، و بعدها نظِّر علي إذا شئت. صحيح أني في بعض الأحيان، يصبح بيني و بين الحماقة مسافة أصبع، لكن من حقي أن أبرر هذه الحماقة.

« مسكين يا صويلح، يا ابن عامر الزوفري؟ »

في لحظة ما لم يدر أي أنسام التهمتها، شاهد لزرق يتجنح كالبراق، يرفرف عاليا. يعلو فوق الثلوج الجبلية و فوق أرياحها الشتوية في محاولة نبوية لإيصال الأرض بالسماء قبل أن تجهز حنا غولة على رقبة لونجا التي ما تزال تنتظر عودة الوجه الأصهب الذي لا تأكله الأنواء. سمع الهاتف الذي كان يناديها خفية: أخوك يا لونجا حتما سيعود. حضري الماء الساخن و البركوكس بالحليب، و الحناء البدوية لمعالجة جراحه. ما ترقديش.

غاصت قوائم لزرق في الأعماق. نزل من جديد و حاول أن يساعده بدفعه و إزالة الثلوج من قدامه. لم يعد يسمع شيئا غير تلك الأصوات المتناغمة التي ألفها، مصحوبة بالريح التي بدأت ترفع نثار الثلج عاليا و تغطي وجه صالح بن عامر الزوفري. شعر بالندى يتساقط على قلبه، و بنحيب خفي يأتيه من عمق أعماق لزرق الذي بدأ الوهن يكبل قوائمه. و الله يا صالح أنت مسكين. و ستبقى مسكينا. بدأت تتعب و ترهق، لكن ما يزال فيك شيء صاف كالمعدن لم يدخله الصدأ. ستحاول أن تتسخ و أن تجد مبررا لإتساخك في الشراب. في الكحول. في الذهب. في الحشيش... لتتحول بعدها إلى رقم. و ما أكثر الأرقام في حي البراريك. رقم في يد السبايبي، فهو يحتكر التجارات الكبيرة مع كبار المسؤولين، و أنت ما زلت صغيرا يا خويا. صدقني. ما يزال فيك ذلك المعدن، يلتهب، كلما حاولت أن تسقط و تحرق بقايا صورتك القديمة. ستفشل حتما ولن تفلح في مسعاك. أرهبك بولحيا بوجهه المجعد قبل الأوان، و ها أنت تحاول عبثا أن تشبهه. لن تستطيع. فما يزال في عروقك دم الشهداء الحار. فيك شعلتهم و نيرانهم التي لا تخبو. أنا و أنت يا صويلح يا سبع مسيردا، قطعنا البراري و القفار من أجل أن نعيش على الرغم مما يحمل هذا العيش المتعب من تنازلات نجبر على تقديمها لحظة اللا اختيار. و سنظل نقطعها، معنا الكتان والزعفران و الأشياء الصغيرة إلى أن تغير الأرض دورتها، وتبتر أيدي الغولة التي تهدد رقبة لونجا بالذبح. صعب أن نلغي ألق الأشياء الجميلة لحظة ضعف إنساني محدودة. تصور شعر لونجا. ضفائرها تنزل. تلمس الأرض. رائحة الحناء التي تملأ الأنف و طعم السواك. نربط الشعر على خصرينا. ترفع لونجا رأسها. نعلو. نعلو. نعلو. نلمس العيون التي لا يحترق فيها الحنين والأمل، الأنجم التي لا ينتهي توقدها الأبدي، نبض الأشياء التي تكسب حيوية خاصة حين تصبح على قاب قوسين أو أدنى من شفتي لونجا. من الصعب أن نحترق جميعا تحت طيش اللحظة التي تحاربنا في أعز شيء لدينا. قاوم المسخ يا صالح. فالشهداء الذين تباع عظامهم لغير الشهداء سيحاسبونك أكثر من غيرك.

تخطى لزرق العقبة الأولى. ركبه صالح من جديد. حزه أن تتحول الدنيا إلى كرة سوداء في عينيه مبرقعة بالتشوهات. ضرب لزرق بركابه. كان هذا الأخير في

محاولة مجهدة لإنتشال حدوتيه الأماميتين اللتين غرقتا حتى الركاب مرة أخرى في كومات الثلوج التي بدأت تيبس و تتجفف و تصبح حادة و مدببة و مسننة كالسكاكين في بعض الأماكن.

رفع لزرق قوائمه الأولى. استطاع أن يتحرك بصعوبة. نحنح بقوة و ألم. في البداية إرتجف ألما و بردا، لكنه سرعان ما عاد إلى طبيعته و إلى المقاومة و السير داخل الصعاب.

« يا الله هكذا... لا خيار. الموت أو الحياة. »

اللعنة تتبعنا يا لزرق، لعنة سيدي علي التوناني التي كانت السبب في هلاك الهلاليين. عينه قاسية مثل عيون الروحانيات. تعبك يرهقني. ربما كانت الصفائح هي السبب؟ أعرف أننا لن نستطيع الطيران و إلا كنا فعلنا ذلك. لا أنت الشهباء أو الخضراء و لا أنا أبو زيد الهلالي أو دياب الزغبي أو حسن بن سرحان، كلانا ابن هذه الأرض التي لم تمنحه مواهب استثنائية.

فجأة، خطوات لزرق تثاقلت. مقاومته خفت. رقبته الطويلة تدلت، و أصبح يجد صعوبة كبيرة في رفعها و في تحريكها. ترجل صالح بن عامر الزوفري للمرة العاشرة. تلمس حدوتي حصانه. شعر بهما غير طبيعيتين. تمنى لو أشعل النار، و لكنه سرعان ما ألغى الفكرة. فكلاب الجمارك و حرس الحدود ليست بعيدة. منتشرة في كل مكان كوحوش الخلاء. تحسسها جيدا و تحسس المسامير المثبتة على الصفائح. حالتها لم تكن جيدة، لكن ما العمل يا الله؟ أدخل يده تحت ركام الثلوج. بحث عن حجرة. وجدها بصعوبة بعد أن تجمدت يداه. أدخل المسامير التي كانت بارزة في حدوتي الحصان. مزق الخرق البالية التي كانت تحيط بقوائمه. انتزع لباسه الداخلي وأحاط به القوائم الأمامية. ثم تلمس وجه لزرق. شعر به مرهقا، تعبا على غير العادة. المسافة لا تزال بعيدة و المتربصون كثر. تحسس صدره و جوانبه، و ما تحت السرج. شعر بأشياء لزجة. قرب يده منه أكثر.عرف أنها الدم الذي خلفته جروح الركاب من كثرة احتكاكها بجوانب صدره. تلمسه من جديد. شعر بالجروح غائرة. و بلزرق يتألم.

« يا لطيف؟ حتى ربي أحيانا يقف ضدنا و يناصر القتلة. »

و أنتَ؟ ماذا فعلتَ؟

ما لي أنا؟ آخر السلالات الهلالية. في آخر أيامك يا صالح تعذب لزرق الذي عاشر سواد أيامك الجافة؟ لزرق الذي اختصر بك حدود الدنيا و أنجاك من موت محتوم. إنها لحظة الجنون يا آخر سلالة المجانين. حيث يفتقد المرء قدرة التصرف الواعي، تصبح الحماقات منفده الوحيد. ربما كانت هي عينها لحظة الفشل. العود يا آخر سلالة المجانين، ليس حمارا، و لا بغلا. أنت صالح بن عامر الزوفري الذي يملك لزرق، و لست أبا زيد الهلالي الذي يركب بغلة شهباء للتهريب، وينكحها في الطريق عند الحاجة. العود يبكي يا صاحبي حين يشعر بالألم. حين يتعلق الأمر بكرامته. أحيانا، يصبح حساسا أكثر من بني آدم و لكنه أقل حقدا منه، يا مجنون بني عامر. العود قد ما تعطيه يعطيك. و إذا جرحته، في الطريق يخليك. كونك رجل سيساني و ما تكونش عليه قاسي.

« يا الله يا لزرق. الآن بهذه الأقمشة أصبحت أفضل من قبل. لم أعد أملك الشيء الكثير أدفئك به و أداوي جراحك. البرنوس قسمته معك. النصف لي و الباقي لك. البرد قاس و لا حل لنا إلا ذلك. يا نموت مع بعض يا نخرج سالمين. تستطيع الآن المقاومة مسافة أخرى. »

نحنح العود.أحنى رقبته الطويلة، رفع قائمتيه الأوليين مرة أخرى. مشى قليلا بثقة كبيرة ثم توقف فجأة. ليس من التعب. توقف برهة و كأنه شعر بشيء غير عادي يسير في أعماق هذه الطبيعة الصامتة، ثم واصل سيره بحذر شديد. أذناه مرفوعتان و مصوبتان إلى الأمام. كان لزرق ينذر بالخطر المحدق. أنزل صالح المكحلة من على ظهره ثم تركه يمشي أمامه و من حين لآخر يساعده بالدفع أو يسبقه بدون أن يضغط عليه.

الثلج عاد إلى السقوط. و هذا شتاء آخر، يضاف إلى الفصول الشتوية التي نعيشها يوميا في كل الأماكن و في معظم اللحظات. قاوم يا ولد أما. قاوم. سنصل يا لزرق ونرتاح بما فيه الكفاية. إمش. إمش و لا تلتفت و إفتح آذانك جيدا. المنطقة ملغومة بهم. أنا متأكد من أن النمس ليس بعيدا من هنا. آخر سلالة بني كلبون يا لطيف؟ و الله هذه المرة يا فيَّ فيه. هم دفعوني، وهم يتحملون مسؤولية الدمار.

المسيردية الله يرحمها، كانت تقولها دائما: هؤلاء يجري في عروقهم دم الكلاب.إحذر منهم يا خويا صالح. يا أنت يا هم. و أغلب الظن أنتَ لأن طيبتك أكبر من نزعة التدمير فيك. وشهامتك كبيرة جدا مثل هذا البحر الذي لا يحد. لونجا ليست كالمسيردية. تخاف. مسكينة. عقدة الخوف ركبتها من يوم سرقوها من الأحراش وهي وراء أغنامها، و ألصقوا صدرها الجبلي الحي، بصدر الإمام المترهل. وضعوها في حجره و قالوا لها سيسعدك أكثر من شباب اليوم. لم يفعل طوال حياته أكثر من سجنها. طيبة. تمنيت أن أسعدها لكن يبدو أن لعنة سيدي علي التوناني ورائي حتى الموت. لست قادرا على إسعاد امرأة إلا لحظة أكون معها. و بعدها أذهب إلى شأني. لونجا أخطأت معها لكنها حينما جاءتني أدركت كم كنت ملتصقا بها. قلبك كبير يا لونجا، قادر على أن يغفر ذنوب كل حمقى الدنيا. أنا ضيعت صوابي و متأكد أنك بكيت كثيرا. فالليلة التي كانت ختمت مصائرنا. كانت طيبة مثل عود النوار الذي نتذوقه بعد نهاية كل لحظة فرح.

« ما هذا؟ أواه يا لزرق ما راكش عاجبني؟ أنت تريد أن تقول لي شيئا. أسمعك...»

فجأة توقف لزرق و كأن قوة ما حبسته في الأرض و جمدته في مكانه، رافعا أذنيه بدقة واستقامة. استشعر وجود الحياة، في هذه المنطقة الميتة.

« هل يعقل أن يكون هذا القفر البارد مسكونا؟ »

قالها صالح بن عامر الزوفري، ثم قفز على ظهره جواده. وضع البندقية بين أذني لزرق و أخذ يسترق السمع بهدوء. يقول الهلاليون القدامى و المجربون الذين طحنتهم الدنيا و أكلت أحلامهم المسافات الليلية و الحروب،في الزمن الذي كان يكثر فيه قطاع الطرق، إن آذان الدواب إذا ارتفعت باستقامة و بشكل فجائي، ضع البندقية بينها و إضغط على الزناد، ستصيب هدفك حتما. المؤكد أن الذي يتمترس في طريقي ليس إلا النمس أو أحد كلابه المكلوبة.مع أنه من المفروض في مثل هذه الحالة، تختبئ هي كالدببة و نخرج نحن بعدد النمل، نبحث عن الخبزة المعلقة على سلك شائك مسموم. لماذا لا يكون النمس و جماعته؟ يشتهون إفزاعنا في الطرقات التي تزدحم ببقايا أصواتنا المبحوحة. ندأب طوال العمر، و حين نصل الرغيف

يسحب من أفواهنا قبل حتى أن نتلذذ بمضغه، و ربما نسقط حتى قبل أن نتمتع برؤيته.أما و الله، إذا كان أحد قطاع الطرق، فلتعزه أمه. يبكي ههو و لا تبكي يما التي تنام عظامها بين الأشجار الخلوية في البرية البعيدة. أنا لا أحمل معي شيئا. لا زيت و لا سكر.ليس معي إلا الكتان. صحيح أن سعره هذه المرة غال و لكن لن يأخذوا شيئا منها. يا أنا. يا هم. واحد فينا، يسرح الطريق للثاني. قد يكون ياسين، ينتظر عودتي المؤكدة. فالسيد ذئب، والأمور معه لا تنتهي ببساطة. فالإهانة التي لقيها مني كانت قاتلة. هزمت بطشه في عيون كل أهل البلدة. لست هزيا تافها أتصارع معه على إحدى خليلاته. هو الذي ظلم شيخوخة رومل. و البادي أظلم.

« لا شيء يا لزرق غير الظلمة و البرد و المسافات التي تطول أكثر فأكثر، كلما تقدمنا إلى الأمام. »

فجأة سمع صوتا آمرا مصحوبا بالأضواء الكاشفة التي عمته و عمت الأزرق الذي بدأ ينحنح بعنف في مكانه و يرفع قوائمه الأولى و صالح يحاول أن يلجمه:

. توقف يا كلب بني عامر.

. من أنت؟

. الكلب لا يسأل سيده.

أطلق صالح العنان للزرق و حرر لجامه، فانطلق صوب الضوء بسرعة خارقة. حاول صالح أن يحده قليلا و لكنه لم يستطع.اختلط صوت تكسر الزجاج تحت حدوتي الحصان، بزحات رصاص متتالية و صراخات ألم.

. صح يا ابن الكلب. عرفتك. ستدفعها غالية.

ارتفع لزرق كالبراق و طار و أبرق كسماء حبلى بالغيوم السوداء. تكسرت أضواء البطاريات تحت وطأته الخشنة.سمع صالح رصاصات أخرى متتالية، لكنه شعر هذه المرة أنها كانت في الفراغ، سرعان ما التهمت الفضاءات الواسعة أصداءها. أقنع نفسه، أنهم يريدون تخويفه ليس أكثر من ذلك. كما هي العادة طبعا. هو يعرف أنهم، غدا قبل أن تفتح الديكة عيونها الصغيرة، سيفاجئونه في فراشه عاريا و يأخذونه. الصوت الآمر لم يكن غريبا عليه. في لحظة ما، فكر أن ينزل، و يؤدبه، لكن سرعة لزرق لم تتح له هذه الفرصة. كان متأكدا متأكد أنهم مدججون بالأسلحة

و مع ذلك، لو لم يقفز لزرق كان صالح قد ختم جبهته العريضة عمياء. النمس. هو. صوته و كلماته البذيئة. و لا أحد يتحمل كل هذا البرد سواه. المسافات لم تعد بعيدة في عيني لزرق. فقد إختصرتها جرأته وشجاعته. القلب يخفق كطائر مذبوح. السحنة مرهقة حتى العظم. من بعيد، تردد بين الجبال، شخير سيارة لاندوفر ورشقات متقطعة من الرصاص الطائش. تحسس صالح أطرافه.

« يا أخي من يدري؟ الدم كان ساخنا، و ربما تكون قد ثقبت صدري إحدى الرصاصات العمياء. الحمد لله لا شيء. و لزرق لا يبدو عليه مصابا فقد قفز فوق الكل. بوبركات. »

تذكر صالح وجه العربي المكدود، تلمس من جديد جسده، زاوية زاوية. لم يشعر بألم. لم يكن هناك ما يدعو إلى الخوف اللهم جرح صغير في الفخذ. ربما كانت نفس الرصاصة التي أودت بأحلام العربي لو سكنت رأسه أو قلبه.في بعض الأحيان يلعب الحظ لعبته التي لا تفهم إلا بصعوبة. عليه أن يشكر الصدفة التي جعلت الرصاصة تنغرس في الفخذ و ليس في الرأس.

كان لزرق يقاوم تراكمات الثلوج.مناخره نافرة نحو أفق غامض. لم تعد عيناه الواسعتان تريان شيئا غير الإصطبل و التكوم على التبن حتى الصباح.من حين لآخر ينعكف قائماه الأولان، فيرتبك، يتدحرج ثم يقوم بسرعة و كأن شيئا لم يحدث. هكذا تفعل الجياد الأصلية دوما.

التعب بدأ يظهر على لزرق. شعر بحركته تخف و تضعف مقاومته، لحظتها داهمته فكرة أن يكون هو كذلك قد جرح .خطوات لزرق أصبحت ثقيلة.ثقيلة جدا. بدأت البرودة تصعد من أقدامه حتى تصل شعر رأسه.أحس كأن يدا ما، وضعت داخل صدره قطعة ثلج يابسة.

حين دخلوا الطريق المزفت، السالك، سقط لزرق ثم قام ثم سقط ثم قام وواصل تدحرجه بصعوبة و لكنه ظل يمشي و لم تعد تسمع إلى نقرات صفائحه.

« لزرق، لا يمكن أن تكون جريحا يا صديقي؟ لقد طرتَ مثل البراق فوق رؤوسهم. ليكن. لكن لا تستسلم لأبناء الكلب. »

سر... سر...سر... خليت المخلولة في تستنى... لقد دخلنا الحرب الضروس مع الأعاجم الذين لا يفهمون إلا لغة السيوف وذبح الرقاب. فهذا النمس. الخرمند يطمع في سبيك و تدجينك، حتى يدخل بك حروبه ضد بني هلال منتصرا. الخرمند يا لزرق، يفعل معك الآن ما سبق أن فعله مع الجازية. عرفوني يا خويا وعرفوك.ماذا يحدث لو كنت قد أفرغت في أحشائهم محتويات مكحلتي؟ حتما، كانت المسألة تعقدت أكثر مما تستحق تلك الوجوه التي يكتنفها الغموض. لكن على الأقل كنت بردت خاطري الملتهب. سيفاجئونني فجرا. سيأخذون كل شيء.هذه العباءات الغالية، من زهر لونجا و إذا رفضتها، فاما حنا عيشة أولى بها من غيرها. سأثير كل المعادن الساخنة المتجمدة في أدمغتهم. سأعيد الكرة و ليتفرقعوا مثل الحرباء المنتفخة بالأدخنة. سأقتل إذا دعيت للقتل. على الحكومة الغائبة الحاضرة، أن لا تغمض عينا وتفتح عينا كالديك المريض. فإذا لم تنظر بوضوح، سنعمى نحن كذلك و نتحول إلى أعداء.لم نطلب أكثر من الرغيف. نتقشف؟ ليكن. التقشف يا جماعة... يرددها رئيس البلدية صبحا ومساء. ذكرني بها مرة أخرى عندما ذهبت ذات مرة أطلب عملا.

. يا بابا صالح، نحن نطبق سياسة التقشف. لنعلم صدورنا الصبر و الإتساع.

ـ لكن يا وليدي لم نطلب البحر للشرب. العمل فقط حتى لا نضيع و يضيع أولادنا.

ـ سنجد العمل حتما. لكن ربي نفسك على القليل. الدنيا بنت الكلب، اللي ما يصبرلهاش، تأكله.

. نحن نجوع يا وليدي. مجبرون على التقشف.

. بلادنا في حاجة إلى أمثالكم يا شيخنا.

أمثالي؟ يا ولد القحبة، تأكل مدينة و تطالبني بالموت مفتوح العينين؟ أمثالي من يسهل ركوب ظهورهم كالنعامات. التقشف لتضع أموال الشعب في جيبك الذي لا يشبع.كل يوم يغير السيارة. الفلا. الحمام. المخبزة. و البنان_ و الشراب، الذي يأتي مكرطنا من مارساي أو من الحدود. يا سيدي، حين تنادون بالتقشف، قولوا لنا صراحة، موتوا جوعا. و ها قد بدأنا نموت. لا أقتل، ولكني لست مستعدا أن أترك ما

تبقى من شيخوختي يذهب مع الريح، و على أيدي أولاد الكلب الذين باعونا بالرخيص.

كان لزرق قد بدأ يشخر مثل مسلول و لم يعد قادرا على غلق فمه الذي ظل مفتوحا منذ أن دخلا الطريق المزفت. تعثر، فتدحرج على ركبتيه. بصعوبة قام. وقف قليلا. تسمر في مكانه. هز رأسه و قوائمه بتثاقل. كانت تباشير الفجر قد بدأت تلوح.

تحسس صدره. بدأ لزرق يئن. كان ينزف بقوة.

أحنى صالح رأسه ثم وضع اللجام في يده و سار متأنيا، محاذيا الزوايا المظلمة لتفادي الضغط عليه وأضواء السيارات التي بدأت تعبر الطريق المزفت بكثرة.

بيته لم يكن بعيدا.

« خطوة واحدة يا لزرق و بعدها خلِّ كل شيء علي. »

-2-

. من؟

. صالح. افتحي يا لونجا.

قبل أن يدق فكر كثيرا في عدم إزعاجها، فهي وحيدة والأكثر من هذا مرعوبة من الداخل. لكنه في النهاية انتهى إلى ضرورة إخطارها و إلا القبول بموت لزرق نزفا.

. قلت لك أنا صالح.

رددها مرة أخرى بصوت خافت و لكن واضح على الرغم من البحة التي كانت تسد حلقه المتعب.

. بسرعة. لزرق في خطر.

شعر برجليه تخور قواهما و يدخلهما نوع من الفشل. جثته صارت ثقيلة و لم يعد قادرا على حملها. سمع وقع خطاها و هي تتكسر على كتل الثلج الذي كان يملأ المراح.

فتحتِ الباب.في يدها فأس عتيق، من يدري؟ صالح؟ الكلمة الوحيدة التي يتذكر أنها فاهت بها. كانت عيناها نصف مغمضتين. أذبلهما النعاس المتقطع والبرد. تلفُّ نصف جسدها العلوي في بطانية ممزقة قديمة.أسنانها تصطك من الليل والثلج،. نزعة الخوف التي تفجرت في أعماقها فجأة، أعادتها إلى أيامها الأولى حينما أجبرت على الزواج من الإمام.

. هكذا يا صويلح؟ في هذا الليل؟

. أعرف أني أزعجتك، لكني مضطر يا لونجا. لزرق يموت يا بنتي و علي أن أجد حلا و لا يوجد غيرك لمساعدتي.

. قل لي أنك لم ترتكب حماقة؟

. لا. لا. قلت لك لزرق يموت، و إذا لم نسعفه الآن سيخسر كل دمه.

. قل لي واش لازم ندير؟

تأملته لحظة من الزمن. بقيت مشدوهة، لا تصدق عينيها و لا تصدق هذه اللحظة التي تمر بين أصابعها كالبرق الحارق. لم تلحظ رجليها المدفونتين داخل

أكوام الثلج. شعرت بالحمرة تصعد إلى وجهها و بفرحة مكسورة في داخلها. إنها اللحظة التي تفصل بين الموت و الحياة. لحظة يكتشف الإنسان، كم كان ثمينا.

أفي هذا الليل تعود يا صالح مثقلا بالهم والغربة و الخوف؟ تمتمت لونجا. ألم تعلمك أيامك المرهقة إلا الهروب و حرق الأشياء الجميلةعندها تهاجمك سكاكين الأوباش؟ هكذا يا صالح؟ بكل سهولة تنسى الحليب الذي شربته من صدري و العيون التي التهبت في غيابك؟ الله يسامحك يا وليد مسيردا الطيب.

. لونجا. مالك حالة فمك. لزرق يموت.

. قلت لك واش لازم ندير؟

ـ لا وقت للقهوة. سخني سكينا. سكين الإمام الكبير، حتى يحمر و خذي معك شوية عرعار، و سكر، و مارمان. و سخني الماء كذلك. فالغاز عندي خاوي و الحقيني بسرعة.

انتبهت لونجا لتفاصيل وجهه تحت ضوء القنديل الزيتي الأسود.بان لها كأنه تحول مع كثرة الجليد إلى قطعة حديد زرقاء. شقيا. مرهقا حتى القلب.جرت نحو الخزانة.أخرجت من أحشائها الباردة أحد سراويل الإمام الذي جاءه هدية من فرنسا و لم يلبسه. انتبهت إلى كسوته التي التصقت بظهره من كثرة المياه التي علقت بها.و إلى سرواله الذي تمزق عند الركبتين، و إلى حذائه الذي لم تبق منه إلا بعض السيور المتناثرة و النتف.

دخل بسرعة. نزع سرواله. ضمدت جرحه.

. الجرح كبير يا صالح.

. تمزق فقط. الرصاصة خرجت من الجهة الأخرى.

. ...

ـ أولاد الكلبة؟ ضربوه للصدر. و حق محمد إذا وقع له أي مكروه، سأنتقم منهم واحدا واحدا.

. عرفتَ اللي ضربه بالرصاص؟

ـ كان الليل. و لكني سمعت صوته حين دهصه لزرق. النمس، ما فيش غيره. سمعت شتائمه المعهودة مصحوبة بزخات الرصاص. لزرق كان قويا، لم يترك فرصة

لي للتعرف عليهم، فقد طار فوقهم جميعا. تصوري يا لونجا، لقد قاوم بقية الرحلة بقوة و أنا كالدابة الهرمة كنت أدفعه دفعا إلى الموت و هو ينزف. لم أنتبه لجرحه الغائر إلا حينما وصلت للطرق السالكة. بكيت على صدره، حتى إختلطت دموعي، بدم صدره و برائحته التي تذكرني بالأزهار والحشائش البرية و الحميضا، ونبات الجرجير.لقد كان لزرق أصيلا. و كنت أنانيا.

انتبهت لونجامرة أخرى إلى الدم الذي اخترق الأقمشة و الضمادات وسروال الإمام البني.

. رجلك يا صالح؟

ـ لزرق يا لونجا.كل دقيقة أشعر بأني مسؤول عليها بكل تفاصيلها. يجب أن لا يسبقني الموت و حرس الحدود إلى لزرق.

وضعت على جرحه خرقة جديدة، سخنتها على المجمر، الذي يبيت طول الليل مشتعلا. لفت ساقه بشكل جيد.شعر بالوخز في قلبه، لكنه حين قام و تذكر لزرق نسي كل شيء.

. الرحمة في الله يا أخي.

. الله يا بنت أهملنا.

. يا صويلح عقلك ضاع؟ استغفر ربك.

ـ أستغفر الله. أنا متأكد أنهم عرفوني، و سيفضحني لزرق بجروحه البليغة التي أتمنى أن يخرج منها سالما.

تصوري يا لونجا عند أختي خضراء، أم المروكي، رأيت حلما أفاقني مذعورا. صحيح أن الخرافات لا تدخل رأسي، لكني في بعض الأحيان أشعر كأن عقلي عاجز عن إدراك كل تفاصيل الحياة المعقدة. حدث هذا في الليلة الأخيرة التي قضيتها عند عبد القادر المروكي ولد أختي خضراء، تعرفين أني حين أتعب أذهب عندهم لقتل الهم. قلبه كبير و أمه خيرها سابق. أؤمن إيمانا قاطعا يا لونجا، بأنك لست نوفلة أخت دياب الزغبي التي رأته يسقط أمام عينيها في الحلم. و لست دايا. لكن صدقيتي، فقد رأيت أبي الذي لا أتذكر قسمات وجهه، هيكلا عظيما تتسلقه ديدان ملونة و مجنحة. تخيلي دود مجنح؟ رأيته يرفع رجلا في الهواء و يلوح بالثانية

التي كان يحملها في يده اليسرى.كانت عظما يقطر دما. يلوح بها نحوي و يقسم بأنه سيقتلني. فقد بدأنا نخون دم الشهداء الموضوع لدينا أمانة، يا لونجا. كان يؤنبني. تتدلى من عظامه أوردة نابضة و عروق و أشياء صفراء لزجة و دم بغير لون الدم. حين حكيت القصة لعبد القادر المروكي و لخضراء العجوز، الطاعنة في السن، من بقايا سلالة بني هلال التي لم يصبها الجنون، ذهبت ليلا إلى أرض غير الأرض التي نبتنا فيها مع رجل غامض و زارت الولي الصالح الذي بها و استغفرت الله كثيرا ثم قالت لي بأن مكروها سيقع. لست منجم بني هلال و ضارب خط الرمل، أبا زيد الهلالي المختل. في البداية إنتابتني رجفة الخوف، لكن متاعب الليل و الرحلة أنستني الحادث.و حين نزلت أدفع الحصان الذي غرقت حدوتاه الأماميتان في الثلوج، تذكرت عظمة أبي، وكيف كان خيالا قويا، لا تقف في وجهه أعتى الحواجز. كان يرحمه الله، حين يركب عوده، يحفن التربة من الأرض و العود يجري، أو يلمس قوائم الحصان و هو قمة سرعته. و قيل أنه ركب النعامة، والأسد، وصارع نمور الغابات المجاورة و قبل أن تلتهمه أحراش امسيردا ويستكمل رجولته الفذة و يستشهد. أصدقك القول يا لونجا، أني في الطريق خفت.خفت كثيرا عني وعنك. وغصت في أعماق الثلج مذعورا، أبحث عنك وعن وجهك المتلف خلف حدود الموت. ها أنذا أعود لك فارغ الجعبة، بدون تفاحة بنت منصور، بدون الأحلام الكبيرة التي كانت تدغدغني و بدون حليب العصافير. فقط بلزرق و هو على مشارف الموت.

. حياتك أولى.الحمد لله اللي جات العواقب سليمة.

. مانيش عارف إذا كانت حقيقة سليمة؟

أخذت المجمر بعد أن حطت عليه الطشت الساخن، ثم وضعت بين الجمرات المتقدة سكين الإمام الدقيق. أزعجها سالفها المتدلي وراءها كأفعى مزدوجة الرأس. طلبت منه أن يضعه في منديلها و يلفه على عنقها. فعل ذلك ببرود. مشت أمامه و هي حذرة،.خاف من أن تنزلق على الثلج و تطفأ الجمرات. تبعها، في يديه، كومة من الحشائش اليابسة و الكحول، و الأدوية العربية، ومجموعة من الخرق الممزقة و الميروكروم الذي وجدته لونجا بالصدفة في حوائجها القديمة.

البرد السام و الأنجم الغائمة تحت كتل الغيوم السوداء، ونقرات الأمطار التي كانت تحدث أصواتا متناغمة على سطح الزنك. كانا يمشيان بصمت. سترقان السمع إلى الخشخشات الصغيرة و ظلمة الليل ووقع الأحذية و هي تغوص في الوحل و الثلج و تخرج بصعوبة. حين دخلا الإصطبل، كان النور، قد بدأ يخفت في القنديل الزيتي الذي إسود زجاجه. قص صالح رأس الفتيلة. عاد الضوء إلى وضعه الطبيعي. اقترب من لزرق الذي كان يشخر و يملأ الدم فمه. بسرعة ربطه من رجليه الأماميتين. نزع ألياف القماش و جزءا من البرنوس التي وضعها على صدر و قوائم لزرق. تفحص جرحه مرة أخرى.

. عذرني يا لزرق، أمثالك لا يربطون من أرجلهم. حدة الألم صعبة و التحمل شبه مستحيل.

كان العمش. عمش التعب و الإرهاق و الألم قد بدأ يغطي جوانب عيني لزرق. أخرج صالح منديله الذي يعتز به. أهداه له أحد الذين قذفتهم أراضي الغربة هيكلا عظميا ميتا. لم يتجرأ ولا مرة واحدة، أن يمخط فيه أنفه. مسح له به عينيه و طعم ملوحة الدم الذي فاض داخل فمه.

كان الإصطبل فارغا، و دافئا إلى حد ما بعد أن أفرش تبنا كثيرا للزرق، بالرغم من القطرة التي كانت تنقط من حين لآخر من بعض زواياه مصحوبة بخرخشة الحشرات و الكائنات الغريبة التي فرخت داخل الأخشاب العتيقة و التي أرهقتها المياه الشتوية. طلب من لونجا أن تشد على لجام لزرق بقوة، فقد يتحرك بطيش عندما تمس السكينة الساخنة صدره.

. قرحة الألم صعبة يا بنتي.

ثم أخذ يدلك صدره بكلتا يديه برهة من الزمن. أخرج السكين أحمر من تحت الجمار المتقدة ثم حاول أن يجد مخرجا للرصاصة التي شعر كأنه يلمسها برأس السكين. انتفض لزرق في البداية بعنف. صهل بقوة، سرح قوائمه المنهكة. دمعت عيناه المتعبتان بحرقة. حين شعر بالسكين تدخل أكثر في صدره، مد لزرق عنقه الطويل إلى السطح ثم نحو صدر لونجا التي كانت تمسد على وجهه بحنان للتخفيف من آلامه. أحس بارتياح كبير، على الرغم من يد صالح الخشنة التي ظلت تحرك

السكين في صدره. فتح صالح بن عامر الزوفري، الجرح بشكل أوسع و حرك الموسى من جديد. تألم لزرق، لكن سرعان ما انطفأ البريق الذي كان في عينيه و معه زال الشعور بالألم. نحنح بهدوء،ثم انكسر صوته على صدر لونجا. أسبل جفينه الواسعتين و فتح فمه، و ظل متجمدا على حاله لا يحرك ساكنا. من حين لآخر يطلق شخيرا كان يمزق قلب لونجا.

برقت البسمة في عيني صالح.

. الحمد لله خرجت. المارمان.المارمان يا طفلة.

غسل الجرح بالكحول و الميروكروم. صهل لزرق بقوة. ثم دفن في صدره دقيق أوراق المارمان و كمية كبيرة من مختلف العقاقير الشعبية والنباتات اليابسة، ثم لف صدره العريض بخرقات بالية وضعها الواحدة على الأخرى و أسند عنقه على كومات التبن الدافئ التي لم تصلها القطرة. أطلق الرباط الذي كان يشد قوائمه الأمامية و حررته لونجا من لجامه. تمدد لزرق بعياء و سكن كطفل مريض.

. ارتح يا لزرق. لقد سبقناهم.

. الحمد لله.

قالتها و رفعت رأسها إلى السماء لكن قطرة ماء، ختمت جبهتها بأتربة الأسقف. مسح العرق من على وجهه. جرى نحو البيت الذي ينام فيه. أخرج بطانية قديمة، ميراثه الوحيد عن أمه قبل أن يلتهم الكلب المكلوب عقلها و يدفعها إلى الجنون. سرحه عليه. ساعدته لونجا، ثم وضعاه على كامل قامة لزرق.

أخرج صالح الساعة من صدره.

. هاه. لقد سبقناهم يا لونجا. أنا أعرف أنهم سيفاجئوننا هذا الفجر. سيخرج لزرق سالما من هذا الجرح.

في لحظة ما، تأوه من ألم الظهر الذي ورثه من رحلة بني هلال التي طالت في العراء، و البرد و الجوع، لكن شفاء لزرق أو على الأقل في الأمل ذلك، جعلاه ينسى كل متاعبه.

شعرت لونجا بفرحة تقتحم صدرها الذي ضاق. المهم أن صالح عاد لها و أن لزرق قد يشفى من موت كان شبه مؤكد. قدرت أن صالح في قمة سعادته و أن

الفرحته التي قتلت في عينيه قد عادت لتسكنه من جديد. هل تؤنبه؟ هل تقول له عن سرها؟ كيف يكون رد فعله؟ هل الوقت مناسب؟ لقد نسيها و لم يتذكر إلا لزرق. لكن لزرق حياته و من حقه أن يحافظ عليها.

. المهم سلامتك يا بابا صالح و سلامة لزرق.

. الله يسلمك يا لونجا و يحفظك. ماذا كنت سأفعل لولاك؟

قالها، ثم مد يده إلى رأسها. مسد شعرها بحنان. شعر بحركة الدم تنتعش من جديد، و تستيقظ فيه كل مدافن الرحلة القاسية. علت خديه إشراقة ظلت متخفية تحت جلد وجهه الذي تقلص من كثرة الألم و البرد. نظر إلى عينيها، كان في داخلهما يتراقص ألق جميل. أصبحتا صافيتين بعد العاصفة التي كادت تدمر أحلام صالح بن عامر الزوفري.أخذ المجمر ثم صعد إلى البيت. غسل وجهه و رجليه و جزءا من جسمه ثم دخل الفراش.أخذ يسخن يديه و رجليه. كانت لونجا قبالته حائرة. لا تصدق عينيها. صالح هنا بدمه و لحمه، على مسافة شبر منها. ينظر إلى عينيها بحب و عشق. تمتمت، ثم سكنت لا تدري الكلمات التي سبقتها. كانت تريد أن تبكي. أن تترك كل الدموع المتحجرة بعينها تنهمر كالوديان و أن لا توقفها. أن تخرج كل ما في قلبها. أن تقول له عن كل الآلام التي نبتت كالأشواك في قلبها. أن تطلق العنان لكل الأشياء التي تعذبها. لكنها شعرت بنفسها عاجزة عن التفوه بأية كلمة.

. الكلاب. عندهم الزهر و إلا و الله لو مات لزرق لقتلتهم.

. أنا معك يا صالح، فكر في شويه. انساهم الآن على الأقل.

. سامحيني يا لونجا.لو عرفت لحظتها أن النمس جرح لزرق، كنت قتلته.صدقيني. المكحلة كانت في يدي. لكن لزرق كان شهما.

. خفت عليك يا صالح. قل لي على الأقل أنك رايح عند أختك خضراء. هناك من يفكر فيك؟

. الخديعة يا لونجا قاسية. تعمي صاحبها.

. ما ينحرق عليك سوى اللي يحبوك.

. ما عنديش إلا أنتِ و رومل، و ماما حنا عيشة فقط.

. و مع ذلك، كل الناس سألوا عنك.

. يقتلون المقتول و يمشون في جنازته.هم الذين دفعوني إلى هذه النهاية الملعونة و العودة إلى التهريب.

. غضبك أنساك فينا؟

. نسيت حتى روحي. كنت أريد أن أنتقم من نفسي. خضراء و المروكي أرجعاني إلى جادة الصواب. جبنا سيرة كل الذين نعرفهم أو سمعنا عنهم، الأولياء، شهداء البلاد و الفقراء الهلاليين الذين لم يردوا في تاريخ سيدي علي التوناني الله يعميه.

. معارفك كثيرة. أنا قلت، ربما أكلك ناس بلعباس.

. يا بنتي. قلت لك طريق بلعباس انتهت بالنسبة لي.

شعر بها كأنما تريد أن تقول شيئا، لكنها أحجمت. ربما كان الوقت غير مناسب. فصالح عيَّان و أخبار الموت و القتل كثيرة.

. بلعباس.كه.كه.

ابتسم بحزن و حرقة.

ـ بلعباس قاطعتها لأن الجسور التي كانت بيني و بينها انقطعت. لكني أشعر وكأن في قلبك شيئا حارا يا لونجا.

. لا.لا.

ـ عيونك تكذبك. أنا أعرف كل شيء يا بنتي. موت الحاجة طيطما؟ مسألة مثل هذه كانت متوقعة. ثم أن الموت لا يختبأ وراء الجدران الباردة.

. تعرف قصتها مع الكومندار؟

ـ ليست أول واحدة و لا آخر واحدة. رغبتها في الحياة كلفتها رأسها. قلت لها العسكر ما يلعبوش، لكنها أصرت، لأن قلبها لا يعرف الزيف. أعماقها ما تزال صافية بالرغم من تشوهاتها.

. الروح عزيزة يا بابا صالح. حتى هو مات.

ـ حتى هو حب يلعب لعبة كلفته حياته. لا أومن بالحادث. الكومندار قتله أصحابه. أنا لا أحقد عليها لتجاهلها الخبز و الملح الذي بيننا بقدر ما أحاول أن أجد لها أعذارا. في هذا البلد، كل شيء تأكسد و مات و الذين دفعوا بها إلى الماخور، هم أنفسهم من قتلها و تخلص من الكومندار.

سحب شكارة الخيش إليه ثم فتحها، و أخرج منها الأقمشة الغالية التي جلبها معه من وراء الحدود.

. هذه الألبسة لك، خذيها أحسن ما يهزوهم الديوانه و حراس الحدود. فشلت في الإتيان بتفاحة بنت منصور، لكن ما عليهش، الأقمشة تعوض و لو قليلا.

. بزاف علي يا بابا صالح.

. هي لك. تستاهلي كل خير.

وضعت الألبسة على صدرها. بانت لها ثمينة و غالية جدا. خيوط حريرية و أسلاك رفيعة مذهبة. بدت له جميلة على غير العادة. طفلة تتعشق الألبسة الوردية و الأشياء الرائعة.

. تعيش يا بابا صالح. تعيش و تربي الريش.

وضعت الأقمشة على الفراش المتكوم في أحد الزوايا ثم تربعت عند رجليه كقطة أليفة تترقب كل الحركات والإشارات. تحاول أن تحفظ قسماته التي تملأ حضورها كلما غاب وجه صالح عنها. فهو متعود على هذه الحياة و هي في حاجة إلى من يؤنس وحدتها.

. بابا صالح؟

. سأسجن حتما يا لونجا لأني ربما أكون قد كسرت له عينا. لكن سأعيد تفاصيل اللعبة، و في المرة القادمة لن أتركهم يقتلونني.

. بابا صالح أنا...

. خليك من هم الدنيا و الناس. معك ينسى المرء أتعابه. قلبك كبير يا لونجا.

أخرج لفافة تبغ. ملأ فمه بالدخان. أخذ يتسلى بتعرجاته وهو يغادر فمه المفتوح. أخذ يسخن رجليه الباردتين اللتين بدأت الحرارة تعود لهما شيئا فشيئا. المجمر كان ما يزال يقاوم بقايا الليل.

ـ إذا أخذوني للحبس، تهلاي في روحك. و إذا احتجت لأي شيء روحي عند الخالدي أو رومل و عند عودتي سأتكفل بكل شيء. ما تفكريش في الهم.

. يا بابا صالح، أنت لم تفهم شيئا. رأسك هو رأسك. أنا محتاجتك أنت. البقية ما تهمنيش، نقدر نعيش كما كل الناس.

انتبه إلى تحول قسمات وجهها و خطوطه الواسعة التي بدأت تضيق. كان رأسها منحنيا كأنها تبحث عن شيء التهمته شقوق الأرض و لم تجده. طفلة. عندما رفعت رأسها رأى في عينيها بقايا دموع محروقة و أشلاء ذكريات منكسرة ورثتها مع ما ورثته عن الإمام المتهالك.

. خفت على نفسي و عليك يا بابا صالح.

. انتهى كل شيء. الحمد لله على السلامة.

مد يده نحوها، في محاولة للمس عمق جروحها. غمره حنان الأبوة التي مارسها و لم يذق طعمها.

. أنا وحدانية و برانية، و لسانات الناس طويلة يا بابا صالح.

قالتها، ثم أحنت رأسها مرة أخرى. تسللت أصابعها إلى خيوط البورابح. بدأت تتسلى بها. انسدل شعرها على وجهها. تساقط منديل النايلون في حجرها. بدت له في لحظة من اللحظات، نبية مصلوبة على حائط عتيق.

ـ يا بنتي الدنيا ما تزال طويلة، و أنت لم ترتكبي معصية حتى تخافي من ألسنة الناس.

. إنك معصيتي الوحيدة في هذه الدنيا.

. ها. ها. في عينيك أشياء غامضة يا بنت الغولة. كه...كه...

. لا. أوف. لا. لا.

شعر بارتباكها، و بيديها المنزعجتين، و بعينيها الهاربتين.

. يا لونجا. أنت لا تعرفين الكذب.

. بصراحة. أنا خايفة. خايفة يا بابا صالح.

ـ عليَّ؟ لا شيء استجد؟ كل ما في الأمر أني عدت إلى حرفة قديمة لأكسب قوتي اليومي حتى يفرجها الله.

مرة أخرى شعر بنفسه عاجزا عن نبش أعماقها الغامضة، و عن فهم التفاصيل التي تتقاتل داخل عينيها. سقطت دمعة. دمعتان. بكت كثيرا. أحس بانهيار في قلبه. تذكر اللحظة التي شاهد فيها لزرق ينزف، تنام في صدره رصاصات النمس. لم يصدق عينيه، و مع ذلك فقد كانت دموع لونجا حقيقية لا غموض فيها.

. دمعتك غالية يا بنتي. بدوي خشن، لا أفهم بالغمزة.

. غدا ستقاد إلى السجن، و أقضي العمر لوحدي.

. مسألة أيام، لا تتجاوز الشهر. ثم هي ليست سجنا بالمعنى الدقيق و لكن مجرد حجز.

. كلاب، و لا يرحمون.

. على كل حال لم أقتل أحدا.

. تصور. فقد عولت على الرحيل إلى جبال جرجرة. الوحدة مرة، و غيبتك طالت.

. إلى هذا الحد قلبك ضيق يا لونجا؟

. لا. و لكن... يا الله. يا ربي تحفظ...

أغمضت عينيها. تمنت من قلبها لو تنسى أنها حامل. لو تنسى أن صالح حين يغضب يطلق الدنيا بأسرها. كلمته كبيرة، لا تنزل الأرض. لكن ماذا تفعل؟ الحمل مثل الموت لا يخبأ أبدا. برانية و زوجة إمام، ماذا سيقول الناس عنها؟ الأكيد أنها لن تبقى في امسيردا. أغمضت عينيها. مرت أمامها أسراب طيور مكسورة الأرجل و الأجنحة والمناقير، رؤوسها ملوية، تقاوم الموت للحظات قبل أن تستسلم على الأرض مضرجة، تردح في برك دمها و هي تئن و تئن ثم تسبل أجفانها و ينطفئ النور الذي فيها.

ـ كنت خايفة. سحنة الإمام ترعبني يا بابا صالح حتي جيت أنت فأخرجتني من الظلمة.

. الأموات لا يأكلون يا لونجا. المسيردية كنت أتركها وحدها مدة من الزمن و مع ذلك لا شيء يرعبها مطلقا. تقول الأموات صاروا يخافون منا لأننا صرنا نشبههم.

. سحنة الإمام تنظر إليَّ كل ليلة بعينين غريبتين.

. خلها تخزر واش راح تدير؟ المسيردية...

. المسيردية. مسيردية. و لونجا، لونجا.

شعر بحماقته. اعتذر.

. إحنا ملاح. لماذا تريدين الذهاب؟

. بابا صالح...

هذه المرة قالتها بحدة، متحدية لحظة الخجل التي وضعتها داخل دائرة مغلقة.

. أنا حامل منك. بيديك بقائي أو ذهابي.

. نعم ؟؟؟

تسربت من بين أناملها لحظة التحدي. قرأت الحيرة في عينيه. انكسرت باكية على ركبتيها.

. منك يا بابا صالح. و حق ربي إنه إبنك.

. ...؟؟؟

ـ معك. وجه الإمام مخيف. كل يوم أراه في المنام، بشعا و مخيفا. إنه مرعب يا بابا صالح. لم أكن أريد الزواج منه. قالوا أن رفضي له هو عملة شيطانية. ذبحوا عنزة سوداء وأفرغوا دمها على رأسي، ثم أوثقوني على سعفة نخيل نبتت بشذوذ على رأس جبل. بكيت حتى أغمي علي. عندما إستيقظت، غسلوني. كنت مرتخية كخرقة بالية. وضعوني داخل فراش حريري ورثه الإمام عن عائلة فرنسية. كنت مشدوهة، لكني أتذكر أني سمعتهم يقولون: لقد خرج بلحمر. خرج بلحمر. أنا حبلت منك يا بابا صالح و لم أحبل من غيرك. مزاجك صعب، لكن عليك أن تصدقني. أنا سكورتك الصغيرة التي أفرغوا على رأسها دم العنزة السوداء و مسحوق عظام الموت. لم أخن روح الإمام و لا لحظة واحدة بالرغم من كرهي له، لكن معك الرغبة كانت أقوى من قدرتي على مقاومة عينيك. كانت المرة الاولى التي ذقت فيها طعم الذكورة و الحنان و شعرت بالفعل أني امرأة.منك يا بابا صالح. وراس عودك، منك حملت و عليك أن تصدقني. لا أريد أن أتبهدل قدام الناس. بيديك بقائي أو ذهابي. كلمة واحدة منك.

شعر بشيء يسقط على رأسه يشبه الماء البارد، سرعان ما تحول إلى معدن ساخن سرى في كل عروقه التي بدأت شعلة الحرقة تركبها. لم يقل شيئا. لف سيجارة جديدة من دخان الشعرة الذي يخبئه دائما تحت الوسادة. أخذ يتلذذ ويتلذذ بمذاق التبغ الشعبي و قبل أن ينغمس في بكاء استمر طويلا، تذكر طفولته، ورغوة حليب الأمومة المالح و عيون أمه الواسعة، ورعونة أبيه البدوية و جلافته التي لم تعلمه إلا تهديد زوجته بالذبح أمام عينيه، و فقره الذي تآكل في عظامه و أكواب الشاي، و

الحصيدة، والبرومي الذي يقدد لحم الأرجل وقصعة الخشب التي صنعت من العرعار، كان حين يقربها، يشم من بعيد رائحة الزبوج. تذكر تلذذه بفرقعات الجمار المتقدة، و تسخينه للخبز المر على المجمر. بانت له لونجا مثل أمه، صادقة إلى حد الألم. فهي لا تعرف الكذب بتاتا.

« يا سكورة. آه يا لونجا. أن نحب، معناه أن نجن قليلا و ننسى أن لنا عقلا. نحن الفقراء يا بنتي أكثر الناس قدرة على الحب لأننا أكثر خلق الله تضحية وصدقا و لكن لا نعرف كيف نعبر عن أشواقنا. لا نسأل عن المصاعب، حين يتعلق الأمر بالدفاع عن حقنا في الحياة. عن البحر. عن البراري. عن أشجار التين والزيتون. عنك يا لونجا. »

. أنت متأكدة يا لونجا؟

قالها بفرحة مشوبة بألم ظاهر.

ـ متأكدة مثل تأكدي من وجودك بجانبي. إسأل ماما عيشة، فهي تعرف كل هذه الأمور. جيل من الهلاليين نزل على يديها.

. ماما عيشة على بالها.

. على بالها.

. كيفاش؟

. شافتني لما سقطت. و قالت دوختي ليست عادية و عندما فحصتني تأكدت من حملي. حنا عيشة كبرت و لكنها لا تخطئ أبدا في تقييمها.

مسح عينيه بكلتا يديه، كطفل يغالبه النعاس. شعر بالعصافير المحجوزة داخل قفصه الصدري تنط كالأرانب. تتكسر أغلالها، فتنطلق حرة باتجاه الفضاءات الواسعة التي لا ينتهي إمتدادها.

هاه يا بابا صالح يا آخر سلالة المجانين. هي لذة البقاء الخارقة التي يحرقك غيابها من الداخل. تصوروا يا عباد الله الطيبين، عائلة المجانين تبعث من جديد؟ النور بدأ يدخل محاجر عيون موتى بني عامر. آه يا صالح يا آخر أشقياء السلالة. صدقوا، أن ما تسمعون بحدوثه في آخر العمر هو صحيح، فلونجا تصدق حتى و لو هددت رقبتها بالذبح. الأنبياء يموتون و لا يكذبون. ها قد جاء الذي سيقتل بني

كلبون ويعيد بناء أمجاد قبائل اندثرت على ما تبقى من ركام قبيلتنا. الزمن دار عليها طحنها كما تطحن هذه الأيام قلوبنا. الأولون و هم صفاء السلالة أكلتهم الزلازل و المجاعات و أمراض التيفوس التي إجتاحت بلدتنا الأولى ذات صيف. وصرع الجنون البقية المتبقاة. و الدنيا سائرة دائرة. ها...ها...ها... ستسقط نبوءة سيدي علي التوناني و سيكون هذا الجيل الذي سأرثه من رحم لونجا قمة نقاء هذه السلالة لأنه ولد من الفقر و في الفقر و لحظة الفقر. من كان يقول أن حادثة التبن الغامل وشكارة الخيش و الرحبة الدافئة تعطي هذا المخلوق الذي سيكون حتما جميلا و رائعا. و الله يا صالح. يا المالح. يا السارح. من قال تكون فالح؟ تسرق ما تندم. اللي يجيبه الليل يأكله النهار. كالذيب تتشمم، ما خليت لا زريبة ولا دار. إيه يا صالح. يا السارح. من قال تكون فالح؟

تذكر أمه الطيبة التي كانت تفاجئه بهذه الكلمات كلما قام بعمل جيد. ارتسمت على شفتيه التي عاد لها لونها الآجوري، ابتسامة أشرقت كنجمة إخترقت برودة الغيوم الكثيفة. مسح العرق من على جبهته. ملأته الغرابة مثل الأنبياء اليائسين؟ في آخر العمر يا صالح، يا السارح تستعاد الأبوة المفقودة؟ تعالي يا لونجا. تعالي يا ابنتي تعالي. لن أرفض هذا الرحم الذي استقبل نطفتي المتعبة بسخاء البدو الطيبين.

كانت هادئة. لم تقل شيئا. تتأمل التحولات التي كانت تخضع لها أعماقه، و تنعكس على قسمات وجهه. بانت له عيناها مليئتين بالأشواق. شعر بذعر يلذعه من الداخل.

- إيه يا بنتي. أرفض أن أستغل حنانك و حبك وعطفك ووحدتك. أنا لست غولا. لقد صرتِ في و صرتُ فيك. سأقف معك و مع نفسي و نبحث سويا عن أهلك الطيبين. أنت طفلة يا لونجا و أنا في سن والدك. بلاد القبائل واسعة والفرسان التي تتقاتل من أجل عينيك كثيرة.

. أنت تهرب يا بابا صالح. عليك فتحت عيني. أنت أبي و أمي و روحي. وراس عودك أنت حياتي بأكملها. أنا كبرت على فراش الطاعة بينكم. كبرتُ و لم أعد طفلة تلحس إصبعها.

. آخر كلب في البلدة سيقول بأني عليك جثتي.

. اللي يسمع لكلام الناس تقتله الفقعة. نسمع لك فقط.

. أخاف عليك منهم.

. يا سيدي لا تخف عليَّ.

. أعتقد يا بنتي بأنني مريض بالقلب، و هذا المرض ورثته عن المرحومة أمي قبل أن تتلف الحشائش الضارة والأزهار البرية قبرها. و مع ذلك. فهذا أمر تافه بالنسبة لي. فالمرء في بلدتنا يستطيع أن يعيش طويلا و هو مصاب بمرض القلب.

. قلبك واسع سعة البحار.

ـ غلبتني يا لونجا. و الله غدا سأقولها على الملأ. سنتزوج، و سننجب قبيلة من الأطفال، و قارة من البنات الطيبات. ابتسمي و البقية تأتي. ابتسمي و طز في كل الذين يكرهونك ويكرهونني. سنجد شغلا و نبني من هذا الركام حياة رائعة. إذا لم يكن البراج، سأتحول إلى حطاب. فالغابة قريبة و أعرفها جيدا. فليتها شجرة، و برعما برعما في الزمن الذي مضى مثخنا بالجراح. لن نموت جوعا. تيقني يا بنتي أن الأرض واسعة وسائرة دائرة. صحيح أن حارس الغابات سيتعقبني، لكن سأضمن حياتي على الرغم من متاعبهم.

بدأ العرق البارد على جسدها المنهك يسخن. انتعشت أفراحها من جديد. تحولت إلى عصفور صغير بريشات ملونة، بألوان قوس قزح الجميلة. أخذت تطير هنا و هناك كالفراشة. لكن الدمعات المحرقة، ظلت مستقرة كالجمرات في محجر عينيها.

. سأكون بجانبك طول العمر يا بابا صالح.

. مقطوعان من شجرة واحدة يابنتي.

في الفراش و هما يتذوقان طعم الملوحة و جمال الارتقاء إلى أعالي الأشياء، و رغبة الاندماج، و يستمعان إلى شخير لزرق المنتظم و إلى الأمطار التي بدأت نقراتها تسقط على أسطح الزنك بقوة، تركا نفسيهما تنسابان مثل الماء الزلال. و قبل أن تترك شعرها يتزحلق على ذراعيه الخشنتين و تسبل أجفانها بتعب، تذكرت حكاية البراج. كانت المفاجأة الثانية التي تخبئها له في هذا الليل. الشغل سيبتدئ غدا. و البراج قلبه واسع ضم كل ناس البلدة. ذكرته بأن إسمه مسجل لدى دار البلدية و يمكن الالتحاق بالعمل في أية لحظة. فالكتاتبي فعل كل شيء، الله يكثر خيره.

ـ بمجرد الانتهاء من التحقيق، سألتحق بشغلي. الله يكثر خيرك و خير الكتاتبي. سيشفى لزرق، و سنخرج مع بعض إلى البراري. ببلدتنا أماكن رائعة، لا يصلها إلا لزرق يا لونجا. نحب الجبال التي لم تحن رأسها لأحد. خضرة الغاب. نحب الأطفال الذين ولدوا في الخلاء و نحب القلوب التي لا يتوقف نبضها. طنين مهاريس البلدة الذي ما يزال يملأ أدمغتنا. نباح الكلاب و الديكة وثغاء الخرفان. وحين نتعب، ندرك كم أن الحياة جميلة و تعاش لمرة واحدة ووحيدة. سنتزوج أمام القاضي و الفقيه و جميع خلق الله الطيبين. ستعلمين أنت كذلك. فالأشغال في البراج كثيرة، و مسؤولي الشركات الأجنبية لا يبحثون إلا عن اليد العاملة الرخيصة.

ـ أنا مسجلة يا بابا صالح. سأعمل بجانبك حتى إذا تعبتَ، ارتحتَ و خرجتُ أنا للعمل.

عليك و على الله يا الجازية. تمتم صالح. أنت أردت و أنا لم أرفض. المسؤولية نتحملها مع بعض. لن أكون الملك البرمكي حتى أستغل ضعفك لأفرض عليك جثتي. البرمكي يبيع أمه من أجل فرج جميلة. و أنت جميلة يا لونجا. لن أجبرك على معانقتي إذا لم تكن الرغبة نابعة من أعماقك. و لن أقول لك يا الجازية، مثل ما قال لك أبو الجود وزير البرمكي. إلعبي برأس السلطان. تدلعي عليه. وإذا وقع في حبك إجهزي عليه و تزوجيني. شوفي يا لونجا. كل واحد يسيل لعابه عليك. أنا الآن بدأت أفهم لماذا دخلتِ على البرمكي و معك شيبان متنكرا. و أنت تجهزين على السلطان أضحكك كلام أبي الجود. دوخيه و بعدها اقتليه و نتزوج ثم نقيم أحد أولاد إخوتك حاكما على البلاد. و جلس الأمير البرقيع ابن السلطان حسن ابن سرحان أميرا و ملكا و شيبان وزيرا وذهبت أحلام أبي الجود مع الريح، و بقيتِ الجازية، كما خرجتِ من بلاد نجد، تحلمين بمسح الدم الذي يلطخ ملابسك، حتى أكل رأسك سيف دياب. بدأت أفهم الآن. آه يا لونجا يا بنتي. تيقني، أني لست البرمكي و لست أبا الجود. لا يعشقك إلا إذ ضمن قلبك الطيب. فبينك و بين إبنة سرحان شبه الدم والنجوم.

. تفكر في الجازية؟ في التبن؟ في الدار؟ في ولدك؟

. في كل شيء.

. أنت خائف من السجن؟

. لا و الله. ربما كنت فرحا. فالآن أصبح لي مبرر في السجن و في العمل. فهذا الكائن الآتي عليه أن ينعم بما لم ننعم به نحن. و ستنهار الغولة، و تعود سوالفك إلى عاشقها الذي احترق من أجل أن تحافظ عيناك على سوادهما الجميل واتساعها الذي لا يحد.

. ربما يخرجونك بفدية؟

. كلش على تقرير النمس. و لا يستبعد أن يثقل كاهلي بالتهم. أفضل السجن على الاستجداء. ولن أدخر جهدا لفضحهم واحدا واحدا و بدون استثناء. قد أنقل إلى سجن تلمسان الكبير، و إذا كبرها النمس سأفضح علاقته المشبوهة مع السبايبي و رئيس البلدية واختلاط أياديهم في اغتيال بودلخا الله يرحمه. لدي في موح الكتاتبي أكبر سند، فهو بدوره مصمم على الذهاب وراء القضية حتى العاصمة و مهما كلفه الأمر. معه أوراق كثيرة و تسجيلات موح. سيأكلون رؤوسهم و ملح جلدهم. ستكبر القضية. خليها تتفرقع عليهم الله لا يردهم. مثل عقد رخيص هم، إذا انفرطت عقيقة واحدة تتابعت الأخريات. نامي يا لونجا. نامي و خلّي غدوا لغدوا. كل نهار و وقته.

ثم أخذ يدندن في أذنيها و رأسه مدفون في شعرها. رائحة الحناء. الكحل. و مذاق عود النوار و المسك:

راري يا بنتي رارْ،
غدا يفرج ربي/ و نبني لك دارْ.
غدا يغيب الليل/ ويبان النهارْ.

راري يا بنتي رار،
بلادنا كبيرة/ و أحنا صغارْ.
اللي ما كلاه البر فينا، كلاتُه النارْ.

راري يا بنتي رارْ
غدا ندير الجناح/ و نطير لبعيدْ

نركب بوبركات/ و نكسر القيد.

راري يا بنتي رارْ
غدا يغيب الليل/ ويبان النهارْ...

-3-

صاحت الديكة المنهكة صباح الأحد، صيحات الفجر الأخيرة. أطلت من وراء الغيوم شمس نصف خجولة و جبال امسيردا العالية ببياضها الناصع، وببساطتها الخارقة التي امتزجت بشموخ دغدغ أعماق صالح بن عامر الزوفري. الأمطار التي تساقطت طوال الليل لم تستطع إذابة كل الثلج الذي كان يملأ الحارات و الأزقة الضيقة و الأماكن المظلمة التي لا تصلها الشمس. في البساتين التي تحيط بالبلدة، ظهر على أغصان شجيرات اللوز نوار أبيض، صغير، كان يبشر بربيع جميل. حتى الحركة التي انقطعت، عادت إلى دورتها القديمة منذ الصباح الباكر.

بدأت امسيردا تستيقظ فاتحة عيونها بعياء و تغوص بأقدامها الخشنة في الوحل الذي اختلط بقطع الثلج المتصلبة. لم يعد البومنتل صالحا، انتعل الناس البوطات البلاستيكية الكبيرة. وبدأت الأحصنة و الحمير، تملأ الطرقات، في طريقها إلى سوق البلدة الذي لا يفتح إلا أيام الآحاد. عجائز. نساء حرقن سن الكهولة و الفحولة. الأبقار و الأغنام. ثغاء الحملان الجديدة التي ولدت في الزرائب التي غطتها الثلوج. كعادتها فتَّحت، و رزَّقت، ماما حنا عيشة و هي ملتصقة وراء بقرتها الوحيدة. تتدلى من إحدى يديها سلة قصبية تتلقف بها الروث، حتى قبل أن يصل الأرض. كانت ذاهبة ببقرتها إلى الحقول التي تكاد تغطي كل امسيردا، حيث تهتز على الهضاب الصغيرة المحيطة بالبلدة، شجيرات اللوز العملاقة و تتمايل. تصل أغصانها إلى الأرض التي تتشرب جمالها، ثم سرعان ما ترتفع في انتظار نسمة صباحية جديدة. الكثير من أهل البلدة توجهوا إلى الوادي في محاولة قد تكون يائسة لإزالة الوحل الذي يغلق عيونه و مجاريه و يدفعه إلى الفيضانات مثلما حدث في السنوات الماضية. الناس فرحون، لكن في أعماقهم رعشة خوف، لذلك تراهم كل فجر يقومون ويشتغلون بحثا عن العطل. ربما كانت كل العملية عبثا، لكن هناك شعور غامر ينتاب المرء و هو يعمل حتى و لو كان عمله دون جدوى، أفضل من أن يبقى ينتظر واقفا يبتهل لإله لا يستجيب، و ينتظر هيجان الوادي و فيضانه. حتى أتعابهم

في الفترة الأخيرة بدأت تغيب وسط صرخات الأطفال الذين لا يأبهون بشيء. أملهم الكبير كان في نوار اللوز الذي بدأ يملأ رؤوس الأشجار بعد ذوبان الثلوج.

الطريق الذي يمتد نحو السد امتلأ بالعمال الذين حملوا فؤوسهم ورفوشهم على ظهورهم و زوادات الغذاء، و أحذيتهم البلاستيكية الطويلة، وأقمشتهم الخشنة. على وجوههم ترتسم فرحة خجولة انتظرت زمنا كبيرا حتى كادت تتحول إلى دمعة يأس. حتى سيارة الدرك الوطني و الجمارك التي مرت بين أشجار اللوز، وجدت صعوبة كبيرة في أن تصطف قرب بيت صالح بن عامر الزوفري. كان الأطفال يجرون وراءها. يدفعونها بكامل ما أوتوا من قوة على الضحك و الصراخ. حين تسقط عجلاتها في الدوران الفارغ و يدفعونها من جديد، يلتصقون بمؤخرتها و يصيحون ملء أشداقهم و حناجرهم.

. الديوانه جاوا. الديوانه جاوا. الديوانه جاوا.

و قبل أن تجد لها مكانا مناسبا قرب البيت، و ينزل منها النمس بعينيه الصغيرتين، مد صالح رأسه من وراء الباب الخشنة الثقيلة. فهو يعرف صوت سيارة الديوانة و الجندرمة من بين ألف صوت.

التفت إلى لونجا وكأن المسألة لا تعنيه كثيرا.

. ها هم جاوا. قلت لك يا لونجا. أنا أعرف كل عاداتهم.

مد عنقه نحو الإصطبل. ألقى نظرة أخيرة على جرح لزرق الذي فتح عينيه بكامل اتساعها. هز رأسه، رفعه عاليا، ثم تركه ينزل بهدوء على كومات التبن التي أفرشها له صالح من جديد. تحرك قليلا، لكن سرعان ما أستشعر الدفء فأغمض عينيه في محاولة ما، لنسيان ألم الجرح.

التفت صالح بن عامر الزوفري إلى لونجا. كانت تقف وراءه مشدوهة. عيناها المكحلتان زاد اتساعها على غير العادة. شفتاها جمدتا من شدة البرد، عليهما ظلال القبلات التي استمرت حتى الفجر الأول. يدها تقبض على خصره من الوراء. وجهه البارد لم يتغير. ظل محافظا على شموخه و على خطوطه المتسعة.

. كنت أعرف أنهم سيأتون مع الصبح يا لونجا.

. واش نقول لك؟ اتهلا في روحك.

نظرت إليه. دمعت عيناها. كانت شبه صامتة. داخلها يتمزق. تنظر للكائنات التي تجمدت في حضرتها و لم تعد قادرة على التحرك. المجمر. القهوة التي بدأت تغلي حتى فاضت فسكنت. التبن. الديك الذي لوى برد الشتاء رقبته. الحجارة البارزة التي تعطي الإحساس بأن الحائط بني بشكل أعوج منذ البداية. الأبواب الخشنة التي تآكلت. نقرات الأمطار التي ما تزال حتى اللحظة تملأ آذانها. بقايا قناتي الشراب المبعثرة هنا و هناك. الفلفل الأحمر المشوي الذي يبس على أسلاك نشر الغسيل. الحمامات الكئيبة التي تنزل على الدالية اليابسة ثم تطير إلى أماكن مجهولة.

شعر بلحظة الحزن، تأكلها من الداخل كالسوسة.

. ما تخافيش. شهر بالكثير.

. أستناك العمر كله.

. عندما أعود، سنتزوج رسميا و نلتحق بالسد.

. سأفعل كل ما يرضيك يا صويلحي.

. إتهلي لي في روحك في اللي فيك. إلتحقي بشغلك إذا شئتِ و سألحق بك فور خروجي من السجن.

فرت من أعماقها ابتسامة شبه مرهقة. كان شعرها ما يزال مبعثرا. عيناها الجميلتان نصف مغمضتين. حتى الشدة القبائلية لم تكن كافية لشد كثافة سوالفها.

. ما تنسانيش.

. لا ترهقي نفسك يا لونجا. فكري في الطفل.

شعرت بضرورة الخروج من دورة الخزن. إنها اللحظة الأخيرة، و لا يدري المرء ماذا ينتظره بعدها.

. هل وصل خو لونجا و سقط العود بوبركات.

ـ العود بوبركات يا بنت الناس ما يزال قويا كهذا الحب الذي أكنه للونجا. حين نأخذ العطلة من العمل في السد، سننزل إلى بلاد القبائل الواسعة بطفلنا يا سكورتي، و نبحث عن أهلك يا لونجا. و سنقول لهم أننا تزوجنا على سنة الله ورسوله. و نخبرهم بوفاة الإمام.

. إن شاء الله. فمك لربي.

أحنت رأسها. دمعت عيناها. و قبل أن يطبع قبلة حارة على جبينها و يلبس برنوسه القديم الذي يدفنه في أعماق الخزانة، و يحمل الشمة الورقية والكبريت و الزرواطة، سمع شخير السيارة يتوقف نهائيا و يتكاثر الدق على الباب مصحوبا بصياح الأطفال الذين تتفجر طفولتهم البئيسة في مثل هذه الحالات.

. بسرعة افتح و إلا اقتحمنا الدار.

ـ يا لطيف تحسب وقت الاستعمار؟ أنا جاي. إسمعي يا لونجا، كما اتفقنا إذا خفت، روحي عند ماما حنا عيشة حتى أعود. فقلبها واسع. ما تفكريش.

لم تقل شيئا و لكنها بذلت مجهودا كبيرا لتخبئة عينيها المبللتين.

. كلها أيام قليلة. خليتك بخير.

أنزلق من بين يديها. تتبعته بعينيها المرهقتين. ليست تدري كيف إستساغت الموقف، ربما لأن عودة بابا صالح أصبحت شبه مؤكدة. فتح الباب الذي كان يهتز تحت ضربات يد النمس الخشنة. و قبل أن يخرج وتلتهمه السيارة و الصرخات، إلتفت وراءه. رأى دموعا ملتهبة تحترق في عيني لونجا. تذكر الجازية التي غيبتها الهموم عنه.

« هه... تمتم صالح... يا الجازية، سأذهب، و لكن حين أنجب أولادا سأحكي لهم عنك و عن محيطك وعن الأيام التي عذبتك و كادت تشوهك مثلما شوهتني. صدقيني. كنت مصمما على الرحيل إلى بلاد أخرى، لأن أرضنا أصابها القحط الذي غزا بلادنا ذات زمن بعيد. أنا لست قوادا ولا عبدا نذلا مثل أبي زيد الهلالي الذي شرب ماءنا و أكل ملحنا وسبقنا إليه ملوك بني هلال. الخلاف بيني و بينه يا الجازية، و أنت سيدة العارفين، هو أن مصلحته كانت مع ملوك نجد بينما ظلت مصلحتي في عمق عينيك اللتين اضطهدهما كبار الهلاليين، و مع لونجا و رومل و ماما حنا عيشة و الذين حين تهب الأرياح يخافون على أسطحهم الزنكية قبل أن يخافوا على أنفسهم. هذه المرة سأكون مثلك. بقدر ما يقسون علي، أزاد تصلبا و قوة حتى ينور اللوز، و كما تعرفين أن اللوز حين ينور، يكون الربيع قد بدأ و الشتاء يتضاءل. سأكشف كل أوراقهم المخفية. الكتاتبي وليد شهيد، و لن يخون دم والده. سيقولها أمام الملأ وسيفضح أسرارهم. دموعك يا الجازية، يا لونجا، غالية. غالية

جدا. لقد بكيت بما فيه الكفاية. و إذا لعبوها على رأسي و حكموني في المصالحة مع الزناتي خليفة، سأحمل سيفي و أنزل إلى الساحة مثلما نزلت أنت مع النسوة، حين خاف القوم من شراسة الزناتي، وأخوض حربي المقدسة حتى الموت.

. هز روحك يا السي محمد.

. ما ناش في القيامة؟

فاجأه النمس بعينيه الصغيرتين و بخده المجروح. كانت الضماد البيضاء تغطي نصف وجهه.

. الفنطازية و الهزية يا السي صالح.

. لا فنطازية و لا أي شيء. لم أرتكب جرما. و ليس لدي دين عند أي واحد فيكم. و بيننا القانون يا النمس و الدولة. أنا كذلك أعرف الناس الذين تتسترون عليهم.

. الظاهر أنك أنت اللي تسطر القانون و أنت اللي تحكم؟

ثم كشر النمس عن أسنان دقيقة و صفراء، مصطفة بشكل مرتبك. كشف عن قسمات حديدية أظهرها أكثر، البرد و الثلج.

. تدوس على الدولة و تنتظر أن ينصفك القانون؟

. دست على الظلم و الحقرة.

. تمرغ العلم الذي سقط من أجله الشهداء في الوحل؟

. خل الشهداء يرقدون. يزي ما تبيعون و تشترون بهم.

. مليحة، سبقني و اشكى و ضربني و بكى.

. ما عندي ما نقول اللي تحسبه علي. وين تحب نمشي معك.

. نأخذك لقصر العمياء خداوج؟

قالها بسخرية. ثم رفع كفه، و قبل أن ينزل به على وجه صالح، مرت برأسه ألف فكرة دفعته إلى إعادة دفن يديه في جيبه. كان صالح ما يزال واقفا بشموخ و يده على زرواطته. لم يقل شيئا. عيناه ظلتا غائرتين ووجهه مكدودا وصلبا كقطعة حديد خشنة.

. قلت لك بيننا القانون.

تحسس النمس لا شعوريا مسدسه. فكرة ما مرت برأسه، لكن سرعان ما ألغاها. أحنى رأسه ثم سبقه إلى سيارة لاندوفير. في اللحظة ذاتها مر السبايبي قرب الدار كعادته كل صباح أحد ليتسوق. وقف لحظة. التقت عيناه بعيني النمس الذي حياه بحركة ذليلة:

. صباح الخير سيدي الحاج.

. واش كاين؟

تساءل السبايبي.

. لا شيء. كاين ناس حاسبين ارواحم في غابة لا دولة و لا قانون و لا سلطة.

لم يعلق السبايبي و لكنه تأمل صالح بن عامر الزوفري من أخمص قدميه حتى قمة رأسه. ابتسم ابتسامة صفراء ثم لكز عوده و توجه نحو السوق.

امتعض صالح. شعر ببراكين الحقد تأكله.

. حارس؟ ضع الكلابتين في يديه.

. لا.

. واش ترفض الدولة؟

ـ لا أرفض شيئا. لستَ في حاجة لإهانتي. سأركب من تلقاء نفسي و بدون مقاومة. لستم في حاجة إلى الكلابتين.

تحسس صالح حديد السيارة البارد.

« الغريب في الأمر، هو أن الحالة الداخلية التي يشعر بها الإنسان و هو واقف أمام سيارة لاندوفير، لم تتغير كثيرا بين البارحة و اليوم. بين موح الذي يحمل على صدره أوسمة ملونة و على رأسه خوذة حديدية و بين النمس الذي ينتعل حذاء خشنا و يلبس لباسا يميل نحو خضرة غاملة. »

ثم ركب لاندروفر التابعة للجندرمة و لم يركب مع الديوانة و حراس الحدود. قبَّل بعينيه كل الأطفال الذين كانوا يحيطون بالسيارة، جلابيبهم ممزقة و أنوفهم ألهبها المخاط، ورجه لونجا الذي كان يطل عند فتحة الباب، رومل القهواجي الذي ظل متسمرا في مكانه، ببوطه الطويل المتسخ بالوحل حتى العنق، ورفشه، و قامته الفارعة، يعصب رأسه بخرقة قماش بالية.

أجهد صالح نفسه لكي لا يبدو غاضبا من أحد. ثم مدد رجليه في المقعد الخلفي لسيارة لاندوفير.

. صباح الخير يا رومل. كيف هي صحراء العلمين؟

. تلك حرب على الأقل لها معنى. سمعت بكل شيء. الحمد لله على سلامتك.

. الله يسلمك.

. الصبر. راحنا كلنا معك.

في تلك اللحظة بالذات، قبل أن يضع رومل القهواجي الرفش على ظهره و ينصرف، جاءه طفل يجري. وجهه وأنفه ملتهبان. كسوته الممزقة يملأها الوحل.

ـ عمي رومل. عمي رومل. فتحوا عيون الوادي المغلقة. الماء بدأ ينزل. الحمد لله.

نظر حميدا القهواجي إلى السماء. ثم إلى صالح. دمعت عيناه.

. شفت يا صالح لما يجتمع الرجال؟

. الحمد لله. سينقذون الزرع و الضرع و القهوة من الغرق.

فكر احميده بالصراخ. أن يوصل خبر الوادي إلى كل أركان العالم و الحيوانات والأطيار و الحمامات التي تعودت خشونة يديه. لكن شيئا في أعماقه منعه من ذلك. كانت ماما عيشة قابلة القرية، قد عادت، بعدما ربطت بقرتها في المرعى الذي علت فيه شجيرات الجرجير، و دق المهراز، و الحشائش الدقيقة. تحاول بجهد ظاهر، أن تفتح عينيها المعمشتين. وقفت بجانب السيارة، يدها على قلبها، لم تكن لها القدرة على التفكير، و على فهم ما كان يحدث بالقرب من عينيها.موح الكتايبي الذي كان ذاهبا إلى السوق أوقفه فضول الناس، و تمتمتهم. نظر إلى وجه صالح مع ابتسامة عريضة، ارتسمت على محياه الهادئ:

. عمي صالح صباح الخير. خير إن شاء الله؟

. كالعادة. هما. هما. و أحنا، أحنا.

. عمي صالح أنا معك حتى الموت. أطلبني ستجدني.

. أنت مع القانون و الحكومة و لست معه؟

قاطعه النمس.

. أنا مع عمي صالح لأني عارف واش نقول.

ثم التفت إلى صالح:

. ما تخافش عمي صالح، كلش صار واضحا الآن؟

. الله يكثر خيرك يا الكتاتبي. أعرفك ابن الرجال.

. حكاية الغولة. تعرفها. خلاص. سأفرقعها في أول فرصة. كل التفاصيل معي.

. غدا إن شاء الله سأنزل إلى وهران.

. هكذا نحبك. رجل مع القانون و الحق.

. إيه نسيت أقول لك. قيدت اسمك مع شغيلة البراج.

. رحمة ربي واسعة يا وليدي.

تحركت السيارة بصعوبة قبل أن تصل الطريق المزفت، أو طريق النصارى كما يسمونه. طار الوحل على وجه الأطفال والحاضرين. و حين إختبأت بين شجيرات اللوز العملاقة و بين أغصانها الكثيفة و لم يعودوا يسمعون إلا شخير محركها و هي تبتعد، تفرق الناس و عادت القرية إلى ممارسة طقوسها القديمة وعاد ناس البراريك إلى مناوشاتهم. ظلت صورة العمال تملأ عينيه اللتين دخلتهما ألفة مفاجئة. تأملهم. فؤوسهم و رفوشهم على ظهورهم. تتراقض بينهم كلمات جميلة لم تدر أين تستقر، و ترتفع في أعينهم أغان بدوية تثير الدهشة، حتى غابوا عن نظره نهائيا في المنعرج. و لم يعد يرى إلا الثلوج المتراكمة على القمم، و الأمطار التي تحولت إلى خيط يربط السماء بالأرض. دغدغته السهول الواسعة التي تمدد بدون حدود. و أراضي السبايبي الموضوعة قيد التأميم و أشجار اللوز التي بدأ نوارها يخترق نتف الثلج العالقة بالأشجار، وبقايا أغنية لونجا الجميلة التي أخذت تملأ خواء حضوره و تلون هذه الأمطار بألوان قوس قزح الذي ارتسم فجأة على عرض السماء. ابتسم ابتسامة خجولة ثم غفا على هز السيارة و نقرات الأمطار ووجه لونجا الذي اختلط بوجه الجازية و صمت الجندرمة الذين لم يقولوا شيئا وبقايا الأغنية القديمة:

سر يا لزرق سرْ...

سرجوا لي عودي و المخله

نلحق عليهم في الدخلة...

الجزائر/ دمشق- شتاء 1982.

الفهرس

فاتحة الرواية
الفصل الأول: **تفاصيل صغيرة**
الفصل الثاني: **ناس البراريك**
الفصل الثالث: **احتمالات موت مؤجل**
الفصل الرابع: **صهيل الجياد المتعبة**